حامد الشريف
رئيس محكمة سابقاً
ماجستير في القانون
محامي

فن المرافعة

وصناعة المحامي ووكيل النيابة المترافعين
أمام القضاء الجنائي

الناشر
دار الفكر الجامعي
الإسكندرية

حامد الشريف
رئيس محكمة سابقاً
ماجستير في القانون
محام

فن المرافعة

وصناعة المحامي ووكيل النيابة المترافع
أمام المحاكم الجنائية

الطبعة الثانية
مزودة ومنقحة

١٩٩٤

دار الفكر الجامعي
٣٠ شارع سوتير - الأزاريطة



« رب اشرح لى صــدرى ويسر لى امــرى واحلل

عقــدة من لســانى يفقهوا قولى ٠٠ »

(صدق الله العظيم)

قرآن كريم

الإهداء

الى محامى مصر :

مصابيح العدالة وشموعها

رفقاء أشرف رسالة وأنبل مهنة

مهنة الجبابرة ..

اهدى هذا الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

خير بداية دائما هى البدء بحمد الله جلت قدرته على سابغ فضله ونعمته وفائض احسانه ورعايته عليه عز وجل اعتمادنا وبه سبحانه وتعالى اعتزازنا . وصلاة وسلاما على أشرف المرسلين سيدنا محمد النبى الأمى المبعوث رحمة للعالمين .

وبعـــــــد :

لقد وضع هذا الكتاب للاجابة على سؤال بلغ مبلغا كبيرا من الأهمية وهو : كيف تصبح محاميا مترافعا ؟

وقد يبدو الأمر يسيرا فى البداية خاصة اذا لاحظنا أن جانبا كبيرا من الأساتذة المحامين قد جبلوا على المرافعة بالفطرة وبالموهبة الطبيعية التى حباها الله لهم . ولكن ينبغى للمحامى من الطراز المترافع أن يقوم بتدريب نفسه بين الحين والحين وانتقاء بعض العبارات الجميلة والتقاط ما يبدو له مفيدا فى مرافعاته ويعتمد فى ذلك على مجهوداته الذاتية ، وفضلا عن ذلك فانه يوجد قطاع عريض من المحامين الشبان فى حاجة ماسة الى تعريفهم بالمرافعة أمام المحاكم وأساليب تلك المرافعة وصورها وأشكالها وكيفية المرافعة والالقاء والارتجال وتكوين المرافعة كما أنه تبدو الحاجة ـ بالنسبة اليهم ـ ضرورية فى بث الثقة والشجاعة فى نفوسهم عن طريق محاولاتهم حفظ بعض أساليب المرافعة من مقدمات

أو خواتيم والخطة العامة الهيكلية لموضوع المرافعة وهو موضوع القضية التى يتم المرافعة فيها .

ولذلك أثير التساؤل عما اذا كانت المرافعة علم أم فن ؟

فالعلم يتطلب الاعتمـــاد على قواعد أصولية وأسس منهجية حتى يصل الطـــالب فى النهاية الى مراده اذا قام بدراستها والتدريب عليها بانتظام ومعرفتها تماما .

أما الفن فهو يعتمد فى جانبه الأكبر على المواهب الطبيعيـــة التى يمنحها الله للأفراد بحيث يختلفون فيما بينهم ومنها موهبة الخطابة أو المرافعة أمام المحاكم .

والحقيقة أن المرافعة أمام المحاكم خليط بين هـــذا وذاك . فهى فن فى المقـــام الأول وتعتمد على الموهبـــة الطبيعية ثم هى لا تخـــلوا أبدا من أن تكون علما يقوم الباحث بتعليم نفسه بنفسه أسلوب المرافعة وحفظ بعض الأقوال للاستشهاد بها فى المحكمة عند بداية انطلاقه .. كل ذلك حتى يقوم المحامى بواجبه كاملا فى المحكمة ويستطيع القيام بدوره الذى يضطلع به . ومن المفيد أن نؤكد على أنه يجب تدريس مادة الخطابة القضائية — المرافعة — فى كليات الحقوق حيث أنها المكان الوحيد الآن فى مصر الذى يجب أن يقوم بتزويد طالب القـــانون بأسس وأصـــول المرافعة أمام المحـــاكم وحتى يتسنى للطالب بعد تخرجه ســـواء عمـــل بالنيابة أو المحاماة أن يقوم بواجبه كاملا لاعمال مبدأ شفوية المرافعـــة موضع التطبيق .

وحتى يحين هذا الزمن فان الطريقة الوحيدة هى تنمية عادة القراءة التى تكسب الانسان الاحساس بجمال الأسلوب وانتقاء الألفـــاظ التى تضع الانسان على درجة عالية فى هذا المضمار لأن السر فى ذلك كما كتب

لنكولن أشهر الخطباء الى شاب يتوق ليصبح محاميا ناجحا يكمن فى الحصول على الكتب وقراءاتها ودراستها بانتباه لأن العمل هو الشىء الأساسى للنجاح[1] • فاذا اتبع الباحث هذا المنهج فضلا عما يمنحه الله سبحانه وتعالى للبعض من المواهب الطبيعية الفذة القادرة على الانفجار فسوف ينشأ جيل من المحامين من الطراز المترافع من أصحاب مهنة الجبابرة الأمر الذى تزدان به كنوز تلك المهنة •

واذا كانت كل الحقائق تنادى بجلال دور المحامى وواجب تمكينه من القيام بمهمته على أوسع نطاق هذا الالمام الذى يتوقف عليه هو نفسه وعلى مدى المامه المطلوب بكافة العلوم الانسانية كلها • فان الحقيقة الكبرى هى أن انشاء المحاكم وتنوع القضاء يرتد الى أصل واحد ألا وهو حماية وصيانة ورعاية حقوق الدفاع أمام تلك المحاكم • هذا الحق الذى كفله الشارع بقوة القانون والذى له ضماناته وامتيازاته وحصاناته وأوضح صور ذلك الحق المرافعة الشفوية وخاصة فى المسائل الجنائية •

ويرتبط ذلك بمبدأ شفوية المرافعة أمام المحاكم •

ولقد كان أملا أن يصدر فى موضوع المرافعة كتاب يجمع بين دفتيه أحكام المرافعة الجنائية وأصولها وأساليبها ، اذلك راودتنى هذه الفكرة منذ أعوام سابقة وبالتالى فان جذور فكرة اصدار هذا الكتاب تعود الى فترة مضت ابان عملى بالنيابة العامة وكان أشد ما يسعدنى أن يقوم الأستاذ المستشار المحامى العام بتكليفى بالمرافعة أمام محاكم الجنايات وأنا مازلت معاونا للنيابة ولشدة دهشتى الآن أننى كنت أقبل ذلك راضيا تماما بل ومستبشرا •

---

(١) دايل كارينغى — فن الخطابة — كيف تكسب الثقة وتؤثر بالناس ص ١٦٤ منشورات دار الكتب الهلال — بيروت — ط ٢ سنة ١٩٨٦ •

ولم يكن يخالجنى الشك ولا الخوف على الاطلاق ، بل كنت بحمد الله تعالى ، شجاعا فى المرافعة ولم أمنح فى أحيان كثيرة الفرصة الكافية لدراسة القضية الدراسة المستفيضة المتأنية لأن الجميع يعلم أن وكيل النيابة المترافع غالبا ما لا يكون هو وكيل النيابة المحقق لطول فترة الاجراءات وخاصة أمام محاكم الجنايات .

ومضت هذه الفترة الجميلة من حياتى وأنا مازلت أحلم بانشاء كتاب عن المرافعة أمام المحاكم قد يفيد منه الزملاء المحامون أو أعضاء النيابة العامة ثم تبلورت تلك الفكرة فى ذهنى تماما واستجمعت أركانها عندما عملت بالمحاماة ووجدت أن عددا كبيرا من المحامين فى حاجة ماسة الى موضوع هذا الكتاب خاصة بعدما شاهدت مرافعات كبار محامى مصر أمام المحاكم . فآليت على نفسى ووجدت أن من واجبى أن يصدر هذا المؤلف لكى يسير محامو العصر على الأسلوب الأمثل فى المرافعة احتذاء بالسلف من جبابرة المحامين فى العصور السابقة .

ومما لا يغيب عن البال أن أهمية هذا الكتاب لا تنصرف فقط الى حاجة الزملاء الجدد له لخلو المكتبة القانونية من المادة العلمية له . بل انه أيضا يفيد الزملاء المتقدمين فى القانون بدرجة كبيرة .

ولذلك استلزم هذا الكتاب أن نعرض لأحكام وقواعد المرافعة أمام المحاكم فى الفصول الأولى من الكتاب .

ثم عرضنا لطائفة من مرافعات سلف المحامين المشهورين فى النهاية.

وعلى هذا النحو فقد قمنا بتقسيم الكتاب الى الفصول الآتية :

الفصل الأول : مفهوم المرافعة

الفصل الثانى : عناصر المرافعة

الفصل الثالث : أحكام المرافعة

الفصل الرابع : المرافعات الذهبية

على أن يسبق ذلك كله فصل تمهيدى عن المحاماة وصلتها بالمرافعة.

وبعد :

فهذه مجرد محاولة متواضعة للغوص فى أعماق موضوع على جانب كبير من الأهمية فضلا عن خطورته .

وأرجو أن أكون قد وفقت فى معالجة فن المرافعة أمام المحاكم الجنائية . فان كنت أصبت فمن الله وان أخفقت فمن نفسى .

« والله ولى التوفيق »

حامد الشريف

فصـــل تمهيـــــدى

المحـــاماة مهنـــة الجبـــابرة

ان المحاماة أشرف مهنة وأنبل رسالة .

فالمحامى — عند بعض الناس — هو حامى الضعفاء والأرامل واليتامى يدافع متبرعا أو مأجورا عن القضايا العادلة ليخلص المظلوم واليـائس ويرد الحقوق المغتصبة لأصحابها ويسمع صوتهم لممثلى العدالة ويقوى حجتهم ويدفع عنهم كيد الكائدين ويكشف ستر المتآمرين . ولذلك قال عنه المنصفون أنه حامل الشعلة التى تبدد غياهب الشك وتنير الطـريق الى العدالة والحق ومن ثم فهو الشمعة التى تحترق لكى تضاء مصابيح العـدالة .

وهو يعتبر — عند البعض الآخر — مجرد ثرثار أجير ، الكلام صناعته والأكاذيب بضاعته سيان عنده أن يدافع عن الحق أو البـاطل مادمت ستدفع له الأجر ليستعين بعلمه لكى ينصر باطلك على حق خصمك ويسعى بعلمه أيضا ليفلت المجرم من العقاب العادل وهو العليم بجرمه .

والحقيقة وسط بين الرأيين . فالرسالة شريفة والمهنـة نبيلة وهى ضرورية لا يضـيرها أن يكون بين أفرادها — مثلما يكون بين غالبيـة الفئات — من يسيئون اليها ولا يحقرون الا أنفسهم . ولأن المحـاماة بحق أنبل مهنة وأشرف رسالة فهى قديمة قدم القضاء وضرورية كالعدالة

---

(١) انظر — كنوز المحاماة — المرجع السابق — ص ٣ ، ١١ .

ونبيلة كالفضيلة ولذلك فهى تجمع بين النبل والسمو • ولذلك فان الناس تعجب بالمحامى المفعم بالطاقة — مولد الطاقة البشرى — صاحب الابتسامة الساحرة •

ولا شك أن واجب المحامى يقتضيه أن يسمو بنفسه عن كل اغراء قد يدفعه الى محاولة الحصول على كسب أكبر عن طريق اطالة أمد النزاع كما أن هذا الواجب يملى عليه أيضا أن يبذل كل الجهود الممكنة لاقناع موكله أن يكون معقولا عادلا وهو فوق كل ذلك مطالب بأن يكون على قدر المستطاع قاضيا وان لم يجلس على منصة القضاء وبالتالى لا يحق له أن يحمل اللقب المشرف المتعارف عليه وهو لقب « أستاذ » اذا اقتصرت معلوماته على اللوائح فقط لأن المحاماة هى مهنة كل المهن ولذا يجب أن يتزود المحامى بكافة العلوم الانسانية والاجتماعية عند ممارسة نشاطه[٢] •

والمحاماة تفتح أبوابها على مصراعيها لرجال القضاء الجالس والواقف يجيئون اليها ومعهم بضاعة غالية من تجارب حصلوا عليها وقد نبغ منهم الكثيرون ووقفوا على قدم المساواة مع كبار المحامين •

والمحامون هم عماد القضاء وسنده لأن عملهم هو غذاء القضاء ولئن كان على القضاء مشقة فى البحث للمقارنة والمفاضلة والترجيح فان على المحامين مشقة كبرى فى البحث للابداع والتأسيس ، بل ان عناء المحامين أشد فى أحوال كثيرة من عناء القاضى لأن المبدع خير من المرجح •

ويجب أن يمهد المحامى لنفسه لهذه الصناعة وهو مقبل عليها بالرضا المطلق والثقة حتى يغرم بالمحاماة اغراما يطعمه حلاوتها وحلاوة الاخلاص

---

(٢) انظر — احمد رشدى — المحاماة كما اعرفها — المرجع السابق — ص ١٤٦ •

فيها أما التراخى فانه يمهد العذر ليصبح محامى ضرورة ثم الفرار الى احدى الوظائف الحكومية •

ومهما تكن حال القاضى من علم وخبرة وحال المتقاضين من لهفة على الفوز وتطلع الى الغلب فالمحامى وحده هو الذى يسوس الدعوى ويتولى توضيحها فهو «سيد الدعوى بلا منازع» وهو وحده فى الأعم الأغلب الذى يرجع اليه المنقلب من نجاح أو خيبة وبيده لا بيد سواه تحيا الدعوى أو تموت •

فلكل دعوى روح خاصة تنشر الحياة على أعضائها •• وحياة الدفاع فى أسلوبه وفى طريقته وفى حسن اختيار الأدلة وحسن ترتيبها وفى تصوير الدعوى والرد على أوجه دفاع الخصم •

والمحامون هم روح العدالة ، فاذا كانوا لا يكتبون الأحكام فهم يعدون لها البحوث والمرافعات فيقدمون للقضاء المادة الأولية لصناعته وكثيرا ما يقتصر عمل القاضى على الأخذ باحدى النظريتين التى تتقدم بها الدفاع أو أن يوفق بينهما •

والغذاء الفكرى للمحامين هو التشريع والفقه والنظريات القانونية الحديثة ولذلك فالمحامى عندما يؤدى عمله يعتبر شمعة تحترق لكى تضىء مصابيح العدالة وتضىء مسالك تلك المهنة الشريفة ، فالمحامون هم رسل العدالة الذين يدافعون فى كل العصور عن الحق فى قاعات المحاكم التى هى حرم العدالة الحامى للحريات •

وقد يتبرم القاضى من اطالة دفاع المحامى ويستحثه على الايجاز والاختصار ونحن لا نيأس أن نجد لمثل هذا القاضى عذرا لأن فرصة العمل بالمحاماة لم تتهيأ له يوما من الأيام وذلك لأنه لم يشاهد كيف

يجلس المحامى للقاء قصاده وكيف يستمع الى شكواهم وكيف يعرضون عليه ما بينهم وبين خصومهم من المنازعات وكيف يضطر كارها أو طائعا أن يسمع أقاصيصهم •

والمعرفة بكل نواحيها غذاء لازم للمحاماة كما ينبغى أن تكون • ولقد قال بلاتون ان مهنة القانون سيدة غيور تأبى الا أن تشغل وحدها فراش الزوجية دون شريك لها •

والآخرون ذهبوا الى أنها ليست زوجة غيور بل هى باحتياج دائم الى رفيقات ورفقاء آخرين فالقانون هو أول العلوم الاجتماعية ويحتاج المحامى الى دراسة علوم الفلسفة والفقه والتاريخ والعلوم الطبيعية وغيرها وعلى المحامى أن يرفع بين الحين والحين رأسه عن مكتبه لينظر من النافذة الى العالم الواسع اذ أن الانكباب على مادة بعينها خليق بأن يورث المحامى ضيقا فى الأفق وسطحية فى النظر ولا يخرجه عن ذلك الا تلك المخالطة بين القانون وذخائر العلوم والأدب •

فالمحامى يعكف على القضية الموكل فيها باسطا أمام القاضى ما تثيره من مشاكل قانونية وآراء الفقه بشأنها عارضا لحجج كل طرف وأسانيده ليسهل على القاضى مهمته وينير طريقه وييسر له الوصول الى الحقيقة[٣] •

وكم من قضايا لم تتضح خفاياها الا بعد سماع مرافعة المحامى ، وما أكثر الأمور التى لا يكفى فيها مجرد الاطلاع على ملف القضية لكشف غموضها فيتبدد هذا الغموض بالقاء المحامى الضوء على ظروف القضية

---

(٣) د/رمسيس بهنام — علم النفس القضائى ١٩٧٩ — ص ١١٦ •

وملابستها وكم من قضايا تعثرت أمام القضاء لصعوبة ترجيح حق على آخر فأدى نقاش المحامين وتفنيد كل منهم لرأى الآخر وحجية الى اظهار وجه الحقيقة فيها[٤] .

وأخيرا فالمحامى وهو الرجل الذى يسعى لتحقيق العدالة دائما هو ضحيتها فموكله الذى يخسر القضية لا يسلم أبدا بحق خصمه وينسب الخسارة لتقصير محاميه وليس لعدالة ما حكم به ، والموكل الذى يكسب قضيته لا يرجع ذلك لجهد محاميه بل ينسب الفضل فى كسبها الى وضوح حقه ونزاهة قاضيه[٥] .

ان المرافعة أمام المحاكم — وخاصة الجنائية — فن رفيع ، بل تعتبر قمة الفنون على الاطلاق هذا الفن يحتاج فى مناحيه العديدة للموهبة[٦] وان عمل المحامى هو معاونة العدالة على اظهار الحقيقة بالوقوف الى جانب المتهم . لأن العدالة هى اعطاء كل ذى حق حقه ومن التقاليد العريقة المسلم بها فى مهنة المحاماة أن زمام الدفاع هو أمر يتعلق بالمحامى وحده له من السيطرة عليه واستغلال ذلك فى توجيه الخصومة الوجهة التى يراها أقدر على تحقيق مصالح الأحكام فهو وحده صاحبه لا يتقيد فى ذلك بأى قيد[٧] .

---

(٤) د/أحمد صاوى — شرح قانون المرافعات المدنية والتجارية ١٩٩٠ من ٧٧ حتى ١٤١ .

(٥) حسن الجداوى — كنوز المحاماة — ص ١٢ ، الصاوى بند ٧٩ حتى ١٤٣ .

(٦) د/حسن صادق المرصفاوى — المرصفاوى فى الحقق الجنائى — ١٩٩١ .

(٧) د/أحمد ماهر زغلول — الدفاع المعاون — دراسات حول مهنة المحاماة — ص ٢ سنة ١٩٨٦ — ص ٥١ — بند ٣٠ .

ولذلك يجب أن يكون المحامى فصيح اللســان بالغ الأثر بكلامه متلاعبا بالعقول والقلوب فهو سيد الدعوى بلا منــازع ويتســم بروح العــدالة ويعتبر شمعة تحترق لكى يضىء مصابيح العــدالة وهو ضحية العدالة بلا شك وكلامه يتصف بجمــال الأســلوب وعمق الفكرة وتأثير البلاغة ، وسلاسة التعبير وقوة الأسلوب وجزالته ، ويجب ألا تغيب عنه عبارة ولا يتعثر له لسان .

كما يجب أن يتصف بحلاوة وطلاوة اللسان وسحر البيان والبلاغة وقوة السحر ويجب أن يتعلم كيف يعالج قاضيه ويلعب على أوتار قلبه حيث اللعب بالكلمات ويقول هنيئا للقاضى العادل الكــريم الجواد ولا يلعب بالنار عندما يقول « ويل لقاضى الأرض من قاضى السماء الا من عدل » .
ويجب أن يكون دفاع المحامى مرتجلا ملتهبا ويعتمد على عدة ســليمة وليس عدة فاسدة .

الفصل الأول

مفهـــوم المرافعـــة

تمهيـد وتقسـيم :

نعرض فى هذا الفصل للمفهوم الواسع لمعنى المرافعة أمام المحاكم الجنائية • وسوف نتناول هذا الفصل فى مطلبين حيث نعرض فى المطلب الأول لماهية المرافعة أما المطلب الثانى فسنخصصه لمبادىء المرافعة •

المطلب الأول : ماهيـــة المرافعـــة

أن المرافعة فى ساحة القضاء معركة أو ان شئت الدقة فقل هى مباراة تشرف عليها روح رياضية عالية يشترط فيها الصدق وعدم أخذ الخصـــم غيلة ، والالتجاء الى سلاح شريف لا زائف ولا مسموم ، مباراة أسلحتها الوحيدة المعتمدة قوة البيان وثبات الجنان وقرع الحجـــة بالحجـــة • والتدليل المنطقى والاستعانة ــ ولكن بقدر ــ بتأثير العاطفـــة واستدرار رحمة الحكم الذى هو القاضى ، أو استثارة غضبه لتحقيق واجبه كمحام الهيئة الاجتماعية يدفع عنها عدوان المعتدين ، وكملجأ المظلوم وســـند المهضوم •

وهذه المباراة التى يتولى ادارتها دائما قاض واحد أو قضاة تجرى دائما فى قاعات متشابهة الوضع وبتنسيق يكاد يكون واحدا فالحكم يجلس فى رس القاعة • وتشرف عليه تلك الحكمة الخالدة التى تبلى الدهور وهى لا تبلى وتتغير المبادىء والأنظمة وهى ثابتة التى تقـــرر أن « العـــدل أساس الملك » •

فاذا بدأت المباراة وجب على كل من المتبارين أن يبذل قصارى جهده ليقنع الحكم بحقه ، وليعقد له لواء النصر ولكن المباراة فى سبيل العدل لا يستعمل فيها الا سلاح الحق والصدق تسمو فيها الروح الرياضية الحقة ، فلا مداورة ولا مواربة ، ولكن كلمة الحق تقال وان أضرت بقائلها ، وحجة الخصم يسلم له بها وان خسرت المعركة بسببها ٠

فالخاسر فى هذه المباراة والكاسب سواء ، كل منهما سعى لنصرة الحق وبها فاز ٠ فالمرافعة هى عملية ذهنية سريعة أى عملية عقلية محضة ولذلك يسهر المحامى الليالى الطوال يسأل أوراق التحقيق أسرارها ، ويستلهمها خباياها ، ويستنبط الحجج التى أعدها لصالح موكله ، ويعد لليوم الموعود ما استطاع من عدة وبيان ، ما بين شهود ينفى بهم الاتهام، وأسئلة محرجة يقضى بها على شهود الاثبات ، ومستندات قاطعة فى الدعوى قاصمة لأدلة الاتهام فاذا ما جاء يوم الفصل بحث عن لسانه فوجده فى جوانب فيه لا يدرى ما يقول وبحث عن الحجج التى أعدها فاذا بها قد تبخرت وخلا منها بيانه ونظر الى المستندات التى ظنها دامغة فاذا بها قد تحولت قصاصات لا قيمة لها فى الدعوى ان لم تتحول مستندات عليه لا له ٠

وتعتمد هذه المباراة على رصيد كبير لا يقدر بالنقود أو الذهب ولكنه رصيد الكلمات ، فالكلمات فى ترتيبها الطبيعى هى مادة القانون الخام وهى تمتاز بسحرها الخاص حيث ان لها صوتا كما أن لها لونا ومعنى ومن ثم فان اختيارها فى تركيب سليم يزيدها سحرا وقوة فعندما نضم بعض الكلمات الى بعضها البعض نجد أن الحياة قد دبت فى أوصالها بطريقة لا ندريها وكأننا أمام شعر أو أمام أغنية ٠ وليس مجرد جملة بل أمام الهام متدفق وسرور لا ينتهى[1] ٠

---

(١) كنوز المحاماة — يوجين جيرهارت — ص ٣ ، سنة ١٩٦٧ ، مكتبة النهضة العربية القاهرة ، ترجمة حسن الجداوى ، محمد عمر ، تقديم حسن جلال المعروسى

ولذلك يجب أن يتسلح المحامى عند تحضير موضـــوع المرافعـــة بالمبادىء العامة فى القضية وقد يتساءل فى قضية سرقة مثلا ..

لماذا يقوم المتهم بالسرقة ؟

وكيف يقوم بتلك السرقة فى هذه الأحوال ؟

ومتى يقوم بالسرقة وهو غير متواجد ؟

وأين يقوم بها فى هذه الأحوال ؟

كما يتسلح ببعض المفردات مثل :

والغريب فى هذه القضية

والعجيب فى تلك الأقوال

والمفيد فى كل هذا

والمثير فى هذا الصدد

والذى يدعو الى الغرابة والدهشة

والسر الدفين فى هذا يمكن فى كذا

ومن هنا تأتى أهمية المرافعة بالنسبة للمحامى شفوية كانت أم كتابية فهى سلاحه الأكبر التى تظهـــر مواهبه وتنشر جهوده . فهى للمحـــامى كالمشرط للجراح وكالقلم الكاتب وكالفرجار للمهندس وبالتالى فان جمال الأسلوب وعمق الفكرة وتأثير البلاغة من صفات المحـــامى الناجح . ولقد بلغ بكبار المحامين الذروة فى سلاسة التعبير وقوة الأسلوب وجزالته ، ومن ثم لا تغيب عنهم عبارة ولا يتعثر لهم لسان لأنهم اتصفوا بحلاوة وطلاقة اللسان وسحر البيان والبلاغة لتأكدهم من أن الوقوف للمرافعة لا يقل شرفا بحال من الأحوال عن الجلوس للقضاء .

فالمرافعة فى المحكمة ليست معركة بقدر ما هى مباراة شريفة أسلحتها الوحيدة تعتمد على قوة البيان وثبات الجنان وقوة الحجة والتدليل المنطقى .

ويجب التنويه الى أن السلاح البتار للمرافعة هو الاخلاص فى عرض الوقائع ومناقشة الأدلة وليس مجرد اخفاء نقطة الضعف فى القضية التى تحتمل جانبين أحدهما مظلم والآخر مضىء حتى ولو تغلب الجانب المظلم على الآخر .

ومن هنا فان الكلام الغامض عن وقائع غير واضحة يجعلها غير مفهومة لكن الحديث الواضح عن حقائق غامضة يضفى عليها بصيصا من النور وكثيرا من الضوء الساطع .

ومن هنا نلاحظ أنه قد يترافع أحد المحامين ساعتين ويكون مقلا كما قد يترافع غيره خمس دقائق ويصبح مملا ولا يكون ذلك الا بالتركيز على الجانب المظلم من القضية أكثر من الجانب المضىء .

ويجب ملاحظة أن سحر الصوت السريع المجلجل وموسيقى ذلك الصوت تؤثر فى السامعين . وهذه احدى سمات المحامى المترافع الذى يتميز بمقدرة أصيلة على الفصاحة وطلاقة اللسان الآمر الذى يؤكد أن لكل قاض محام بمعنى أنه يجب النظر الى حالة القاضى وظروف الجلسة واليوم وغيره . فالمحامى الذكى هو الذى يعبر الى أعماق قاضيه بنظرة واحدة ومن ثم يختار الأسلوب الملائم للمرافعة باعتبار أن لكل قضية مقال بمعنى أن الصوت العالى والثورة الجارفة من المحامى مؤشر على أن المتهم مظلوم فعلا ولكن اذا كانت الأدلة قوية فيحسن الالتزام بالهدوء والاتزان الكامل لاستعمال عوامل الرأفة فى القضية . وذلك مع الالتزام بأساليب المرافعة التى سوف نتناولها فيما بعد وان كنا نرى أن الأسلوب الأمثل للمرافعات أمام المحاكم هو حفظ بعض المقدمات والخواتيم مع

معالجة الموضوع من زاويتى الواقع والقانون وذلك باللغة المختلطة بين الفصحى والعامية •

فالمرافعة ليست هى الفصاحة وحدها ولا هى العلم بالقانون وحده ولكنها قبل أن تكون غزارة علم وزخرف كلام هى سياسة يقظة واستبصار حول الدعوى وروعة فى الأداء ولباقة فى ايراد الأمر واصداره بالنسبة للدليل •

ويجب أن يكون الكلام ثوبا للمعانى المقصودة لا قصيرا ينكرها وتنكره ولا طويلا يتعثر بها وتتعثر فيه فقد تكون لاحق المطلوب حياة فى نفسه ولكن لا يلبث أن يموت لأن قصور الابانة عنه تركه مختنقا تحت ترابه أو لأن الخروج عن القدر اللازم للابانة عنه الى الاطناب فى غير مقتض أو الى التعلق بالحواشى البعيدة عن صلب الموضوع أرسل من الملالة والسأم ما يضيق به صدر القاضى فلا تجد الحقيقة مسلكا الى قلبه لأن القاضى على كل حال بشر تعنيه الحجة الظاهرة فى العبارة الموجزة عن التطويل باعادة ما قيل أو بما لا يقوم به الدليل(٢) •

وان متطلبات النجاح فى المرافعة هى الفضيلة وروح المبادرة والعزم والشجاعة • فاذا أردت أن تكون محاميا مترافعا واثقا من نفسك فانك ستصبح كذلك لكن يجب أن ترغب فى ذلك وتسير على الطريق الصحيح بعدم اليأس •

وانها لرسالة مقدسة — رسالة الدفاع — أن تقف بجانب رجل برىء هجره ذووه وتنكر له أصدقاؤه وانصبت عليه لعنة الناس من جميع النواحى لتدافع عنه وذلك كما يقف القسيس الى جوار المذنب المحكوم عليه

---

(٢) أحمد رشدى — المحاماة كما أعرفها — ص ١٥٣ — الكتاب الذهبى للمحاكم الاهلية ط ٢ ، ١٩٩٠ .

بالاعدام ويسير بجواره وسط صخب الصاخبين حتى قاعدة المشنقة ثم يبعث به واقفا للقاء ربه والمحامى من جانبه يقف بجـوار هـذا البرىء ويرفع صوته وسط الاتهامات والجلبة ليبعث بهذا الرجل نقيـا مطهـرا أمام الناس •

فلايمكن أن يدر المحامى ظهره لأى متهم — أبدا — مهما تكن تهمته وكلما كان صراخ المعترضين عاليا كانت حاجة المتهم لمحام أشد وأقوى وحين يدير جميع الناس ظهورهم للمتهم يحتم القانون أن يعين له محاميا يترافع عنه ويكون له ليس مجرد محام بل صديق •

ومن الشروط الهامة فى المرافعة :

١ — وحدة الموضوع •

٢ — ترتيب الكلام وترتيب الأفكار بحيث يبدأ أولا بالفكرة البسيطة ثم يتدرج حتى يصل الى قمة ما يريده • وفى القمة يبدو انفعاله وقـوة صوته وقوة عباراته جميعا •

٣ — اذا انتقل المترافع من الفكرة الأساسية الى الأدلة التى يريد الاستناد اليهـا يجب أن تكون أدلته واضحة قريبة متصلة بما عرضـه فى موضوعه •

وعـلى أى حال فان عرض الموضـوع لابد له من نوعين من الأدلة تؤيده وأدلة تدفع ما يعارضه أو ما عسى أن يعارضه ولا شك أن المرافعة أمام المحاكم لها أساس واضح من القانون حيث تستند الى مبدأ شفوية اجراءات المحاكمة الجنائية باعتبارها من المبادىء العامة للمحاكمة اعمالا للمواد ٢٦٨ — ٢٩٤ اجراءات جنائية •

ولكن الخطأ المميت الذى يقترفه الكثيرون يكمن فى اهمال تحضـير

المرافعة فكيف يأمل ذلك المحامى حتى فى قهر الخوف والتوتى العصبى حين يخوض المعركة بعدة فاسدة أو بدون أية عدة على الاطلاق •

فالمحامى فى مرافعته صاحب رسالة حقيقية يسعى الى ابلاغها عن طريق أسلوبه وصوته ونبرته ولن يستعين فى ذلك الا بالمواد الخام من الكلمات التى استخرجها من منجمه الخاص •

ويجب ألا يجعل المحامى من حديثه مجرد موعظة مجردة للمحكمــة لأن ذلك سيكون مملا •• اذ يجب جعل الحديث مثل كعكة مزينة بالأمثلة والعبارات الرنانة •

والمرافعة الجيدة هى تلك التى تتسلح بمادة احتياطية وافرة فائضة أكثر بكثير مما يستخدمه المدافع والا كمن بدأ من دون أن يعرف ما الذى سيقوله وانتهى دون أن يعرف بما نطق •

ولذلك فان بناء المرافعة هام جدا حتى يحقق المحامى رسالته وحتى يكون المحامى سيد موضوعه بالعمل الشاق والتخطيط الصائب والعمل التحضيرى الدائب حتى يصبح محاميا ماهرا وحتى لا تكون كلماته مثل المطــرقة •

والنصيحة الأساسية هى ألا يبحث المحــامى عن الكلمات ولكن يجب عليه أن يبحث فقط عن الحقيقة والفكرة فعندئذ تتدفق الكلمات من دون أن يسعى اليها •

والمحامى الناجح هو الذى يلم بقوانين التــذكر الطبيعيــة وهى الانطباع والتكرار وترابط الأفكار •• أو ما يسمى بجهاز التذكرة أو فكرة تصوير الوقائع بفكرة الصور أو قانون التذكر الطبيعى وهو لا يؤخــر تحضير خطابه للمحكمة الى ما قبل القائه بليلة واحــدة فان فعــل ذلك ستقوم الذاكرة بسبب الضرورة بالعمل بنصف قدرتها الممكنة لذا يجب التفكير وتحضير القضية قبل يوم المرافعة بمدة كافية وان كانت مهــارة

قمة المحامين تمكنهم من قراءة أوراق القضية ثم المرافعة بعـدها بفترة قصيرة جدا بعد الجلسة ولكن يلاحظ أنهم يتعرضون للجوانب القانونية التى من المفروض أنها مدروسة ومحفوظة عن ظهر قلب وتختلف بالتالى من محام الى آخر ولا تعتمد الا على ترابط الأفكار لأن الذهن بشـكل رئيسى هو آلة ترابط الأفكار •

كما يجب على المحامى احترام المنصة •• فليس احترام المنصـة عيبا ينسب الى المحامى بل ان جـلال المنصة من جلال المحاماه •

ويجب أن يتسلح المحامى أولا وأخيرا بالوقار فالمحامى الذى يفقد وقاره يفقد موكله ويفقد قضيته ويفقد نفسه •

وهذا الوقار يكسبه سحر ورفعة فان سبب ضياع احترام المحامى وانفضاض موكليه عنه هو فقده الوقار •

ولم تعـد وظيفة المحـامى تقتصر عـلى الدفـاع عن الحقـوق أمام القضـاء بل امتدت لتغطى المعاونة الفنية المتخصصة خارج قاعات المحكمة التى هى حرم العدالة الحامى للحريات •

والمحاماه ان أعطيت فهى لا تعطى الا لمن عشقها وسار فى دروبها وتمكن من الوصول الى فنها وأسرارها[٣] •

ولمعرفة قيمة المحامى أنظـر الى القـاعدة الأساسية عند الفرنسيين التى تقول ان الخالق سبحانه وتعالى يأمر من السماء وأعباده أن يطيعوه• أما المحامى ــ دون مقارنة ــ فهو الذى يأمر موكله فى الأرض الذى عليه أن يستجيب لمرآه محاميه[٤] •

---

(٣) انظر الأستاذ/احمد شنن ــ عظمة المحاماة ــ ص ٨١ •
(٤) انظر الأستاذ/احمد شنن ــ المرجع السابق ــ ص ٩ •

المطلب الثـانى

مبــادىء المرافعــة(٥)

تمهيــــد :

سوف نعرض فى هذا الفصــل للمبادىء الأساسية للمرافعــة أمام المحاكم الجنائيــة على أن نتناول البلاغة فى المرافعــة والعاطفة فى لغة المرافعات ثم الالتماس فى المرافعة ثم الجرأة فى المرافعة والاعتدال أيضا فيها على التوالى وذلك على النحو التالى :

أولا — البــلاغة فى المرافعــة :

ان البلاغة هى اجتماع اله البلاغة ، وذلك أن يكون المترافع رابط الجأش ساكن الجوارح ، قليل اللحظ ، متخير للفظ ، لا يكلم القاضى بكلام السوقه .

وذكر رسول الله ﷺ شعيبا النبى عليه السلام فقال « كان شعيب خطيب الأنبياء » .

والبلاغة هى ايصال القلب الى القلب أما الفصاحة فهى احتيــال اللسان على الأذن من طريق المعرفة اللفظية التى ليست مجرد ظل للمعرفة غير اللفظية .

---

(٥) عن مقال لغة الأحكام والمرافعات — زكى عريبى المحامى — الكتاب الذهبى بتصرف — ص ١٦٣ .

١ ــ « ضرورة البلاغة فى اظهار الحق »

اتفق الناس من قديم على أن البلاغة صفة لازمة لمن جعل الدفاع عن حقوق الناس مهنته ، وتواضعوا على وجوب أن يكون المحامى فصيح اللسان بالغ الأثر بكلامه متلاعبا بالعقول والقلوب ، وما يزال الاجماع على لزوم توافر هذه الصفات دائما .

فالمحامى يبغى الى الصنعة والى التفنن فى أساليب الخطاب أحــد أمرين : اما أن المترافع يرمى الى قلب الحقائق فلابد له من زخرف القول يموه به ويغرر ، واما أن الحق المجرد بغيته ومطلبه ، والحق المجــرد ميسور بمجرد الطلب .

سل طلاب الحق فى كل زمان ومكان ينبؤك عن الكلام ونوره الساطع وشمسه المتألقة وسلطانه القاهر خيال فى خيال . حدثهم عن كنهه يخبروك بأنه جوهر نادر ثمين مستقر فى أعمق الأعماق ، خفى على الباحث ، عصى على المستخرج ، وأن وجوده ــ اذا هو اكتشف ــ وجود نسبى يقتصر فى الغالب على المكتشف . فاذا ما أراد هذا أن يثبت اكتشافه للغير وجب أن يعد نفسه لحرب عوان ليس له من سلاح فيها غير بيان حسن ومنطق واضح وبلاغة غالبة .

على أنه من ذا الذى يستطيع التحدث عن الحقيقة المجردة المطلقة ؟ أين الحق الــذى لا يمــازجه باطل وأين الباطل الذى لا يمازجه حق ؟ النسبية قانون متميز فى كل شىء فى الوجود ، وليس أسهل من تبين حكمه فى عالم الحقوق .

فى كل دعوى اذن مزاج من الحق هو أشبه شىء بالذهب يخالطه عناصر كثيرة متنوعة على المترافع أن يطهره منها فيخرج بالمعدن النفيس متألقا وهاجا وأنى له ذلك الا أن يؤدى رسالته على الوجه الأكمل فيجلو

ما غمض وييسط ما تعقد ويسهل ما استعصى • والأمر بعد ذلك ورغم ذلك ، لا للقضاء وحده ، بل للقضاء والقدر فرب حجـة سائغة قاطعـة يحويها كلام سقيم فتضيع قوتها وتخمد جذوتها ، فاذا ناصرها البيـان وقدمها فصيح اللسان انقلبت سحرا حلالا ولذلك فان البلاغة هى اذن ألزم اللزوميات للترافع •

٢ ــ « مجال اللغة العامية فى المرافعات »

صحيح أن لغة الارتجال ماتزال تختلف اليوم عن لغة التحـرير ، فالأولى تسمع والثانية تقرأ •

أينا لم يسمع عن الهلباوى فى أحد مواقفه الرائعـة • انه يتكلم بالفصحى فيزرى بفقهاء اللغة ولكن الرجل محام بطبعه وسليقته ، فهو يعرف أن العربية الفصحى الصحيحة ماتزال اى اليوم لغة صنعة ، وانها ا تزال تجهد المخاطب والمخاطب معا • والاجتهاد اذا طال انتهى الى ملل وسأم ، لهذا تراه وقد فرغ من التحليق فى سماء البيان وانتهى من قرع الأسماع ، فى نقطة معية ، بخطاب فخم داوى الألفاظ ، رنان العبارة ــ تراه بعد هذا وقد هبط من جوه الأعلى الى سهل موطأ من كلام يروى به لطيفة من لطائفه الشائعة ، أو يصوغ فيه ملحه من ملحه العذبة البارعة ، أو يبرى منه سهما من السخر الفتاك ينفذ به الى مقاتل الخصم •

ولذلك سوف تبقى العامية الى جانب العربية الفصحى لغة مرافعـة اضافية تصاغ منها النكتة البـارعة يخفف بها الصخر ويطوى بمعونتهـا ملل الجلسات الطويلة القاحلة • وليس فى بقائها ضرر فهى لن تطغى على الحلول محلها فى موضع الجد وعند المناقشة الحامية تدور حول مسـائل عامية أو موضوع خطير •

٣ ــ « مطابقة لغة المرافعة لمقتضى الحال »

لقد بلغ من اغراق العائلة القضـــائية ابان بعض العهود فى التأديب أن أصبحت المرافعات والأحكام عبارة عن اقتباسات مكدســـة من كتب اليونان والرومان تلوح بينهما الألفـــاظ الفرنسية وتختفى ولكن يلاحظ أنه قد بقى الاتصال وثيقا بين الأدب والقانون • وذلك لأن الكثـــير من أشهر أدبائها شغلوا كراسى القضاء أو لبسوا رداء المحاماة •

(ثانيا) « العاطفة فى لغة المرافعات »

وليس أجمل فى لغة المرافعات ، بل ليس ألزم ، من غلبة العاطفـــة فيها حيث أن كلام المحامى يبقى مجرد كلام لا طائل تحته حتى تغشـــاه عاطفة صادقة فتصبح له قوة السحر •

« قديما قالوا أن القول ينفـــذ الى القلب اذا صـــدر من القلب » ولذلك يقف محاميان يطلبان الرأفة لمتهم فيفوه أحدهما بكلام لا يعـــدو السمع ويقول الآخر قولا يهز القلوب هزا • كلاهما يترافع ، وكلاهمـــا يســـتعمل كلمـــة الرأفة والشفقة • فكيف يتفاوت أثر مرافعتهما هـــذا التفاوت ؟ •

فتش وابحث وســـل علماء النفس ينبئوك بأن واحدا من الاثنين حساس يستشعر ما يقول ويتأثر منه عدوى التأثر الى الغير ، والتأثر ، لكى يكون له الأثر يجب أن يكون صادقا ، وهو لا يكون صـــادقا الا أن يصور عن يقين واقتناع • فان فاقد الشىء لا يعطيـــه وأن تعجبت لشىء فاعجب لهذا الاقتناع يبدو لك صادقا ــ وهو صادق بالفعل ــ فى قضـــايا يكاد يستحيل على العقل أن يصدق أن كلام المحامى فيها وليد الاقتنـــاع • ومثال ذلك أنه فى احدى القضايا ولم يكن فى القضية منفذ لابرة ، الا من حيث أدبياتها ، أخذ « مرقس » القضية عنوة من ناحيتها الأدبية متوسلا

بما لاحظه من أن التحقيق فيها كان سريا ، وأن المحـــامين قد منعوا من حضوره •وانظر اليه كيف يبدأ هذا الدفاع المجيد وقل ان فىمصر محامين:

نحن المحامين : نعالج آلام الناس ونرافقهم فى شفائهم ولهـــذا نرتدى الثوب الأسود ونقف فى هذا المكان المنخفض • فاذا ما أعيـــانا التعب جلسنا على هـــذا الخشب الصلب فيزيدنا نصبا • فنحن حقيقة بؤساء ، رفقاء البؤساء • ولكن رغم هذه المظاهر الخداعة فان الذى فى قلبه ايمان بالحق يرتفع من هذا المركز المتواضع الى السمو الذى لا حد له • ذلك لأن عماده كله حق ، ولأن مأمورية المحامى تمثل حق الدفاع المقـــدس •

لكن ماذا جرى فى هذه الدعوى ؟

« جـــرى أن المتهمين جميعا قذف بهم يا حضرة القـــاضى الى هوة من النار » •

ومن الأمثلة أيضا أنه قد قضى « لا شو » يترافع ثلاثة أيام وهو كمن يضرب فى حديد بارد حتى أسعفه الحظ ، وقد أخذ اليـــأس منه كل مأخذ ، بسقطة لسان من النائب العام اذ وصفه فى رده على مرافعتـــه « بالمدافع عن المزورين وقطاع الطريق » •

وهنا وثب « لاشـــو » وثبة الأسد وقد وخـــز بالسكين ، وعاودته قوته الهائلة بفعل الكرامة المجروحة ، وانطلق بيانه الساحر من عقـــاله فأتى بما لا يسبقه اليه الكلام ، واستطاع بعد دفاع مرتجل ملتهب أن ينقذ رأس موكله •

(ثالثا) « الالتمـــاس فى المرافعـــة »

* ويجب ألا يغرب عن الذهن أن المترافع ملتمس ، فلغته يجب أن تكون لغة يحوطها الاحترام الكلى للهيئة التى يترافع أمامها • قد يـــكون

أغزر من سامعيه علما ، وأظهر فضلا ، وقد يكون كلامه لهم تعليما ، ولكن عبارته يجب أن تكون عبارة اكبار واعظام .

* والاحترام والاكبار لا يقتضى التذلل ولا الضعة فى توجيه الخطاب . وأشد ما يكره عبارات التملق والتذلل يوجهها بعض الزملاء الى قاض ليس بحاجة الى رتبة تخلع عليه على سبيل التأديب الزائد ، وقد يحمل خلعها على أنه زلفى وتقرب .

(رابعا) « المرافعات لغة جرأة »

* أنظر الى « ديسيز » وقد دعاه لويس السادس عشر :

أيها المواطنون :

أخاطبكم بلسان الرجل الحر . انى أبحث بينكم عن قضاة فلا أجد غير متهمين ، أتريدون أن تجعلوا من أنفسكم قضاة « لويس » وأنتم خصومه .

أتريدون أن تجلسوا للحكم فى قضية لويس ولكم فيها رأى يجوب أوروبا من أقصاها الى أقصاها .

أيكون لويس الفرنسوى الوحيد الذى لا يحميه قانون ولا يتبعه فى محاكمته اجراء واحد صحيح .

أيجرد من امتيازاته كملك ومن حقوقه كمواطن ؟

أيخذله القانون حاكما ومحكوما ؟

يا له من مصير عجيب لا يتصور .

ولاحظ فى هذه المرافعة أسلوب التعجب المتواصل والاستنكار المتوالى والجرأة الواضحة .

(خامسا) « الاعتدال فى لغة المرافعات »

يجب أن يكون المحامى المترافع معتدلا فى مرافعته بحيث لا يرمى زميله بشىء لأن أقبح من رمى الخصم بما لا يجب ، جرح الزميل .

فصحيح أن المرافعات دفع وجذب ، ونادر هو المترافع الذى يملك زمام أعصابه فلا تجمع به وحدة الدفاع . ولكن المسألة مسألة مـــران . وانك لتدهش ، وقد عودت نفسك التزام حدود الاعتدال ، كيف يســـمو موقفك ، وتعلو حجتك ، ويمتاز بيانك .

(سادسا) « لغة المرافعة لغة حديث لا كتابة »

ان لغة المرافعات قبل كل شىء لغة حديث لا لغة كتابة . تلك هى لغة المرافعات حيث أن المحدث مضطر بحكم طبيعة الموقف الى الابتكار السريع والكلام المرتجل ومواصلة الحدث فى غير توقف ولا تردد ولذلك فان أول صفاته دون شك بساطة التعبير .

وتختلف الكتابة عن المرافعة من حيث الأسلوب والعبارات المستخدمة حيث أن الكتابة القانونية تحتاج الى بعض العبارات والكلمات[٦] .

---

(٦) من التعبيرات والاصطلاحات للكتابة القانونية فيما يلى : —
وحصيلة القول — وخلاصة القول — بيد أنه — وتطبيقا لذلك — وعلى هذا النحو وغنى عن البيـــان — نشـــأت بعض النظريات فى رحاب القانون المدنى — ويعتبر — ذلك ضربا من ضروب الجهل — ويبدو لنا أن هذا النقد فى غير محله — والرأى السائد فقها وقضاء .
يتناول الباب الاول ويتعلق الثانى ويتصل الثالث ويحاول الرابع ونحاول بسط هذه الموضعات على النحو التالى :
ولقد تعددت آراء الفقهاء حيث يتفق الباحثون — قد بات واضحا — يبرز دور — وفضلا عن هذا — ساهمت الابحاث — وينبغى أن — ويلاحظ أن — ويبدو أن — وينكر البعض هذا الاتجاه — وغنى عن البيان — وينكر البعض هذا الاتجاه — ولا نعتبر صحة هذا الاتجاه — وتجدر الاشارة — بالغ الامهية — بلغ مبغلا — ويبدو لنا من استقراء أحكام محكمة النقض المصرية — الحوار القضائى محور الرسالة — ويبرز على السطح .. وهكذا . =

(سابعا) المرافعة وشهادة الشهود

قد يعتمد المحامى فى مرافعته على تفنيد أقوال الشهود ومناقشة أقوالهم مناقشة جادة ، ومن ثم يجب عليه معالجة تلك الأقوال المعالجة السليمة •

فالشهادة ترتكز على ثلاثة أعمدة رئيسية : أولا : التركيز وقوة الوعى وأمانة الذاكرة • ثانيا : الادراك الذى يسجل الوقائع قبل وقوعها• ثالثا : الدقة فى تقرير الوقائع •

ويذهب الأستاذ محمد شوكت التونى بخصوص شهادة الشهود الى أنه يجب على المحامى والقاضى مراعاة الأسس الآتية :

١ — الوقوف على المستوى الاجتماعى للشاهد •

٢ — التفريق بين شاهد الاثبات وشاهد النفى •

٣ — العناية بأقوال الشهود من حيث كلامهم عن لون الملابس وبعد المسافة والوقوف بالمواجهة أم من الخلف ، وهل الضرب بالعصى أم

= الملامح الاساسية للنظام — ولقد اهتم هذا البحث بدراسة .
وكان رائدنا فى هذا البحث .
يتمثل فى — يرتد الى أصل واحد .
وكانت مهمتنا الاولى هى فض الاشتباك — هناك حاجة تشريعية لمعالجة ابعض النقض فى القانون يبدو فى — ولابد من احداث تعديل تشريعى يأخذ فى الاعتبار مسلك التشريعى الفرنسى ويبدو لنا ذلك من زاويتين أو من زاوية هامة — استخلصنا — استجلاء .
ينسف — يدمر — يعصف — يحطم .
فى اطار قانون العقوبات .
من زاوية قانون الاجراءات .
ومفاد تلك النصوص .
تتغلغل .
تتوغل — تنهض — تظفر — يكمن .

بالخيزانة ، وهل كان المتهم يمشى أو يسرع الى غير ذلك من أمور ..

٤ ـ بث الطمأنينة فى نفس الشاهد أثناء مناقشته .

ويجمع أساتذة المحاماة على أنه يجب على المحامى أثناء توجيه الأسئلة للشاهد ومناقشته له أن يضع فى ذهنه ـ بغض النظر عن كونه صادقا أو كاذبا ـ النتائج الآتية[٧] .

١ ـ جعل الشاهد ينكر أو يغير أو يحرف أقواله .

٢ ـ جعل الشاهد يعترف بوقائع فى صالح الشخص الذى يشهد ضده .

٣ ـ جعل الشاهد يرد على نفسه بنفسه ، أى حمله على الادلاء بتصريحات متضاربة .

وكلها أمور القصد منها اقناع القاضى ببراءة المتهم أو ثبوت التهمة عليه .

وفى احدى القضايا ، استطاع المحامى نتيجة لقدرته على توجيه الأسئلة للشهود وادارة الاستجواب أن يوقع بالشهود ، فأثبت أن كل أقوالهم ان هى الا خيالا صبيانيا خلقه الايحاء والخوف مجتمعين . وعندئذ قضت المحكمة بالبراءة .

قد يعتمد المحامى فى مرافعته على ما جاء بتقرير الطب الشرعى اعتمادا كاملا الأمر الذى يتعين معه المام المحامى بمبادىء الطب الشرعى حيث أن له قواعده وأصوله وأحكامه[٨] .

ولقد أطلق على الطبيب الشرعى اسم « القاضى الفنى » ، لأن كثيرا

---

(٧) كيف تصبح محاميا ـ الاستاذ/ محمود العمروسى ـ ط ١ سنة ١٩٨٦ .

(٨) كيف تصبح محاميا ـ الاستاذ/محمود العمروسى ـ ط١ سنة ١٩٨٦ .

من القضايا يكون فيها الطبيب الشرعى هو صاحب الرأى فيها ، وكثيرا ما يكون مصير المتهم رهينا لما سيكتب فى تقريره ٠

ولعل هذا كاف للتدليل على أهميــة ذلك العلم بالنسبة للمحــامى والأسرة القضائية عموما ٠

فالطب الشرعى هو فرع من فروع الطب يختص بايضاح المســائل الطبية التى تنظر أمام رجال القانون،وهو مجموعة قواعد طبية وبيولوجية لازمة فى التطبيق العملى للقانون الجنــائى ويشمل دراســة المســائل القانونية التى لا يجوز حلها الا بواسطة تلك المعلومات البيولوجية أو الطبية كما يشتمل على دراسة كافة الظواهر البيولوجية والاكلينيكية التى تستخدم لحل المشاكل القضائية ٠ وهو بصفة عامة يمدنا بكافة أســباب الاصابات والوفاة والتحليلات الكيمائية لبيان طبيعة العادة المستخدمة فى احداث الاصابة أو القتل ٠ بالاضافة الى تحليل الخطوط لمعرفة شخصية المتهم ٠

تاسعا — دور قاعة الجنايات الكبرى بمحكمة مصر[٩] :

للحجارة ذاكرة أقوى من ذاكرة الانسان ٠ عرف الأعرابى ذلك فيهــا ٠ فكان اذا أراد أن يسترجع الماضى ، عقل ناقته بجوارها ووقف فى ظلهــا يسألها عن أسرارها ٠ ويستردها ودائع أخبارها ٠ وأدرك الفراعنه أنه اذا كان صمتها طويلا فلأنها تعى التاريخ وتحفظه ٠ ثم تتمخض عنه على الزمن دروسا بينات ٠ وآيات مفصلات ٠ فكلما زدناها بحثا وتنقيبا ردت الينا من أسرارها حجرا دفينا بل كنزا ثمينا ٠

فاذا عمدت اليوم الى قاعة من قاعات المحاكم ، أضــع تاريخهــا وأدون أخبارها فليس فى هذا عجب ، فلقد كانت هذه القــاعة ولا تزال

---

(٩) مقال الاستاذ/محمد صبرى ابو علم — الموسوعة الذهبية لمحمــكة النقض — طبعة نادى القضاة — ط ٢ — ص ٤٨٧ وما بعدها ٠

مسرحا للحـــوادث تمثـــل بين جدرانهـــا ، وميدانا للتـــاريخ السياسى والاجتماعى يسجل فى ساحتها ويدون فوق منصتها .

قف ببابها مُلقيا السمع الى الصدى الذى يرتد اليك من أعماقها ، ويخلص الى نفسك وسمعك من بين حناياها وأركانها فى صمت وخشوع واحترام . فانت على أبواب معبد . ولكن الرجع الذى يتردد بين الجدران صداه ، وتدوى بين أعمدة القاعة تموجاته وهزاته أو بقاياه ، ليس مع ذلك أذان المؤذنين فى مسجد ، أو أنغام المرتلين فى هيكل أو معبد ، ولكن تلك دار العدالة وهذا هيكلها وأنت فى محرابها . وما تتلقفه أذناك ليس الا قطعا من التاريخ تتأثر من حين لآخر ، وصيحات وعبارات وأنات تخرج من أعماق نفس معذبة ، بل تلك صرخات محكوم عليه صعقت نفسه تحت وطأة الجريمة أو شدة العقوبة فذابت حسرات أو انطلقت لعنات داويات، بل ذلك صوت الندم والاستغفار تحركت به شفتا مجرم ، بل هو طغيان النفس المتمردة على المجتمع ترتكب الاثم وتحمله مسئوليته : خليط من غيظ مكظوم ، أو حقد مكتوم ، أو كبرياء محطمة .

بل ذلك معمل النفس الانسانية . فيه تشرح وتكشف عن أسرارها. وفيه تفضح وتعلن عن سؤاتها . وعلى مائدته الممدودة تحلل الى أجزائها الأولى .

بل ذلك بركان الطبيعة البشرية . فيه تثور ثورتها ، وتبرز قوتها ، وتخرج من مكامن النفس الأمارة بالسوء ، غلابة ، قوية ، منفعلة . يلمع الشر فى أسرتها ، وينضح الدم من عروقها ، ويطل الغدر من عيونهـــا . ويتفجر الاثم دما ونارا .

وادخل معى تلك القاعة التى تشبه سائر قاعات المحاكم فى بنائهـــا ومظهـــرها ونظامها ، ولكنها تختلف عنهـــا فى كل شىء . فهذه القاعة قد اقترنت بتاريخ مصر السياسى والاجتماعى وعاصرته ، وأصبحت ساحتها

مرصدا تسجل فيه هزات العالم السياسى وأحداث مصر الكبرى — قاعة انطبعت فيها أدوار الحياة المصرية العامة والخاصة . فكلما حدث فى البلاد حدث سياسى ، أو تفاعل بين مختلف التيارات التى تتجاذب الحياة السياسية أو الاجتماعية أو الوطنية ، شهدت فى ساحتها صدى ذلك كله معروضا فى قضية جنائية . وكلما اهتزت قوائم الحياة السياسية رأيت أثر الهزة معروضا فى هذه القاعة بعد فترة من الزمن عرضا محفوفا بالاهتمام — فى حادث من الحوادث التى تجذب اليها جمهور النظارة يتهافتون على مقاعدها ، ويتهالكون على الوقوف فى جوانبها .

وتعصف العواصف السياسية وتدوى صواعقها ، فتثير الغبار وتقذف باللهب والنار . ثم تتركز ثورتها وتتبلور حرارتها فى قضية من القضايا تعرض فى هذه القاعة ، فتنتقل اليها ثورة الشارع بكل ما فيها من معانى الحياة المتدفقة المتدافعة . أليس هناك معرض الحياة السياسية بجوها المكهرب ومظاهرها المختلفة ، وما ينبعث عنها من حماس ثائر وفتنة ؟؟؟؟ أليس هنا معرض البلاغة والبيان الساحر ؟؟؟؟ لقد نصبت العدالة الميزان ، ووقفت بين الخصوم يتقاذفون الحجج ، ويتجادلون ، ويتصارعون حتى اذا ما استنفدوا كلامهم وأتموا دفاعهم تنزلت من سماء العدالة كلمة الحق فخروا لها ساجدين .

وهناك فى قفص الاتهام توالى وقوف شخصيات لها خطرها فى كل مسالك الحياة . هنالك من خلف أعواد الحديد المدببة كالسهام أطلت رءوس قادة الرأى العام : من أصحاب المذاهب والآراء ، كتابا وساسة وزعماء ، ليتلقوا ضربات الاتهام . هنا وقف رجال كانت قضاياهم جزءا من تاريخ مصر الحديث . وكانت الأحكام التى صدرت فيها نقطة التحول فى مجرى الحوادث . وقفوا وقد سلطت عليهم شهوات الخصومة نارها التى لا ترحم ، وسد عليهم الاتهام منافذ الخلاص وجمع حولهم الشهود ورماهم بالتهم . وقفوا بين معتز ببراءته يستل من الخصومة القضائية السهام التى رماه بها الاتهام ليرسلها أقواسا حاصدات ، ويرمى

بها نبالا قاصدات • وبين معتز بوطنيته متحصن بمصريته يأبى أن يتقدم لغير قضائه المصريين بدفاع • وبين متهمم ينزل عليه القضاء حكما بالاعدام فلا يحرك ساكن نفسه التى راضها على ما تلقى فى سبيل ما تعتقد •

فى عام ١٩١٠ نشطت الحركة الوطنية وأخذ الكتاب والشعراء والخطباء يغزونها بأقلامهم وألسنتهم ، وتعددت المحاكمات الصحفية ، ونشر الشيخ على الغاياتى أحد محررى جريدة العلم التى كانت اذ ذاك لسان الحزب الوطنى بعد تعطيل « اللواء » كتابا أسماه « وطنيتى » ضمنه كثيرا من المنظومات الشعرية ، وقدم المغفور له الشيخ عبد العزيز شاويش الكاتب الى الجمهور بكلمة • ثم طلب الشيخ الغاياتى من المرحوم محمد فريد بك رئيس الحزب الوطنى أن يكتب له رسالة فى الشعر والشعراء جعلها مقدمة لكتابه • ورأت النيابة أن فى الكتاب ما يؤاخذ عليه فباشرت التحقيق واجتاز الغاياتى حدود البلاد فحوكم غيابيا • وقدم الشيخ شاويش لمحكمة جنايات مصر ، واحتواه قفص هذه القاعة وتولى الدفاع عنه المرحوم أحمد بك لطفى والأستاذ محمد على بك • وعقدت الجلسة برياسة المرحوم محمد مجدى بك وحضور حضرات على ذى الفقار بك ومسيو سودان مستشارين ومحمد توفيق نسيم بك رئيس نيابة الاستئناف • وثبت لدى المحكمة أن الشيخ شاويش قد حسن ومجد أقوالا معاقبا عليها قانونا بصفة جنحة ، وذلك بأن امتدح هذا الكتاب بمقدمة وضعها فيه بامضائه وقضت بحبسه ثلاثة أشهر فى يوم ١٦ أغسطس سنة ١٩١٠ وكان فريد بك غائبا عن مصر ، فلما عاد حققت معه النيابة وقدمته للمحاكمة واتهمته بأنه حسن كتاب « وطنيتى » المشتمل على عدة أمور معاقب عليها قانونا • ونزل المرحوم فريد بك بدوره ضيفا على هذه القاعة فى مقعد الاتهام • وشكلت المحكمة برياسة المستر دلبراوغلو وعضوية حضرتى أحمد بك ذو الفقار وأمين بك على المستشارين وجلس فى كرسى النيابة محمد بك توفيق نسيم • ودخل فريد بك المحكمة

لا يصحبه محام ولا مدافع وقضت المحكمة بحبسه ستة أشهر • وقد أثارت هاتان المحاكمتان اهتمام الرأى العام اذ ذاك •

وفى ٢٠ فبراير سنة ١٩١٠ نزل رئيس الوزارة المصرية المأسوف عليه « بطرس غالى باشا » يحيط به كعادته رجال الحكومة حتى بلغوا سلم نظارة الحقانية ولم يكد يودع مشيعيه حتى ابتدره الشاب « ابراهيم ناصف الوردانى » فأفرغ فيه عدة رصاصات طرحته على الأرض يتخبط فى دمه ، أطلقها من مسدس كانت تحمله يده •

وكان هذا أول حادث قتل سياسى فى البلاد • فارتج القطر للحالة •

وقبض الجانى متلبسا بالجريمة • ثم قدمت القضية للمحاكمة • وكتب لهذه القاعة أن تشهد تلك المحاكمة الكبرى • وتولى رياسة المحكمة جناب المستر دلبراوغلو وجلس حوله المستشاران أمين بك على وعبد الحميد بك رضا • وتولى الاتهام من بدايته لنهايته المرحوم عبد الخالق ثروت باشا النائب العام • ودام نظر القضية من يوم ٢١ ابريل سنة ١٩١٠ الى يوم ١٨ مايو سنة ١٩١٠ •

ووقف النائب العام يصف هول الجريمة وسوء وقعها ، ويطالب برأس المتهم فى بيان رائع يعتبر مثلا عاليا للبلاغة القضائية الهادئة حلل فيه شخصية المتهم وأثبت مسئوليته عن عمله • وتولى الدفاع الأساتذة ابراهيم الهلباوى بك والمرحومان أحمد بك لطفى ومحمود بك أبو النصر • تغلغل الدفاع فى صميم الأسباب الملابسة للجريمة ، وحلل شخصية المتهم والعلل النفسية التى قال انها تنزلت اليه بالوراثة أو بحكم البيئة التى عاش فيها • واستدعى الشهود والخبراء لاثبات ضعف عقله ليصل الى تحديد مسئوليته • وأثار كثيرا من المسائل الفقهية لنفى سبق الاصرار عن المتهم • وكان صراعا قضائيا جبارا ذلك الذى تولاه من جانب المرحوم عبد الخالق ثروت باشا والمحامون الثلاثة من الجانب الآخر كان صراعا

حول رأس الوردانى • يطلبها النائب العام باســم العدالة لتتناولها يد الجلاد جزاء ما اقترف • ويحاول الدفاع انتزاعها لأنه يرى أن المتهــم غير مسئول مسئولية كاملة • وأخيرا اختتم الدفاع بعبارات مؤثرة ألقاها المرحوم أحمد لطفى بك • ثم انتهى الدفاع وخلا القضاة الى أنفسهم • ثم عادوا لينطقوا بالحكم باعدامه شنقا • وهكذا سقطت رأس أول قاتل سياسى تحت ضغط حبل الجلاد •

وجاء عام ١٩١٢ فشهدت هذه القاعة من جديد المحاكمــة فى قضية مؤامرة سياسية اتهم فيها امام واكد واثنان من الشبان • بأنهم فى يوم أول يونيه سنة ١٩١٢ اتفقوا على ارتكاب جناية القتل العمــد مع سبق الاصرار على شخص كل من سمو الخديوى (عباس باشا حلمى) وعطوفة محمد سعيد باشا رئيس مجلس النظار وجناب اللورد كتشنر المعتمــد البريطانى وســعادة محمد مجــدى باشا وجنــاب المســتر دلبراوغلو المستشارين بمحكمة الاستئناف الأهلية ــ وعرفت هذه القضية بمؤامرة شــبرا •

قضت المحكمة على امام واكد بالأشــغال الشاقة خمسة عشر عاما وعلى زميليه بالسجن مدة خمسة عشر عاما • وفيها طبقت محكمة الجنايات لأول مرة المادة (٤٧ مكرر الخاصة بالاتفاقات الجنائيــة) وهى التى وضعت عقب حادثة الوردانى • وفى هذه القضية عرفت مصر لأول مرة نظام شاهد الملك فى شخص أحد الشهود الذين سمعوا فى القضية • وكان بطل الاتهام فى مؤامرة شبرا هو « جورج بك فلييدس » مأمور ضبط العاصمة ــ الرجل الذى جمع بين أصابعه كل خيوط التحقيقات السياسية التى جرت قبل الحرب العظمى وفى بدايتها • فلما أعلنت الحرب وأعلنت معها الأحكام العسكرية البريطانية فى البلاد كان هو الأمين على تنفيذ كثير من الاجراءات التى رأت السلطة العسكرية أن تتخذها ضد بعض الأفراد أو الهيئات •

ووقف جورج فليبيدس أثناء المحاكمة فى قضية شبرا يؤكد للمحكمة ادانة المتهمين وبناء على ما قال انه رآه بعينه وسمعه بأذنيه أخذ المتهمون من قفص الاتهام الى غيابات السجن •

وشاء القدر أن تشهد هذه القاعة بعد ذلك « جورج فليبيدس بك » متهما وأن ينزل هو وزوجته بعد خمس سنوات ضيفين فى نفس القفص ، فقد اتهمته النيابة العمومية بأنه أساء استعمال السلطة التى كانت فى يده ، وخان أمانة رؤسائه ومؤتمنيه واتجر بما كان بيده من نفوذ واستغله لمنفعته المادية ، واتهمته هو وزوجته بالرشوة • ونظرا لخطورة المركز الذى كان يشغله وخطورة التهم التى نسبت اليه رأت الحكومة لأول مرة بعد ما نقل القانون الى النيابة العمومية « أن يقوم بالتحقيق وكان يمثل الاتهام أمامه حضرة « محمد بك زكى الأبراشى » •

وتولى الدفاع عن المتهمين الأساتذة : عبد العزيز بك فهمى (الذى شهد التحقيق فقط) وابراهيم بك الهلباوى ، ومرقص بك حنا •

وتابع الرأى العام والسلطات — باهتمام وعناية — اجراءات هذه القضية حتى صدر الحكم فيها أخيرا بادانة فليبيدس بك •

ورزحت البلاد تحت أعباء الأحكام العرفية البريطانية ، وجاءت معها محاكمها وقضاتها وقوانينها واجراءاتها • واختيرت هذه القاعة مكانا لعقد جلسات المحاكم العسكرية فى القضايا الكبرى ، فعقدت فيها لمحاكمة المتهمين بمخالفة منشورات التموين •

وعقدت فيها فى أواخر عام ١٩١٥ المحكمة العسكرية لمحاكمة محمد شمس الدين ومحمد نجيب الهلباوى اللذان اتهما بالاعتداء على حياة المغفور له السلطان حسين كامل والشروع فى قتله فى مدينة الاسكندرية •

وانتهت الحـرب الكبرى ولم تنته الأحـكام العسكرية ، بل ظلت مفروضة على البـلاد • وشكل سـعد زغلول باشا الوفد المصرى فى ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ وهى لاتزال مبسوطة الظل وقبض على سعد وصحبه فى ٨ مارس سنة ١٩١٩ فثارت البلاد ثورتها الكبرى • ثم أفرج عنهـم وسافر الوفد الى باريس تاركا خلفه لجنـة الوفد المركزية وسـكرتيرها عبد الرحمن بك فهمى وتقع حوادث الاعتداء على حيـاة بعض الرعايا البريطـانيين ، فيتهم عبـد الرحمن بك وكثيرون من الشبان الوفديين : محامين وطلبة ، بالاشتراك فى ارتكابها ويقبض عليهم ثم يفرج عنهم ، ثم يعاد القبض عليهم ويحقق ضدهم فى الوقت الذى تجرى فيه مفاوضات غير رسمية بين الوفد المصرى ولجنة لورد ملنربلندرة •

وترفع الدعوى العمومية ويقع الاختيار على نفس هـذه القـاعة التاريخية لتشهد هذه المحاكمة العسكرية الكبرى • ويجلس على منصـة القضاء فى هذه القاعة قضاة المحكمة العسكرية ويقوم القاضى « ثورب » بوظيفة نائب الأحكام العسكرية • ويتولى الدفاع فى القضية الأسـتاذ ديفونشير وطائفة من كبار المحامين المصريين • فى مقدمتهم مصـطفى النحاس بك ، ومرقس حنا بك ويعهد الى أحد كبار المحامين بلندره بالدفاع فيأتى الى مصر فى طائرة مستر متشل انس والميجور هيدلى ويشتركان فى الدفاع •

وصدر الحكم بعد ذلك بادانة كثير من المتهمين فأودعوا السـجون المصرية وظلوا بها نحو أربع سنوات حتى أفرج عنهم سعد زغلول باشا رئيس الوزارة المصرية فى ٩ فبراير سنة ١٩٢٤ •

وتشكل وزارة عدلى باشا فى مارس سنة ١٩٢١ ويعود سـعد من باريس • وتختلف الوزارة والوفد على اجـراءات المفاوضات ويسـافر عدلى ومعه وفد حكومى للمفاوضة مع الحكومة الانجلـيزية ثم تقطـع المفاوضات ويعود الى مصر ـــ وتتحرك مصر من جديد للقيـام فى وجه

الانجليز فتتحرك السلطات العسـكرية للبطش • وينفى سـعد وبعض زملائه الى جزائر سيشل ، وتعلن انجلترا بتصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ أن مصر أصبحت دولة مستقلة • ويعاد تشكيل الوفد المصرى من جديد من حضرات حمد الباسل باشا ، ويصا واصف بك ، واصف بطرس غالى بك ، مرقس حنا بك ، محمد علوى الجزار بك ، مراد الشريعى بك ، جورج خياط بك •

وتأتى الى مصر الأخبار السيئة عن صحة سعد فتثور الخواطر،ويعلن الوفد المصرى نداء يتهم فيه الانجليز والحكومة المصرية بالعمـل عـلى القضاء على حياة سعد • فتتحرك السلطات العسكرية للقبض عليهم • وتسـوقهم الى نفس القـاعة وتنزلهم نفس القفص بتهمـة الاعتـداء والتحريض ضد النظام الحاضر • ويقف حمـد واخـوانه ويدعون الى الدفاع عن أنفسهم فلا يستجيبون ويواجهون فى كبرياء وعزة الرجـال الذين أجلستهم السلطة العسكرية فوق منصة القضاة المصريين قائلين : « لو أن المحكمة تأخذ بتصريح حكومتها أو تعتبره تصريحا جديا وهو أن مصر دولة مستقلة ذات سيادة اكان حقا عليها أن تعلن من تلقاء نفسـها عـدم اختصاصها بمحاكمتنـا • لكم أن تحكمـوا علينا وليس لكم أن تحاكمونا • ونحن لا نعرف مهيمنا علينا غير ضمائرنا وتوكيل الأمة التى شرفتنا بهوقوانين بلادنا ومحاكمتنـا • فمهما تكن العقوبة التى يروقكم أن تشرفونا بها فاننا سنقابلها بالسرور والفخـار لأنها خطوة الى الأمام فى طريق المجد الذى تسير فيه مصر الى مصيرها الخالد » •

وتواجه المحكمة هذا التحدى الجرىء بالحـكم بالاعدام ، فيهتف المحكوم عليهم لمصر بالحياة قبل أن يسمعوا تعديل الحكم الى سبع سنوات وخمسة آلاف جنيه غرامة •

وألغيت الأحكام العسكرية وأعلن الدستور ، وعاد سعد وأصحابه

من المنفى وخرجوا من السجون ، وشكل سعد وزارته فشهدت هذه القاعة من جديد طائفة من المحاكمات الصحفية •

وحادث سعد مستر رامزى مكدونلد بلندرة وقطعت المحـادثات ، وعاد سعد الى مصر وافتتح الدورة الثانية للبرلمان • ولم يكد يمضى على افتتاحها أيام معـدودات حتى اكفهـر الجو وثارت العواصف ووقعت « حادثة السردار » •

ففى ظهر يوم ١٩ نوفمبر سنة ١٩٢٤ بينما كان المغفور له «السيرلى ستاك باشا سردار الجيش المصرى وحاكم السـودان العام » عائد من وزارة الحربيـة أطلقت عليـه عدة عيارات نارية قرب وزارة المعـارف العمومية فنقل الى دار المندوب السامى حيث توفى فى اليوم التالى •

وقعت هذه الحـادثة فى جو لم يكن لينقصه الا شرارة لتثـير أكبر احتكاك بين الحكومة الوفدية والحكومة الانجليزية •

ففى مساء اليوم التالى لوقوع الحادث ركب الماريشال اللنبى فى موكب عسكرى من دار المندوب السامى الى دار رياسة الحكومة المصرية — وهناك سلم باسم حكومته انذارا رسميا الى « سعد زغلول باشـا رئيس الحكومة » : طلبت فيه الحكومة البريطانية التحقيق مع المسئولين عن جناية القتل من غير نظر الى أشخاصهم ومحاكمة المجرمين أيا كانوا وأيا كان سنهم • واستقال سـعد زغلول وشكلت وزارة جديدة • وسحب الجيش المصرى من السودان • وعطلت الحياة النيابية •

وفى خلال ذلك تولى « محمد طاهر نور باشا » النائب العام التحقيق فى القضية وقبضت السـلطات العسـكرية على بعض النواب الوفديين البارزين ثم سلمتهم للسلطات المصرية ، وجرى التحقيـق • وأخـيرا أصدرت النيابة قرارا باتهام عبد الفتاح عنايت الطالب بمدرسة الحقوق وعبد الحميد عنايت الطالب بمدرسة المعلمين العليا ، وشفيق منصـور

المحامى ، ومحمود أحمد اسماعيل الموظف بوزارة الأوقاف ، وخمسة من العمال بقتل السرلى ستاك باشا مع سبق الاصرار •

وأحيل المتهمون الى محكمة الجنايات المشكلة من المغفور لهم أحمد عرفان باشا رئيسا وجناب المستر كيرشو ومحمد مظهر بك المستشارين ، وسعادة محمد طاهر نور باشا النائب العمومى •

وبجلسة ٧ يونية سنة ١٩٢٥ أصدرت المحكمة حكمها حضوريا على كل من عبد الفتاح عنايت وعبد المحيد عنايت وأبراهيم موسى ومحمود راشد وعلى ابراهيم محمد وراغب حسن وشفيق منصور ومحمود أحمد اسماعيل بالاعدام ، وعلى محمود صالح محمود بالحبس مع الشغل لمدة سنتين •

ونفذ هذا الحكم فى شهر أغسطس فى المحكوم عليهم عدا عبد الحميد عنايت الذى استبدل بحكم الاعدام الصادر ضده حكم الأشغال الشاقة المؤبدة •

ونزل الستار على هذه القاعة عقب محاكمة المتهمين بمقتل السردار ثم رفع من جديد بعد عام لتشهد هذه القاعة محاكمة أكبر منها خطرا وأجل شأنا — تلك هى قضية « الاغتيالات السياسية » • وهى القضية التى تمخضت عنها التحقيقات فى قضية مقتل السردار • وكان شفيق منصور صلة وصل بين القضيتين وكانت اعترافاته وتقاريره حجر زاوية فى التحقيقات الجديدة • وعلى أساس هذه الاعترافات اتهمت النيابة العمومية الدكتور أحمد ماهر وزير المعارف فى وزارة سعد زغلول باشا ، والأستاذ محمود فهمى النقراشى وكيل وزارة الداخلية بها ، والأستاذ حسن كامل الشيشينى المدرس بمدرسة التجارة العليا ، والأستاذ عبد الحليم البيلى سكرتير المفوضية المصرية بأنقرة وبعض العمال بارتكاب حوادث اغتيال الرعايا الانجليز وبعض المصريين •

واستأثرت القضية باهتمام الجمهور والساسة فى مصر وبريطانيا ، لما لبعض المتهمين من مركز خطير ولخطورة الملابسات التى أحاطت بالقضية والنتائج السياسية التى تترتب على الفصل فيها .

ورئى ألا تنظر القضية أمام الدائرة التى فصلت فى قضية مقتل السردار . ولم يخل تشكيل الدائرة الجديدة من صعوبات استدعت عقد الجمعية العمومية لمستشارى محكمة الاستئناف ، وأخيرا شكلت المحكمة من جانب المستر كيرشو رئيسا وكامل بك ابراهيم وعلى بك عزت مستشارين ، وجلس فى كرسى النيابة حضرة مصطفى بك حنفى ، وتولى الدفاع فى القضية طائفة من كبار المحامين فى مقدمتهم مصطفى النحاس باشا ، مرقس حنا باشا ، محمد نجيب الغرابلى باشا ، مكرم عبيد ، أحمد لطفى بك .

وأصبحت هذه القاعة وأصبح قفص الاتهام فيها ملتقى أنظار الرأى العام المصرى والبريطانى . ولم يكن فى فضاء القاعة ما يتسع لكل من يرغبون فى شهود المحاكمة فحدد عدد من يسمح لهم بدخول القاعة ، وأقيمت الحواجز والموانع حولها وأصبح ما يدور فيها ويجرى فى ساحتها يدون فى الصحف ويطير الى الخارج .

وقد كانت جهود المحامين فى هذه القضية شاقة فقد بلغت صحف التحقيق فيها نيفا وثلاثة آلاف عدا الملحقات . وتوفر المحامون على دراستها واستيعابها قبل بدء المحاكمة .

وكان استجواب الشهود آيات من الفن القضائى . ثم جاء دور الدفاع وترافع المحامون فكانت مرافعاتهم صورة حية للبيان الساحر والمنطق السليم . كانت مرافعاتهم من وحى قلوبهم وعقائدهم . وكان الكثيرون منهم تربطهم بالمتهمين روابط أعظم توثقا من الصداقة . ودافع المحامون عن سمو الحركة الوطنية وتجردها عن النوايا الاجرامية .

فكانوا فى دفاعهم ملهمين موفقين • وفى الوقت الذى كانت ألسنتهم تفيض بالسحر حلالا يتنزل فوق منصة القضاء كانت عيونهم وقلوبهم مشدودة الى القفص حيث وقف رجال كـــرام عليهم وأعـــزاء على مصر ، فكانت نبراتهم من عباراتهم وأشد تأثيرا •

وتوفى المرحوم أحمد بك لطفى بعد صدور الحكم بقليـــل ، فكانت قضية الاغتيالات السياسية آخر قضية كبرى ترافع فيها وكانت آخـــر عهده بهذه القاعة •

وجرت المحاكمة داخل هذه القاعة • وكان يجـــرى فى نفس الوقت خارجها صراع انتخابى بين الوفد ومن ائتلف معه من الأحزاب وبين حزب الاتحاد • وكان الواقفون على ما يجرى خلف ستار الحوادث السياسية يدركون مقدار ما بين الحكم الذى يخرج من داخل هذه القاعة والحـــكم الذى يخرج من صناديق الانتخاب من صلة وتلازم • وشاءت الأقـــدار أن يصدر حكم القضاة وحكم الناخبين فى وقت واحد : أصدر القضـــاة حكمهم بعد دفاع دام شهرا ببراءة خمسة من المتمهين هم الدكتور أحمد ماهر والأستاذ محمود فهمى النقراشى والأستاذ حسن كامل الشيشينى والأستاذ عبد الحليم البيلى والحاج أحمد جاد الله • وصـــدر حـــكم الناخبين لصالح الائتلاف ومرشحيه •

واهتزت البلاد طربا لهذه النتائج كلها وشرع الساسة يتبـــادلون الرأى فى استثمارها وأخيرا تعكر الجو حين خرج جناب المستر كيرشـــو على تقاليد القضاء فكتب الى وزير الحقانية يعلن أنه كان معارضا فى براءة الدكتور أحمد ماهر والحاج أحمد جاد الله وقال انه اعتبر من واجبـــه الخروج على سر المداولة فتوجه بعد اصدار الحكم الى دار المنـــدوب السامى وأطلع فخامته على رأيه باعتباره حاميا للأجانب •

وعقب وصول هذا الخطاب استقالت الوزارة • وشكلت بعد ذلك

وزارة حضرة صاحب الدولة عدلى يكن باشا • فتولى المرحوم أحمد زكى أبو السعود باشا وزير الحقانية فيها الرد على الخطاب ، واستقال جناب المستر كيرشو •

وهكذا لم تنته قضية الاغتيالات السياسية بالحكم الذى صدر فيها، بل كانت لها ذيول ، ولم ينزل الستار على القاعة التى كانت ميدانا للمعارك القضائية الا ليرفع فى ميدان آخر ليس هنا مجال الكلام عنه •

وتمتعت البلاد بفترة استقرار دامت أكثر من عامين فى ظل ائتلاف الوفد والأحزاب السياسية الكبرى ، ثم توفى سعد وبعد وفاته بقليـــل أسندت رياسة الحكومة الى حضرة صاحب الدولة مصطفى النحاس باشا الذى خلفه فى رياسة الوفد ولم تدم وزارته طويلا حتى تصدع الائتلاف وتعكر الجو مرة أخرى ، فاختلف الأحرار الدستوريون والاتحـــاديون مع الوفد •

وقبل أن تسند رياسة الحكومة الى حضرة صاحب الدولة مصطفى النحاس باشا كان قد وكل هو والأستاذ ويصا واصف بك وكيل مجلس النواب والأستاذ النائب جعفر فخرى بك المحامى عن الأميرة نوجوان هانم والدة الأمير أحمد سيف الدين للمطالبة بزيادة النفقة المقــدرة له أمام مجلس البلاط ولرد أملاكه اليه بعد رفع الحجر ، وحررت وثائق بشأن الأتعاب •

ثم انتخب الأستاذ ويصا واصف رئيسا لمجلس النواب فى الوقت الذى أسندت فيه رياسة الحكومة الى حضرة صاحب الدولـــة مصـــطفى النحاس باشا فتنحيا عن القضية •

وطلعت الصحف المتكلمة بلسان حزبى الدستوريين والاتحاد فجـــأة على الناس بصورة وثائق الاتفاق مع ترجمة خطاب قيل أن جعفـــر بك فخرى أرسله الى محمود شوكت بك وكيل الأميرة نوجوان هانم • وزعمت

أن رئيس الوزارة ورئيس مجلس النواب وزميلهما استغلوا نفـوذهم فأبلغ رئيس الوزارة الأمر الى النيابة التى تولت التحقيـق ، ثم أقيلت الوزارة • وسارت النيابة فى التحقيق ضد حضرات المحامين • وقدمتهم الى مجلس تأديب المحامين متهمين بعدة تهم من بينهـا أنهـم استخدموا نفوذهم وتقاضوا أتعابا باهظة لا تتناسب مع عملهم •

واختيرت نفس هذه القاعة مكانا لعقد مجلس التأديب للنظر فى هذه القضية التى عرفت « بقضية الوثائق » •

وعرضت القضية على مجلس تأديب المحامين الذى عقد برياسـة حضرة صاحب المعالى المرحوم حسين درويش باشا وكيل المحكمة وحضور حضرات أصحاب العزة عبد الحكيم عسكر بك ومحمود سامى بك ومحمد بهى الدين بركات بك مستشارين ، والمرحوم الأستاذ عبد الخالق عطيـة أفندى عضو النقابة وأحمد شرف الدين بك رئيس نيـابة الاستئناف • وتولى الدفاع فى القضية حضرات الأساتذة محمد نجيب الغرابلى باشا ، محمود بسيونى بك ، كامل صدقى بك ، محمد يوسف بك ، حسن صبرى بك ، ومكرم عبيد •

وكأن لجوانب هذه القاعة التاريخية جاذبية خاصة تجذب اليها كل قضية سياسية ، فاختيرت من جديد مكانا لعقد جلسات مجلس التأديب الذى شكل للنظر فى هذه القضية الجديدة • وجلس قضاة مجلس التأديب وجلس أمامهم فى حرم المحكمة حضرة صاحب الدولة مصطفى النحاس باشا والأستاذ ويصا واصف بك والأستاذ جعفر بك فخرى • واحتـل المحامون المترافعون ومن عاونهم فى اعداد المرافعات المقـاعد الأولى ، واستغرق نظر القضية عدة جلسات • وأخيرا أصدرت المحكمة حكمهـا فى يوم ٧ فبراير سنة ١٩٢٩ ببراءة حضرات المحامين مما نسب اليهـم جميعه •

وقد أثارت هذه القضية اهتمام الهيئات السياسية بمصر وانجلترا ،

كما أنها استرعت اهتمام الرأى العام الذى تابع بشغف عظيم جميع المراحل التى قطعتها من يوم أن بدىء فى تحقيقها فى شهر يوليه سنة ١٩٢٨ أى أن تم الفصل فيها •

وهكذا ظهرت المحاماة فى مصر بريئة مما نسب اليها ، وثبت أن أعلام المحامين فى مصر قد حافظوا على خير تقاليد المهنة المعروفة فى مصر والخارج ، ولم يجد مجلس التأديب الأعلى مجالا لنقد تصرفاتهم •

ونفذت من جديد أحكام الدستور فى أواخر عام ١٩٢٩ وعادت الحياة النيابية • ولكن لم يكتب لها الحياة طويلا : فحل البرلمان وألغى الدستور وقامت بالحكم وزارة جديدة — استصدرت دستورا جديدا ودعت الى انتخابات قاطعها الوفد والأحرار الدستوريون ، وجرت قبيل الانتخابات وخلالها حوادث دموية • واضطرابات شديدة شغلت الرأى العام مدة طويلة انتهت الى قضايا ومحاكمات وجدت منفذا الى هذه القاعة التى تنتظر كل المحاكمات السياسية الكبرى فنظرت فيها « قضية العنابر » وقضية « الخطابات المزورة » •

وقد شهدت القاعة أثناء نظر القضية الأخيرة تحولات فجائية مثيرة مدهشة • وكان التحقيق الذى أجرته المحكمة — وكانت مشكلة من حضرات محمود بك غالب رئيسا ومصطفى بك حنفى وأحمد بك نظيف مستشارين — دقيقا شاملا • أحاط بالحوادث والأشخاص • وكان من نتائجه أن انتقل بعض الأشخاص من مقاعد الشهود الى قفص الاتهام وقضى عليهم بالعقوبة • ، اذ ثبت أنهم هم الذين زوروا الخطابات التى نشرتها احدى الصحف على أنها مكتوبة بتوقيع بعض أنصار حزب الشعب وبعض موظفى الادارة •

وأخيرا تهيأت هذه القاعة لتشهد آخر المحاكمات السياسية الكبرى التى جرت فيها فى الخمسين عاما الماضية ، فقد توالت حوادث القاء القنابل

فى أوائل عهد حكم حضرة صاحب الدولة اسماعيل صدقى باشا فى ظروف روائية مدهشة . ولم يقع فيها اعتداء على الأرواح . ولم يضبط أحد وقت ارتكاب الحوادث . وقبض على الدكتور نجيب اسكندر بتهمة تموين هذه الجماعة بالمال والاشتراك معها فى ارتكاب الحوادث وتحريضها على ارتكابها .

وجاءت القضية أمام الدائرة التى نظرت قضية الخطابات المزورة ، وبعد أن نظرتها عدة جلسات اجتمع لدى رئيسها من الأسباب ما حمله على التنحى عن نظرها ، فنظرتها الدائرة المشكلة برياسة المرحوم محمد بك نور المستشار .

واستغرق نظر القضية عدة أشهر ، ولم تخل جلساتها من زوابع ومفاجآت ومواقف مثيرة ، وأخيرا عصفت العواصف وانسحب كثير من المحامين فى القضية وعلى رأسهم الأستاذ مكرم عبيد . وكان لانسحابهم آثار وذيول . واستأنفت المحكمة نظر القضية وقضت فيها ببراءة الدكتور نجيب اسكندر وبعض المتهمين .

وكانت آخر قضية سياسية شهدتها هذه القاعة أن احتفل بانقضاء خمسين عاما على انشاء المحاكم الأهلية .

وهكذا كتب لهذه القاعة أن تمر بها مواكب الحوادث السياسية الكبرى التى شهدتها مصر خلال أكثر من ربع قرن ، فكان لكل حادث فى أركانها صدى وعلى جدرانها ظلا — توالت عليها صور الحوادث وألوانها ومشت فيها مواكب الحياة السياسية والاجتماعية التى لبست لباس الجريمة أو شبه لذوى الرأى أنها لبسته وأصبح قفصها قنطرة تعبر عليها الحوادث والرجال تمشى من التهم على أسنة وحراب .

هنا وفى هذه القاعة جلس قضاة مصر نحو أكثر من ربع قرن أو يزيد

يحكمون باسم ولى الأمر فى القضايا السياسية فكانت كلمتهم فصل الخطاب .

هنا وأمام منصة القضاء سكن مد الحوادث وانحسر طغيانها ، وهدأت الشهوات .

هنا لم يعرف القضاء المصرى شيعا ولا أحزابا ولا حاكما ولا محكوما ، وانما عرف مصريين يقيم بينهم العدل ويرفع مناره ، وينشر لواء القانون ويعلى جداره ، فكان للمصريين فى ليل الحوادث واضطرابها الملجأ الأمين والمنار الهادى .

(عاشرا) « المرافعات فى مصر »

وجد حسين صقر واللقانى والباجورى وغيرهم من بناة المجد فى زمن كانت المحاماة فيه مجرد اجتهاد .

وثمة نموذج من هذا المجد الغابر تجده فى شخص شيخ الجماعة وامام الصناعة الأستاذ الأكبر ابراهيم الهلباوى بك .

من ذا يستطيع الى اليوم تحدى بديهيته الوثابة ولغته الفكهة اللاذعة وسخره القتال .

ومن جبابرة ذلك العصر أيضا : أحمد لطفى بلغته السهلة الممتنعة .

وعبد العزيز فهمى بقلمه ولسانه الجبارين يتصرفان فى المعنى وفى المبنى كما يريد ويشتهى . ووهيب دوس صاحب المنطق الجزل والديباجة الرشيقة والبيان المتدفق فى غير صنعة ولا تزيد . ومرقس الذى لا يلحق ولا يدانى . مرقس الجذاب الأخاذ ، المتغلغل بسامعه الى الأعماق ، السامى به الى السبع الطباق .

كل هؤلاء لا يستحق أن يدرس دراسة خاصة ، وأن يقدمه الى الناس قلم غير هذا القلم وأن توقف عليه جهود لا تستطيعها هذه العجالة.

وفى دراسة هؤلاء الفحول دراسة لناحية مجيدة من أدبنا القومى يجب ألا تهمل .

وحسبك منا هنا الاشارة الى آثارهم فى مختلف ألوان الكلام القضائى مما لا يحصيه محص .

كما أن من جبابرة المرافعة فى هذا الزمن نقيب المحامين الحالى الأستاذ أحمد الخواجة ، راقبه وهو يترافع وتأكد أنك ستتعلم منه الكثير حين يبدأ وحين ينطلق وحين يزمجر وحين يختم مرافعته بأسلوب سليم صحيح قوى جذاب .

الفصل الثانى

عناصر المرافعة

تمهيد :

المرافعة أو الخطبة القضائية هى التى تلقى فى ساحة المحاكم أمام القضاء طلبا للحكم فى أمر ما ، وهى باختلاف المحاكم التى تلقى بها ، وموقف المحامى أو وكيل النيابة ـ يختلف باختلاف القضية التى يتكلم من حيث نوعيتها وأهميتها والأحداث التى بنيت عليها .

وقد بين الرسول (ﷺ) أهمية هذا النوع فى قوله لنفر من الأنصار اختصموا اليه (انما أنا بشر مثلكم وأنتم تختصمون الى وقد يكون بعضكم ألحن[1] بحجته من الآخر فأحكم له على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له شىء من حق أخيه فانما اقتطع له قطعة من نار) .

وبين هذا الحديث أن المحامى اللبق يستطيع أن يخدع القاضى وأن يلبس الباطل ثوب الحق .

والقضاة الأذكياء يحرصون على ألا يخدعوا ببلاغة الخطيب وأن يبحثوا القضايا التى أمامهم من الوجهة القانونية البحتة ، والخطيب **القضائى رغم هذا لا يستغنى عن اثارة عواطف القضاة ، وبعبارة أخرى أمام هذا الخطيب لنجاحه أمران : الأول والأهم هو البحث القانونى وتطبيق قضيته عليه .**

الأمر الثانى وهو أمر مساعد وهو جذب عواطف القضاة نحو

ما يدعو اليـــه • وهــذا الأمر الأخير وان كان محدود الأثر لا يخلو من أهمية • لأن القانون ذو مرونة ومرونته متروكة للقضاة • مثــلا نجــد العقوبة فى جريمة ما غرامة لا تقل عن خمسين جنيها وسجن شهر أو احدى العقوبتين فالغرامة قد تؤخذ فى أضيق حدودها وقد يكتفى بها وحــدها وقد تزيد عن حدها الأدنى ويضم اليها الحبس ، ومن هنا نجد أن عاطفة القاضى لها أثر •

ولكن الاستعطاف يأتى من ناحية توهين المستند والتحذير من عقوبة شخص برىء أو هو أقرب الى البراءة وأن القانون يفضل براءة الجانى أو عشرات الجناة على أن يعاقب شخص برىء بأدنى عقوبة •

عنــاصر نجــاح المرافعــة القضــائية

واهم ما تعتمد عليه الخطبة القضائية :

١ ــ درس القضية درسا عميقا شــاملا لا يغيب عن المحامى أى جزء منها •

٢ ــ وضعها فى الصورة القانونية الملائمة •

٣ ــ أن تصاغ الخطبة فى صورة منطقية متسلسلة •

٤ ــ جودة الأسلوب وقوة التعبير • وكبار المحامين يطبعون خطبهم ليقرأها من لم يشهد القائها من المحامين الآخرين والخطباء •

٥ ــ محاولات تجــريح الشاهد أو التماس فارق بسيط بين أقوال الشهود ثم يطيل فى خطبته لاقناع موكله أنه بذل جهودا •

والخطبة القضائية لها مدارسها ورجالها • ويجب أن نتذكر وصية عمر بن الخطاب لأبى موسى الأشعرى حين ولاه القضاء ، وهى رســالة

مشهورة مذكورة فى أكثر الكتب الأدبية والتاريخية ، ويجب ألا نغفلها ولا يغفلها دارس سواء كان محاميا أو قاضيا أو خطيبا[1] •

وسوف نعرض لموضوع عناصر المرافعة فى ثلاثة مطالب على أن نعرض فى المطلب الأول لافتتاح المرافعة وفى المطلب الثانى نتناول موضوع المرافعة أما المطلب الثالث فيعالج ختام المرافعة •

المطلب الأول

افتتاح المرافعة

يجب افتتاح المرافعة بمقدمة مثيرة وبشىء يأسر الانتباه فى الحال والخطيب الذى يتمتع بالذكاء يحفظ المقدمة أولا والتى يفضل فى هذا الزمان أن تكون قصيرة كلائحة الاعلان لأن ذلك يتطابق مع مزاج القاضى فى هذا العصر الذى يجب أن يستخلص الحقائق ويجب ألا يبدأ المحامى مرافعته بالاعتذار بأنه لا يجيد المرافعة فهذا خطأ جسيم والأفضل عدم الاستمرار لأنه ليست هناك فائدة من الاستمرار •

ولكن قد يبدأ المحامون مرافعاتهم بتقديم مثال محدد واضح أو الافتتاح بسؤال عام محدد الاجابة عليه تنطبق على القضية كما أن البعض يفتتح المرافعة افتتاحا طارئا بحادثة مثيرة متعلقة بالقضية • ومن المفيد أن يلتقط المترافع أنفاسه فى البداية لكى يزول التوتر العصبى •

والمقدمة هى أول ما يطرق سمع الناس فاذا كانت جذابة مشوقة أنجحت المحامى وجعلت القضاة يقبلون عليه واقبالهم عليه يشد عزمه

---

(١) أنظر د/ عبد الجليل شلبى — الخطابة واعداد الخطيب — ط ٥ سنة ١٩٩١ ص ١٠٢ •

ويثير فيه النشاط والحمية وهو فى جملتها عامل تهيؤ للسامعين ثم يبـدأ التسلسل الى موضوعه تدريجيا •

والمحامى فى المحكمة ليس بحاجة الى شد انتباه القضاة بهذا الشكل لأنهم تلقائيا متجهون نحوه مصغون لكل ما يقول وهو مع ذلك فى القضايا الكبيرة مضطر الى مقدمة تطول والغرض منها هو التهيئة للموضـوع ولبيان أنه يدافع عن الحق لا لأنه منوب من طرف معين • ويقول :

نحن لا نقف اليوم أمام عدالتكم لا لندافع عن هذا المتهم بل لندافع أصـلا عن الحق ولا نقف ضـد شخص بعينه ونهاجمه بقـدر ما نقف ضد الظلم •

مميزات وأسلوب المقـدمة :

١ ــ أن تكون مشوقة ذات قدرة على شد انتباه السامعين عـلى نحو ما سبق « عنصر التشويق » •

٢ ــ لكى يصـل المحامى الى هذه الدرجه يبدأ بألفـاظ واضحة ومفهومة وأفكار قريبة لا تعوز الى تفكير « حسن البداية » •

٣ ــ لابد أن تكون شديدة الصـلة بموضوع المرافعـة فـلا يكون بينها وبين المرافعة حين ينتقل اليها فجوة ، بل تكون امتـداد للمقـدمة وبذلك يتم ربط الصلة بين المقدمة وموضوع المرافعة •

٤ ــ من ناحية طول المقدمة أو قصرها يجب أن تكون غير مسرفة فى أى من الجانبين لأنها اذا كانت موجزة جدا لم يكن ثم مقدمة واذا كانت طويلة جدا ذهبت فائدتها أيضا لأنها تستنفذ قوة المترافع •

ومن أمثلة افتتاح المرافعة ما يلى :

مثـــال لافتتاحية مرافعـــة :

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد النبى الأمى المبعوث رحمة للعالمين ، فان خير بداية دائمـــا هى البدء بحمد الله جلت قدرته على سابغ فضله ونعمته وفائض احسانه ورعايته عليه عز وجل اعتمادنا وبه سبحانه وتعالى اعتزازنا •

وبعـــــــد :

فانني بعد أن استغرقت فى قـــراءة أوراق تلك القضية وبعـــد أن انتهيت من قراءتها تماما شعرت بدوار فى رأسى وكاد أن يشل تفـــكيرى وتساءلت وصرخت من أعماقى :

ألهذا الحـــد يمكن أن يصـــل ظلم الانسان لأخيـــه الانسان من أجل المال ؟

ألهذا الحد يصل ظلم الانسان لأخيه الانسان من أجل الحقد ؟

ألهذا الحد يصل ظلم الانسان لأخيه الانسان من أجل الأرض ؟

وانتفضت من أعماقى وتمنيت لو دافعت عن هذا المتهم ليس أمام ساحات القضاء الشريفة بل تمنيت لو دافعت عنه فى ســـاحات القتـــال الشرسة التى خاضها مع أناس لا يعرفون طريقا الا الظلم والعدوان •

وسوف ترون عدالتكم وبأنفسكم أن ما حدث فى هذه القضية من أغرب القضايا وتفوق بحق حكايات الخيال المسطورة •

حضرات المستشارين :

لا يخفى على عدالتكم وكما تعلمنا فى محـــرابكم هذا المقـــدس أن

لكل دعوى شقين لعل الشق الأول هـو الواقع أما الشق الثانى فهـو القـانون •

وفى الحقيقة فان المتهم فى هذه القضية يعتبر مجنيا عليه كمـا أن المجنى عليـه هـو الجانى الحقيقى الـذى يحـاول الايقـاع بذلك الصيد الثمين •

ووقائع هذه القضية تقود بأكملهـا الى براءة موكلى من التهمـة المنسوبة اليه • واسمحوا لى يا حضرات المستشارين أن يتنوع دفاعى بخصوص معينة وقائع تلك الدعوى الى النقاط الثلاثة الآتية :

ومن المقدمات المشهورة من كتاب الله تعالى :

١ ـ « رب اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى وأحلل عقدة من لسـانى يفقهوا قولى ••• » •

صـدق الله العظيم

٢ ـ « يا أيهـا الذين آمنوا إن جاءكم فاسقا بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهـالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » •

صـدق الله العظيم

كما وقف أحد المدعين بالحق المدنى فى قضية قتل وقال :

من المعـلوم أن المريض اذا أشرف على الهـلاك أتوا له بأشـهر الأطباء وأعلمهم وأغزرهم وبالتـالى فان حضـور أساطين القـانون مع المتهم دليل دامغ على ادانته وعلى اشرافه على الهلاك •

ولقد وقف أحد المحـامين فى قضية كبـيرة فقـال : يا حضرات المستشارين :

نقف أمام هـذه القضية موقف علماء المنطق من قضاياهم المنطقية انهم يضعون المقـدمات ثم يرتبون عليها النتائج ، فاذا كانت مقدمات القضية سليمة مقطوعا بصحتها كانت النتيجة المرتبـة عليهـا صحيحة مقطوعا بصحتها •

بهذه العبارات أشعر القضـاه أن لديه أدلة مقطوعا بها لا تقبـل أى طعن أو توهين وعقبها مباشرة أخـذ فى شرح المقـدمات التى كان يريدها •

المطلب الثـانى

موضـــوع المرافعـــة

يجب أن يكون (المترافع) سيد موضوعه ومن ثم فان النجـاح لا يكون الا عن طريق العمـل الشـاق والتخطيط الصـائب والعمـل التحضير الدائب كما أنه يجب محاولة تذكر التركيب الانشائى • ويجب ألا يبحث المترافع عن الكلمـات ولكن يبحث فقط عن الحقيقة والفـكرة عندئذ تتدفق الكلمات من دون أن تسعى اليها •

ويجب التزام قواعد التـذكر وتحسين الذاكـرة • عن طـريق الانطباع ــ التكرار ــ ترابط الأفكار • حتى لا يتـوه مبـدأ أو فكرة فى المرافعة كما أنه يجب تحضير المرافعة قبل الجلسـة بيومين عـلى الأقل والا فان الذاكرة لن تعمل الا بنصف مقدرتهـا الممكنة • لأن العقـل هو آلة ترابط الأفكار بشكل ما •

والعناصر الأساسية للمرافعة الناجحة :

١ ــ ضرورة المثـــابرة •

٢ ــ قـــرار النجـــاح •

فلقد كتب شاب ينوى دراسة القانون الى لنكولن يطلب النصيحة فقـــال له :

اذا قررت أن تصبح محاميا تكون قد أنجزت نصف العمـــل تذكـــر دائما أن قرارك الذاتى للنجاح أهم بكثير من سائر الأشياء •

اذا تابعت الدراســـة الذاتيـــة لفن المرافعـــة بحمـــاس واخلاص وثابرت على التـــدريب فانه يمكن أن تستيقظ ذات صباح جميل وتجـــد نفسك أحد أبرز المحامين فى مدينتك •

واذا أردت أن تكون محاميا واثقا من نفسك فانك ستصبح واثقا من نفسك لكن يجب أن ترغب فى ذلك[٢] •

ولـــكن يجب على كل شخص أن يقوم بتفجـــير المزايا الكامنة فى أعماقه للتغلب على الخوف وكسب الثقة بالنفس والبعـــد عن الارتبـــاك وفقـــد القدرة على التفكير تماما • ومن هنـــا يستطيع المحامى الناشىء أن يكون مترافعا بارعا بالتدريب الجاد ومن خلال المقـــدرة على القـــاء الخطابات • فعدم القدرة على المرافعة قد يصل المحـــامى الى وضـــع مخزى للغاية عندما تتضاعف دقات قلبه وتتلاشى بالتالى الأفكار من رأسه ويقف محرجا كالأخرس • ولا شك أن معالجـــة ذلك لا يـــكون الا عن

---

(٢) فن الخطابة ــ المرجع السابق ــ ص ٦٥ •

طريق تحضير المرافعة مسبقا والتدريب عليها باصرار ومن ثم يخف التوتر وتزداد الثقة بالنفس ويصبح خلال فترة محددة نجم الخطابة والمرافعة بين أقرانه وبالتالى فان كسب الثقة بالنفس والقدرة على التفكير بهدوء أثناء المرافعة ليس أمرا طبيعيا كما يتخيله البعض وهى ليست فقط مجرد موهبة وهبها الخالق لأفراد عديدين •• بل أن كل فرد باستطاعته ان ينمى طاقته الكامنة اذا ما كانت لديه رغبة كامنة وذلك بالتدريب والممارسة التى تزيل الخوف وبفك عقدة اللسان حيث تكون الحالة العصبية للمترافع أساس ذلك ويلاحظ أن غالبية المترافعين ذوى الجدارة الحقيقية يتميزون بالعصبية •

فاذا ما تتبعت موضوعك باصرار وحيوية فما من شىء تحت السماء يستطيع أن يهزمك •

واعترف مرة خطيب قائلا : قبل دقيقتين من البدء بالخطاب أفضل لو أنى جلدت على أن أستهل خطابى لكن بعد دقيقتين من البدء أفضل أن أقتل على أن أتوقف[٣] •

ويجب ن تفكر مليا وتخطط لحديثك • وتعرف ما الذى ستقوله لأنك ان لم تفعل ذلك ستكون كالأعمى الذى يقود أعمى فى مثل تلك الظروف • ولذا يجب أن يكون المترافع واع لنفسه يشعر بالندم والخجل ان أهمل • ومن ثم لا تتكلم حتى تتأكد أن لديك ما تقوله •

والخطأ المميت الذى يقترفه الكثيرون هو اهمال تحضيرهم للمرافعة فهو خوض المعركة بعدة فاسدة أو بدون عدة على الاطلاق • ولذلك فان القواعد الصحيحة فى المرافعة هى اتباع ما يلى :

---

(٣) فن الخطابة — المرجع السابق — ص ١٤ •

١ ــ التحضــير :

(أ) لا تأخذ الأفكار المعلبــة كمــا هى من الكتب والا ســتكون المرافعة هزيلة وناقصة •

(ب) يجب ابلاغ الرسالة الحقيقية الى المستمعين •

(جـ) يجب أن تستخرج المواد الخام من منجمك الخاص •

٢ ــ التفكير فى التحضير عن طريق كتابة كل شيء عن الموضوع •

٣ ــ تحديد موضوع المرافعة : لماذا ، كيف ، متى ، وأين •

اجعل الحــديث مثــل كعكة مزينــة بالأمثلة والقضــايا العــامة والعبارات الخلاقة •

٤ ــ سر الطاقة الاحتياطية :

المرافعات الرائعة يجب أن تتسلح بمادة احتياطية وافرة وفائضة فلا تكون كمن بدأ دون أن يعرف ما الــذى سيقوله وانتهى من دون أن يعــرف ما نطق به ولذلك فانه يجب حفظ بعض الأقــوال المأثورة عن مرافعات كبار المحامين التى ظلت عبر العصور نبراسا يهتدى به فى أشــد الأوقات حلكة • ومن أمثلة ذلك :

ــ لو أنصفتنا النيابة العامة لما تركت هذا الشاهد •

ــ القضاء هو القــانون الحى وبغيره يصبح القــانون فعلا مجردا عاجزا لا خير فيه ولذلك فنحن نمتلىء احتراما للقضاء ونحيطه بالتقدير والمحبــة •

ـ ولذلك فان ضــوء العــدالة ســوف يلمع دائمــا ويطهــر كل ما هو دنس •

ـ وسوف يبزغ فجر العدالة على الجميع •

كما يجب علاج العمود النقرى فى القضية ولا تنظر الى الضلوع والتركيز على مفتاح الحديث فى الدعــوى لأن : الحقيقــة ليست بنت الجدل ولكنها بنت البحث الكريم •

ومن الأمثلة الانشائية أيضا :

ـ ان اللغم المضىء فى هذه القضية هو كذا أو كذا •

ـ واذا كان المنطق هو ذلك الشىء الذى اذا عرض على العقــول تلقته بالقبــول • فان هــذه القضية قــد خلت من أسباب ومبــادىء المنطــق •

ـ الضــوء الســاطع ـ الخليــة الضوئية ـ الكائنات الضوئية فى الدعوى •

ـ الصيد الثمين قد وقع فى الفخ •

ـ ان وقوف المتهم لحظــة واحــدة فى قفص الاتهــام ينسيه ألف كتاب قرأه عن الحرية •

ـ ان الأدلة هى الســلاح البتــار فى الدعوى ولذلك يجب عرض الأدلة تفصيليا •

« أقوال مأثورة فى موضوع المرافعة »

ان الرياء يظل رياء وان قلم أظافره والغش يبقى غشا وان لانت ملامسه ، و لكذب لا يصير صـدقا وان لبس الحـرير وسكن القصور ، والخداع لا يتحول الى أمانة اذا ركب القطـار أو اعتـلى المنطـاد ، والجـرائم لا تصـير فضـائل وان سارت بين المعاهد والفصـول — والعبودية ستبقى عبودية ولو طلت وجهها وغيرت ملابسها فهى عبـودية ولو دعت نفسها حرية •

ويقولون لى اذا رأيت عبدا نائما فلا توقظه لئـلا يحلم بالحـرية فالنـاس عبيد الحيـاة وهى العبودية التى تجعل أيامهم مكتنفة بالذل والهوان ولياليهم مغمورة بالدموع والدماء وهـذه هى الحقيقة ومن ثم فان الله الخالق سبحانه وتعالى قد جعـل الحقيقة ذات أبواب عـديدة يفتحها كل من يطرقها بيد الايمان •

فماذا أقول فيمن استدان مالى ليشترى سيفا يبارزنى به ورجـل فتك برجل آخر فقـال النـاس هذا قاتل ظالم — وعندما فتك به القاضى قال الناس هذا قاض عادل • ورجل حاول أن يسلب الدير فقال النـاس هذا لص شرير وعندما سلبه القاضى حياته قال الناس هذا قاض صالح ، أو امرأة خانت بعلها فقـال الناس هى زانيـة فاجرة ، ولكن عندما سيرها عارية ورجمها على رؤوس الاشهاد قالوا هـذا قاضى شريف فان سـفك الدماء محرم ولكن من حلله القاضى وسلب الأموال جريمة ، ولكن من جعل سلب الأرواح فضيلة • وان خيانة النساء قبيحة ولكن من جعـل رجم الأجساد جميلا وان التقاليد الفاسدة تظلم الضعيف اذا سقط أما القوى فتسامحه وان المجرم لا يحاكمه المجرمون ، والكافر الشرير لا يدافع عن نفسه أمام الخطاه وأن الشفقة لا تجوز على المجرمين الضعفاء أما العدل فهو كل ما يطلبه الأبرياء وان المال مصدر شرور الانسان والحب ينبـوع

السعادة والنور فالمنجمون لا يحولون مسار النجوم والسجين المظلوم الذى يستطيع أن يهدم جدران سجنه ولا يفعل يكون جبانا •

وجميل أن تعطى من يسألك ما هو فى حاجة اليه ، ولكن أجمل من ذلك أن تعطى من يسألك وأنت تعرف حاجته فان من يفتح يديه وقلبه للعطاء يكون له فرح بسعيه الى من يتقبل عطاياه والاهتداء اليه أعظم مما بالعطاء نفسه •

فليس القتيل بريئا من جريمة القتل ، ولا المسروق بلا لوم فى سرقته وكثيرا ما ذهب المجرم ضحية لمن وقع عليه جرمه فانما اللص صنيعة المحتكر ، والمجرم خليقة الظالم ، والقاتل صنيعة القتيل ، والخبيث ثمرة العربيد ، والعقوق نتيجة الصارم •

وقد تفلح الحيلة فى البداية ولكنها تخيب فى النهاية والمتفائل ينظر الى الوردة ولا يرى أشواكها ، والمتشائم يحدق فى الأشواك ولا يرى الوردة ولذلك ابعدنى رباه عن لسان المرأة الأفعى التى لوثت الحياة• فالحياة امرأة تستحم بدموع عشاقها وتتعطر بدماء قتلاها ، وهى امرأة ترتدى بالأيام البيضاء المبطنة بالليالى السوداء وهى أيضا امرأة ترضى بالقلب البشرى خليلا وتأباه حليلا • وهى أيضا امرأة فاسقة ولكنها جميلة ومن يرى فسقها يكره جمالها وليس من يكتب بالحبر كمن يكتب بدم القلب • وقد بنى الله الأجسام هياكل للأرواح فعلينا أن نحافظ على هذه الهياكل لتبقى قوية فالحب كنز ثمين لا يودعه الله الا القلوب الكبيرة الحساسة •

كلمـات خـالدة(٤)

* ها هنا كنوز الحكمة ، فتعالوا أيها المحبون للحكمة ، نملأ أيدينا من الدر والياقوت والجواهر •

* ها هنا ينابيع الحكمة ، فهيا نشرب ونرتوى ، بحق أقول لكم ما قال نبى الله عيسى بن مريم : ان من يشرب من هذا الماء لن يعطش الى الأبد •

* أنظروا الى طيور السماء ، انها لا تزرع ولا تحصد ، ولا تجمع الى مخازن،وأبوكم السماوى يقوتها — ألستم أنتم بالحرى أفضل منها — ومن منكم اذا اهتم يقدر أن يزيد على قامته ذراعا واحدة ؟

* « لا تدينوا لكى لا تدانوا لأنكم بالدينونة التى بها تدينون تدانون وبالكيل الذى تكيلون يكال لكم » •

* ويقول الله فى سورة الاسراء :

(وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا ، اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما • واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا ، ربكم أعلم بما فى نفوسكم ، ان تكونوا صالحين فانه كان للأوابين غفورا • وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا ، ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا ، واما تعرض عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا ، ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا،

---

(٤) انظر كنوز المعرفة — السيد ابو ضيف المدنى — مختارات من كلام الحكماء والانبياء — ١٩٩١ — دار المعارف — ط ٢ •

ان ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، انه كان بعباده خبيرا بصـيرا ، ولا تقتلوا أولادكم خشية امـلاق نحن نرزقهم واياكم ، ان قتلهم كان خطئا كبيرا ، ولا تقربوا الزنى انه كان فاحشة وساء سبيلا ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل انه كان منصورا ، ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا بالعهد أن العهد كان مسئولا . وأوفوا الكيل اذا كلتم وزنوابالقسطاس المستقيم ، ذلك خير وأحسن تأويلا . ولا تقف ما ليس لك به علم ، ان السمع والبصر والفـؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا . ولا تمشى فى الأرض مرحا انك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها ذلك مما أوحى اليك ربك من الحكمة ، ولا تجعل مع الله الها آخر فتلقى فى جهنم ملوما مدحورا).

وفى وصف عباد الرحمن يقول الرحمن جل جلاله :

(وعبـاد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما . والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما . والـذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ان عذابها كان غراما . انها سـاءت مستقرا ومقاما والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما . والذين لا يدعون مع الله الها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله الا بالحق ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يلق أثاما . يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا الا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما ومن تاب وعمل صالحا فانه يتوب الى الله متابا) .

ويقول الشاعر :

واذا أصيب القوم فى أخلاقهم   فأقم عليهـم مأتمـا وعويلا

وحيث يقول فى قصيدة أخرى :

وليس بعـــامر بنيـان قـوم   اذا أخلاقهم كانت خـرابا

وحيث يقول فى قصيدة ثالثة بيته الذائع :

وانما الأمم الأخــلاق ما بقيت فان هموا ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ويقول سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم :

❋ (اذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بنى لا تشرك بالله ، ان الشرك لظـلم عظيـم ، ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهنـا عـلى وهن وفصاله فى عامين أن أشكر لى ولوالديك الى المصـير ، وان جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا واتبـع سبيل من أناب الى ثم الى مرجعكم فانبئكم بما كنتـم تعملون . يا بنى انها ان تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السـموات أو فى الأرض يأت بها الله ، ان الله لطيف خبير يا بنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر عـلى ما أصابك أن ذلك من عزم الأمور ولا تصعر خـدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحا ان الله لا يحب كل مختال فخور . واقصد فى مشيك واغضض من صوتك ان أنكر الأصوات لصوت الحمير) .

— ضرب الوالد ولده كالسماد للزرع .

— قيل للقمان ما أقبح وجهك فقال : أتعيب بهذا عـلى النقش أم على النقاش ؟

— دار أنت اليها تسير أقرب من دار أنت عنها مرتحل .

— أمر لا تدرى متى يلقاك ، استعد له قبل أن يفجاك .

— ان من الكلام ما هو أشد من الحجر ، وأنفذ من الابر ، وأمر من الصبر ، وأحر من الجمر ، وان من القلوب مزارع ، فازرع فيها الكلمـة الطيبة فان لم تنبت كلها نبت بعضها .

— ان كنت فى الصلاة فاحفظ قلبك ، وان كنت فى الطعـام فاحفظ

خلقك ، وان كنت فى بيت الغير فاحفظ عينيك ، وان كنت بين الناس فاحفظ لسانك •

— لا تتعلم العلم لتباهى به العلماء ، وتمارى به السفهاء أو ترائى به فى المجالس •

— لا تأمر الناس بالبر وتنسى نفسك ، فيكون مثلك مثل السراج ، يضىء للناس ويحرق نفسه •

— ثلاثة لا تعرفهم الا فى ثلاثة : لا تعرف الحليم الا عند الغضب ولا الشجاع الا عند الحرب ، ولا تعرف أخاك الا اذا احتجت اليه •

— ان عالما قليل العلم يحاول انارة عقول الناس بما يعلم ، خير من عالم واسع العلم ضنين به •

— الولادة مؤلمة والمرض مؤلم والشيخوخة مؤلمة والحزن والبكاء والخيبة واليأس كلها مؤلم وتلك الحقيقة السامية عن سبب الألم سببه الشهوة التى تمازجها اللذة ، والشهوة التى تسعى وراء اللذائذ وتلك الحقيقة السامية عن الألم : ان نجتث هذه الشهوة من أصولها ، فلا تبقى لها بقية فى نفوسنا •

— فليس ثمة ما يتحدى الموت ، لأن الموت شريعة الحياة •

— ليس هناك من نار أشد من الشهوة وليس هناك من رميه مثل البعض •

— ان الكلام المنمق يجعلنا أحيانا عاجزين عن التفرقة بين ما هو حسن وما هو سيىء •

— عندما تسود الألفة بين الزوجة والأولاد والزوج ، فما أشبه المنزل بربابة وعود ، قد تآلفت أنغامها • وعندما يعيش الأخوة فى تآلف وسلام ، فحينئذ يظل الى الأبد فى وحدة وانسجام •

— ان الأرض تلد كل شىء ثم تسترده •

— ان فعل الجاهل فى خطابه أن يذم غيره ، وفعل طالب العـلم أن يذم نفسه ، فعل الأديب ألا يذم نفسه ولا غيره ٠

— قال سولون لابنه : دع المزاح فان المزاح لقاح الضغائن ٠

— جوعوا الى الحكمة ، واعطشوا الى عبادة الله ، قبل أن يأتيكم المانع منها ٠

— لو أن انسانا صادقا أمر جبلا أن يزول لزال ٠

— اذا حاكمت رجلا فليكن فكرك فى حجته عليك أقوى من فـكرك فى حجتك عليه ، واحذر أن يسبقك الى الحق ، فان سبقك اليه فرجوعك الى الصواب أحسن من ظفرك به ٠

— أضعف الناس من ضعف عن كتمان شره ، وأقواهم من قوى على غضبه ، وأصبرهم من ستر فاقته وأغناهم من قنع بما تيسر له ٠

— تزينوا بالعدل والبسوا ثوب العفاف تفلحوا ٠

— من فضيلة العلم أنك لا تستطيع أن يخدمك فيه أحد كما يخدمك فى سائر الأشياء ، وانما تخدمه بنفسك ، ولا يستطيع أحد أن يسلبك اياه كما يسلبك غيره من المقتنيات ٠

— الانسان بلا عقل كالتمثال بلا روح ٠

— ويروى عنه أنه كان يجوب الطرقات نهارا حاملا مصباحا ، وحين يسأل عن ذلك ، يجيب بأنه يبحث عن انسان ، والمغزى واضـح ، فهـو يريد أن يبحث عن انسان كامل تتحقق فيه فضائل الانسانية الصحيحة ٠

— لا تلقوا اللؤلؤ الى الخنازير ، فانها لا تصنع به شيئا ، ولا تعطوا الحكمة من لا يريدها فان الحكمة أفضل من اللؤلؤ ومن لا يريدها شر من الخنازير ٠

— ولا تجعلوا كنوزكم فى الأرض يفسدها السوس والدود ولـكن

اجعلوا كنوزكم فى السماء فانه حيث تكون كنوزكم تكون قلوبكم .

ــ ان العــين هى سراج الجســد ، فاذا كانت عينيك صحيحة فان جسدك كله مضىء .

ــ الدنيا قنطــرة فاعبروها ولا تعمروها ــ النظر يزرع فى القلب الشهوة ، وكفى بها خطيئة .

ــ قال الجاحظ فى كتابه « البيان والتبين » يصف كلامه ﷺ :

« وهو الكــلام الذى قل عدد حروفه ، وكثرت معــانيه ، وجل عن الصنعة ، ونزه عن التكلف كان كما قال الله تبارك وتعــالى (وما أنا من من المتكلفين) » .

ويقول الأستاذ مصطفى الصادق الرافعى عن بلاغة الرسول ﷺ :

« هذه هى البلاغة الانسانية التى سجدت الأفكار لآيتها ، وحسرت العقول دون غايتها ، لم تصنع وهى من الأحكام كأنهــا مصنوعة ، ولم يتكلف لها وهى على السهولة بعيدة ممنوعة .

ــ طوبى للمخلصين ، أولئك مصابيح الهدى ، تتجلى عنهم فتنة ظلماء.

ــ أكثر ذكر الموت يسلك عن الدنيا ، وعليك بالشكر ، فانه يزيد النعمة.

ــ من أصبح معافى بدنه ، أمنا فى سربه وعنده قوت يومه فكأنمــا حيزت له الدنيا بحذافيرها .

ــ خذ من شبابك لهرمك ، ومن غناك لفقرك ، ومن صحتك لسقمك .

ــ ما أخلص عبد العمل لله أربعين يوما الا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه .

ــ حصنوا أموالكم بالزكاة ، وداووا مرضاكم بالصدقة ، واستقبلوا البلاء بالدعاء .

استفت قلبك الحلال بين والحرام بين ، وكما نقول نحن •• صوت الفطرة •• وصوت الضمير • فما أكثر ما فعل الكهنوت بالناس من مفاسد وما أكثر ما أضلتهم الايديولوجيات ، ولو أنهم أنصتوا الى صوت الفطرة فى داخلهم ، ولو أنهم استمعوا الى صوت الضمير ذلك السفير الالهى الذى لا يخطىء •• لما ضلوا ولما أضلوا •

وان صفوة الانسان هم الأنبياء هو خاتمهم محمد ﷺ •• فهو الانسان الكامل المراد من جنس الانسان على الاطلاق •• وهو العماد الذى ضربت عليه قبة الوجود وهو النبى الخاتم الذى اجتمعت له مفاتيح المعارف وكنوز الرحمة ومقام الشفاعة وأنوار الهداية وتميز على الكل بأنه على خلق عظيم فقال له ربه « وانك لعلى خلق عظيم » •

ان قصة الابتلاء والامتحان هى أعظم القصص •

•• وهذا كلام مطلسم تدور له الرؤوس ••

•• الحديث الغيبى لا أساس له من الصحة •

•• ان هذه القوة التى تراها هى قوة مصنوعة •

•• يقول على بن حمزة وقد نزل عنده المتنبى بعد فراره من مصر انه لم يره يصلى أو يصوم أو يتلو قرآنا •

•• ذلك هو المتنبى أشعر شعراء العرب •• ملأ الدنيا وشغل الناس وبلغ أوفى الحظوظ من الثراء والشهرة والجاه وغطت سيرته التاريخ لعدة قرون وما زالت •• فما حظه من الآخرة ؟

•• لا يعلم ذلك الا الله الذى يعلم البواطن والنيات والقلوب لأن السرائر هى مفتاح المصائر ومن ذا الذى يعلم السرائر الا هو •

وظاهر الأعمال تكفى للحكم لصاحب القضية فى الدنيا ولكنها لا تكفى لمعرفة الحكم فى الآخرة •

•• ولذا كان المصير لغزا محجوبا عن الكل •

•• ولذا كانت المفــاجأة التى ليس بعــدها مفاجأة •• حين تهتك الأستار وتكشف الأسرار •

•• فالآخرة هى البرلمان الوحيد الذى تهلك فيه الأغلبيــة وتنجو الأقلية •

•• والنفس المؤمنة لا تعرف داء الاكتئاب •• فهى عــلى العكس نفس متفائلة تؤمن بأنه لا وجود للكرب مادام هناك رب •• وأن العدل فى متناولنا مادام هناك عادل •

•• وأن باب الرجاء مفتوح على مصراعيه مادام المرتجى والقادر حى لا يموت •

•• هو تنفيذ المكتوب وجريان القدر بما كتب فى اللوح المحفوظ •

•• اذا كان الله منفردا بالقضاء والقدر والتصريف والفعل والرزق والصبر والضر والنفع والهداية •

•• واذا كان الأمر كله لله وليس لنا من الأمر شىء فماذا بقى لنا ؟

•• يقول العارفون : بقيت لنا النية والمبادرة وعليها نحاسب وآيات كثيرة من القرآن جعلت فعل الرب مؤسسا على مبادرة العبد وعلى علمه بقلبه ونيته •

(والذين اهتدوا زادهم هدى) •

(فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا) •

(فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) •

•• وفى المواقف والمخاطبات :

يا عبد كل شىء لى فلا تنازعنى مالى •

يا عبد أجبت كل شيء من يدعوك ولا تجيبنى •

يا عبد غرت عليك فنهيتك •

يا عبد لا أكون أنا المنتهى حتى ترانى من وراء كل شيء •

يا عبد لا تسكر بسواى تكن عارفا •

يا عبد ليس بينى وبينك بين •

ليس بينى وبينك أنت ـــ فانظر الى فانى أحب أن أنظر اليك •

يا عبد اهدم ما بنيته بيدك قبل أن أهدمه بيدى •

يا عبد ميعاد ما بينك وبين أهل الدنيا أن تزول الدنيا فترى أين أنت وأين أهل الدنيا •

يا عبد نم وأنت ترانى أتوفك وأنت ترانى •• تستيقظ وأنت ترانى أحشرك وأنت ترانى يوم الموت يوم العرس يوم الخلود يوم الانس •

يا عبد قل فى ندم ربى الناظر الى فكيف أنظر الى ما سواه •

يا عبد اذا تحققت بسرك لعلمت بأنك منى وأنك تلينى وكل شيء فى الوجود يأتى بعدك ••

لا شيء يقدر عليك اذا عرفت مقامك ولزمت مقامك •• فانت أقوى من الأرض والسماء أقوى من الجنة والنار أقوى من الحروف والأسماء •• أقوى من كل ما بدا فى دنيا وآخرة •• ولا مستقر لك الا عندى حيث لا حيث وعند لا عند •

« خطـر اللســان »

« عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال :

« عن أبى هــريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت » .

* * *

وفى بيان أن اللسان قائد الأعضاء فى الاستقامة والاعوجاج .

أخبر النبى ﷺ فيما رواه عنه أبو سعيد الخدرى رضى الله عنــه أنه « اذا أصبح ابن آدم فان الأعضاء كلها تكفر اللسان ، فتقول : اتق الله فينا ، فانما نحن بك فان استقمت استقمنا وان اعوججت اعوججنا ».

* * *

قل « ربى الله ثم اســتقم » .

* * *

وأول ما ذكره النبى ﷺ لعقبــة بن عامــر رضى الله عنه فى بيــان النجاة هو : امسك عليك لسانك .

* * *

ما النجاة ؟ قال : امسك عليك لسانك ، وليسعك بيتك وابك عــلى خطيئتك .

* * *

القــول على الله بــلا عــلم

* * *

« قل انما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغى بغير الحق وان تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وان تقولوا على الله ما لا تعلمون » .

* * *

وقال تعـــالى :

« يا أيها اللذين آمنوا اتقو الله وقولوا قولا سديدا يصلح لـــكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما »

* * *

قال تعالى :

« يا أيها اللذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتا عنـــد الله أن تقولوا ما لا تفعلون » .

* * *

« يا أيهـــا الذين آمنـــوا اتقو الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما »

* * *

ان العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعـــالى ما يلقى لها بالا ، يرفعه الله بها درجات وأن العبد ليتكلم بالكلمـــة من سخط الله تعـــالى لا يلقى لها بالا يهوى بها فى جهنم .

* * *

أشارت بطرف العين خيفة أهلها

اشـــارة محـــــزون ولم تتكلم

فأيقنت أن الطرف قد قال:مرحبا

وأهـــلا وســـهلا بالحبيب المتيم

* * *

ان الكلام لفى الفـــؤاد وانمـــا

جعل اللسان على الفؤاد دليلا

* * *

قال : « ان نفس الانسان اذا اتسخت ، كان كلامه فى حاجة الى أن يغسل بالماء والصابون » .

* * *

فليست « الكلمة » الا تعبيرا عن موقف القلب وبيانا لحالة الروح واعرابا عن ذات الضمير .

* * *

قال تعالى : « ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفروعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين باذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت فى الأرض ما لها من قرار يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا والآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء » .

* * *

فى ظل الشجرة الثابتة مثلا للكلمة الطيبة :

(يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة)

* * *

« ان العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ، لا يلقى لها بالا ، يرفعه الله بها درجات ، وان العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقى لها بالا يهوى بها فى جهنم » .

* * *

« وفى حديث أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« مررت ليلة اسرى بى قوم تقرض شفاهم بمقاريض من نار ، فقلت : من هؤلاء يا جبريل قال خطباء أمتك الذين يقولون ما لا يفعلون »

* * *

قال « كان النبى ﷺ اذا صلى صلاة أقبل علينا بوجهه فقال من رأى منكم الليلة رويا قال فان رأى أحد قصها فيقول ما شاء فسألنا يوما فقال : هل رأى أحد منكم رويا قلنا لا قال : لكننى رأيت الليلة رجلين أتيانى فأخذا بيدى فأخرجانى الى الأرض المقدسة فاذا رجل جالس ورجل قائم بيده كلوب من حدود قال بعض أصحابنا عن موسى بن اسماعيل كلوب من حديد يدخله فى شدقه — حتى يبلغ قفاه ، ثم يفعله

بشدقه الآخر مثل ذلك ، ويلتئم شدقه هـذا فيعود فيصنع مثله لقت : ما هذا ؟ قالا انطلق » ٠

ثم تعددت المرائى ، وجاء التأويل قال ﷺ « قلت طوفتمانى اللينه فأخبرانى عما رأيت قالا نعم ، أما الذى رأيتـه يشدقه كذاب يحـدث بالكذبة فتحمل عنه حتى تبلغ الآفاق ، فيصنع به ما رأيت الى يوم القيامة»

* * *

وفى رواية للبخارى : « فاتينا على رجل مستلق لقفاه ، واذا آخر قائم عليه بكلوب من حديد واذا هو يأتى احد شقى وجهه فيشرشر شدقه الى قفاه ، ومنخره الى قفاه ، وعينه الى قفاه ثم يتحـول الى الجـانب الآخر فيفعل به مثل ما فعل بالجانب الأول ، لما يفرغ من ذلك الجـانب حتى يصح الجانب كما كان ، ثم يعود عليه فيفعل ما فعل فى المرة الأولى»

وفى تأويلها : وأما الرجل الذى أتيت عليه بشرشرة شدقه الى قفـاه ومنخره الى قفاه وعينه الى قفاه ومنخره الى قفاه وعينه الى قفـاه ، فانه الرجل يعدو من بيته فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق ٠

* * *

اللهم انا نسألك أن تطهر ألسنتنا من الكذب ، وأن تعصمها من آفات اللسان كلها وأن تنطقها دوما بذكرك ، وأن تشغلها أبدا بطاعتك انك على كل شىء قدير ٠

ظلموا التماسيح وظلموا المرأة ٠ فلا التماسيح ولا المرأة دموعهـا زائفة ٠ فقد يرى البعض أنها ضعف ولكنها فى أكثر الأحيان قوة وقـدرة على التعبير ٠

أدعية تستخدم فى المراقعــة

اللهم انى أسألك ايمانا دائما •• وأسألك قلبا خاشعا •• وأســألك علما نافعا •• وأســألك يقينا صادقا •• وأسألك دينا قيما •• وأســألك العافية من كل بلية وأسألك تمام العافية •• وأسألك دوام العافيــة •• وأسألك الشكر على العافية •• وأسألك الغنى عن الناس •

* * *

ـــ اللهم لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين •

ـــ اللهم انى أعوذ بك من العجز والكسل وأعــوذ من الهم والحزن وأعوذ بك من البخل والجبن وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال •

ـــ سبحان الله والحمد لله والله أكبر ولا اله الا الله ولا حــول ولا قوة الا بالله العلى العظيم •

ـــ اللهم انى أعوذ بك من عذاب جهنم ومن عذاب القبر ـــ اللهــم أدخلنى مدخل صدق ـــ وأحشرنى مع الصديقين •

ـــ اللهم انى أعوذ بك من أن أفتن وأعوذ بك من كيدهن ـــ اللهــم أدخلنا جنتك يا أرحم الراحمين •

ـــ لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير •

ـــ رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى رب وتقبل دعاء •

ـــ قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شىء قدير •

رحمن الدنيا والآخرة تعطيها من تشاء وتمنعها من تشاء • ارحمنى رحمة تغنينى بها عن رحمة من سواك •

* * *

وقلما كان رسول الله ﷺ يقوم من مجلس دون أن يدعو بهذه الكلمات :

ـ اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك .. ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا .. اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا . واجعله الوارث منا ، واجعل ثأرنا على من ظلمنا ، وانصرنا على من عادانا ، ولا تجعل مصيبتنا فى ديننا .. ولا تجعل الدنيا أكبر همنا .. ولا مبلغ علمنا .. ولا تسلط علينا من يخافك ولا يرحمنا .

« دعاء آدم عليه الصلاة والسلام »

(اللهم انك تعلم سرى وعلانيتى فاقبل معذرتى وتعلم حاجتى فاعطنى سؤلى وتعلم ما فى نفسى فاغفر لى ذنوبى) .

(اللهم انى أسألك ايمانا يباشر قلبى ويقينا صادقا حتى أعلم أنه لن يصيبنى الا ما كتبته والرضا بما قسمته لى يا ذا الجلال والاكرام) .

اللهم انى أسألك موجبات رحمتك ، وعزائم مغفرتك ، والسلامة من كل اثم ، والغنيمة من كل بر ، والفوز بالجنة والنجاة من النار .

اللهم لا تدع لنا ذنبا الا غفرته ، ولا هما الا فرجته ، ولا حاجة من حوائج الدنيا هى لك رضا ، الا قضيتها برحمتك يا أرحم الراحمين .

ـ سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العزيز الحكيم .. أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين .

ـ سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العزيز الحكيم .. أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين .

ـ ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ..

ـــ ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقداما وأنصرنا على القوم الكافرين •••• غفرانك ربنا واليك المصير •

ـــ ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينـا اصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا لعى القوم الكافرين •

ـــ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت الوهاب •

ـــ ربنا اغفر لنا ذنوبنا واسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنـا وانصرنا على القوم الكافرين •

ـــ ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار •• ربنا انك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار •• ربنا اننا سـمعنا مناديا ينادى للايمان أن آمنوا بربكم فآمنا ••

ـــ ربنا فأغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار •• ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزا يوم القيامة انك لا تلخف الميعاد•

ـــ ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين •• ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفا مسلمين •

ـــ ربا لا تجعلنا مع القوم الظالمين •• ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين •

ـــ رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاء •• ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشدا •

ـــ رب اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى:• وأحلل عقدة من لساني يفقهوا قولى ••• رب زدنى لعما •

ـــ لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين •• رب لا تذرنى فردا وأنت خير الوارثين •

— ربنا آمنا فاغفر لنا وأرحمنا وأنت خير الراحمين •• رب اغفر وأرحم انك أنت الأعز الأكرم •

— ربنا اصرف عنا عذاب جهنم أن عذابها كان غراما • انها ساءت مستقرا ومقاما •

— ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين وأجعلنا للمتقين اماما •

— رب انى ظلت نفسى فأغفر لى ••• رب نجنى من القوم الظالمين •• رب انصرنى على القوم المفسدين •

— وأفوض أمرى الى الله ، ان الله بصير بالعباد • ربنا اكشف عنا العذاب انا مؤمنون •

— رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه واصلح لى فى ذريتى •

— ربنا أغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا • ربنا انك رؤوف رحيم •

— ربنا عليك توكلنا واليك أنبنا واليك المصير ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا انك أنت العزيز الحكيم •

— ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا انك على كل شىء قدير •

أسماء الله الحسنى

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم • بسم الله الرحمن الحيم : اللهم انى أتوجه اليك بأسمائك الحسنى •• يا من هو (الله الذى لا اله الا هو، الرحمن ، الرحيم ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، الخالق ، البارىء ، المصور ، الغفار ، القهار ، الوهاب ، الرزاق ، الفتاح ، العليم ، القابض ، الباسط ، الخافض ، الرافع ، المعز ، المذل ، السميع ، البصير ، الحكم ، العدل ، اللطيف ،

الخبير ، الحليم ، العظيم ، الغفور ، الشكور ، العلى ، الكبير ، الحفيظ ، المقيت ، الحسيب ، الجليـل ، الكريم ، الرقيب ، المجيب ، الواسـع ، الحكيم ، الودود ، المجيد ، الباعث ، الشهيد ، الحق ، الوكيل ، القوى ، المتين ، الولى ، الحميد ، المحصى المبدى ، المعيد المحيى ، المميت ، الحى ، القيوم ، الواجد ، الماجد ، الواحد ، الصمد ، القادر ، المقتدر ، المقدم ، المؤخر ، الأول ، الآخر ، الظاهر ، البـاطن ، الوالى ، المتعـال ، البر ، التواب ، المنتقم ، العفو الرؤوف ، مالك الملك ، ذو الجـلال والاكرام ، المقسط ، الجامع ، الغنى ، المغنى ، المانع ، الضار ، النـافع ، النـور ، الهادى ، البديع ، الباقى ، الرشيد ، الصبور) •

(ثناء عقب أسماء الله الحسنى)

(الذى تقدست عن الأشياء ذاته ، وتنزهت عن مشابهة الأمثـال صفاته ، واحد لا من قله ، موجود لا من علة بالبر معـروف وبالاحسان موصوف ، معروف بلا غاية ، موصوف بلا نهاية ، أول بلا ابتداء ، وآخر بلا انتهاء لا ينسب اليه البنون ، ولا يفنيه تداول الأوقات ولا توهنـه السنون ، كل المخلوقات قهر عظمته وأمره بالكاف والنون ، بذكره أنس المخلصون وبربوبيته تقر العيون ، وبتوحيده ابتهج الموحدون هدى أهل الطاعة الى صراط مستقيم ، وأباح أهل محبته جنات النعيم ، وعلم عدد أنفاس المخلوقات بعلمه القديم ، ويرى حركات أرجل النمـل فى جنـح الليل البهيم ، يسبحه الطائر فى وكره ، ويمجده الوحش فى قفره ، محيط بعمل العبد سره وجهره ، كفيل المؤمنين بتأييده ونصره ، وتطمئن القلوب الوجلة بذكره وكشف ضره ، ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره أحاط بكل شىء علما ، وغفر ذنوب المسلمين كرما وحلما : ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ، اللهم اكفنا السوء بما شئت وكيف شئت انك على ما تشاء قدير يا نعم المولى ونعم النصير •

غفرانك ربنا واليك المصير ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم

سبحانك لا نحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك جل وجهك : وعز جاهك ، تفعل ما تشاء بقـدرتك ، وتحـكم ما تريد بعزة يا حى يا قيوم يا بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والاكرام •

المطلب الثـالث

ختـام المرافعـة

ان الخاتمة فى الحقيقة هى أكثر النقاط استراتيجية فى فن المرافعة فما يقوله الانسان فى النهاية هو ما يبقى يرن فى الآذان وعالقا بالذهن • ولأهميتها فان الخطباء المشهورين يقروا أنه من الضرورى كتابة وحفظ الكلمـات المناسبة فى ذهنهم • وقد تـكون الخاتمة طويلة الى حـد ما كما قد تكون بها مقتطفات شعرية • ويجب أن تكون الخاتمة واضحة مثل طلب براءة المتهم أو الحكم عليه بأقصى العقوبة ومن أهم شروط الخاتمة ما يلى :

١ ــ ألا تكون بعيـدة عن الموضـوع ولا مجـددة لأدلة أو آراء جديدة •

٢ ــ أن تكون قوية فى تعبيرها وأيضا فى القائها •

٣ ــ أن تكون قصيرة لعى نحو ما وتكون حاسمة ومشوقة •

ومن أمثلة الختام الجيد فى المرافعات :

« أنتـم قضـاة الحق وأيضـا مربو الخلق وكلمة العدل التى بهـا تنطقون يتجاوب صداها فى نفوس ناشئة ونفوس ثائرة ونفـوس فزعة حائرة فاجعلوا حكمكم رسالة عدل وبلاغ عبرة وبشرى سلام فاذا جنحتم

الى الرحمة فاشملوا بها النشىء وقد أوشك أن يلتوى والبلاد وقد دب فيها ذلك الداء الوخيم ٠

أنتـــم أطباء النفس كمـــا انكم قضـــاة العـــدل والطبيب البصير لا يتردد ولا ينى عند الضرورة الحاكمة والقضاء الحازم يهذب بالزجـــر الحكيم ٠

وازنوا بين روعة الرحمة وقد حلت بالبلاد وبالنشىء وبين ضدتها ان هى لحت بهذا المجرم العتيد ثم اقضوا قضـــاءكم والله معكم انه نعـــم الهادى ونعم النصير ٠

مستلزمات الرأفة فى ختام المرافعة :

ان ختام المرافعة قد يستلزم الرأفة ٠ الأمر الذى يحســـن معـــه طلب استعمال منتهى الرأفة واستخدام الرحمة مع المتهم ٠

الفصل الثالث

أحــــكام المرافعـــــة

تـهيــد وتقســيم :

سنعرض فى هذا الفصل للأحكام العــامة فى المرافعة أمام القضاء الجنائى فى ثلاث مطــالب على أن نوضــح فى المطلب الأول للارتجال فى المرافعة وفى المطلب الثــانى نتناول مقــدمات المترافع الناجح ونخصص المطلب الثالث لدستور المرافعة .

المطلب الأول

(ارتجــال المرافعـــــة)

لقــد جرت العادة على تقسيم المرافعـــة الى مقــدمة أو تمهيــد ثم عرض للموضوع يليه المناقشة وهى لب المرافعة وجوهرها .

وخرج البعض على هذه العــادة فلم يأبه بالمقــدمة ولم يقســم المرافعة الى قسميها التقليديين ــ العرض والمناقشة ــ انما كان يسوق الوقائع ويناقشها معا حتى اذا انتهى من السرد سقطت أدلة الخصــم من نفسها ، والمحامون يــكونوا مستعدين عند قبول الوكالة لأن يلاقوا وهم يؤدون واجبهم من العقبات والأخطار ما يلاقيه الجنود فى الميدان من طوارىء ومفاجآت .

وقيل أن المرافعـــة تمثــل العدسة التى تكشف القــاضى التعاريج والمنحنيات الدقيقـــة التى يعتمــد عليهــا الخصــوم فى تكييف المنازعة

وتوجيهها نحو مصلحتهم . والقاضى مهما كان ذكيا فطنا أو مهما توافر وقته لبحث الخصومة المعروضة عليه فى حاجة لذلك المنظار يساعده على ملاحظة تلك الوقائع ، وقد تكون من أهم النقط التى توجه تقديره لمصلحة أحد المتخاصمين فيقضى له ، ولولا اكتشافها لقضى للخصم الآخر . ويتعين أن يركز المحامى وينتبه حتى لا ينسى أو يقدم نقطة على أخرى ، وأن يكون ثابتا لا يهتز أو يضطرب اذا فوجىء بما ليس فى الحسبان ، صبورا موطدا النفس على سعة الصدر مهما تعرض للمقاطعة .

وأخيرا فان المحامى يستعمل قوة حجته وسلامة منطقه وجزالة عبارته وسحر شخصيته وشحذ كل حواسه للوصول الى عقل ووجدان قاضيه .

الأسلوب واللغة :

ليس ضروريا أن تكون كل المرافعة بألفاظ مقعرة وباللغة العربية الفصحى ولكنه يتعين الجمع بين الاثنين بحيث يستطيع المحامى أن يدفع الملل والرتابة بعيدا عن قاضيه .

وقد كان الهلباوى يتكلم الفصحى فيفوق فقهاء اللغة ولكن الرجل محام بطبيعته وسليقته فهو يعرف أن العربية الصحيحة ماتزال اليوم لغة صعبة ، وأنها ماتزال تجهد المخاطب والمخاطب .

للدفاع كامل حريته :

فالمحامى يقف غالبا ليدفع عن متهم أحاطته النيابة والبوليس بسياج متين من الأدلة والبراهين ، وأحاطه الرأى العام وصحفه بجرائده بحكم قاس سبق به حكم القضاء . وليس للمتهم الأعزل الا ذلك الرجل الذى وقف علمه وفضله ولسانه على الدفاع عنه ، فان

نحن ضيقنا عليه الخناق وحاسبناه على كل لفظ يفلت منه أو تعبير يسبق به لسانه لم نمكنه من أداء واجبه • فحرية الدفاع ملك للمحامين ، وأعطيت لهم للمصلحة العامة ، لمصلحة المواطنين جميعا ، وليس لأحد أيا كان أن يعتدى عليها •

ولقد وقف محام فرنسى مشهور يترافع فى قضية ، فنسب الى النائب المترافع أنه قد لجأ فى مرافعته الى استغلال الشهوات الضارة وأن هذا ليس بالأمر الحسن ، فعد قوله هذا مخالفة تأديبية وحوكم من أجلها ، وكان دفاعه عن نفسه أن قال : « أما شخص النائب المترافع فمنفصل عن مرافعته كل الانفصال ، فشخصه محل اجلالى واحترامى ، ولا أبيح لنفسى أن أهاجمه ، ولكنى أهاجم مرافعته ، فهى ملكى ومن حقى أن أمزقها اربا وأن أطأها بقدمى » وقد أدانته محكمة الاستئناف بباريس وقالت أن من حق المحامى أن يدافع عن موكله ولكن ليس من حقه أن يهاجم • فردت عليها محكمة النقض بأنه لا دفاع بغير هجوم أننا اذا ألزمنا المحامى أن يقيس ألفاظه ومعانية ، وأن يخشى ما قد يعطى لها من تفسير لم يقصده وأن يرهب ما قد تؤدى اليه من معان لم تخطر له ببال فاننا نكون قد قضينا على كل مرافعة ارتجالية ، وأطفأنا جذوة البلاغة القضائية ، لأنه لا مرافعة بغير ارتجال •

حرية المرافعة (حرية الدفاع)

ولقد حرص المحامون دائما أن يكونوا أحرارا فى مرافعاتهم مشتغلين فيما يختطونه من خطة ولا يخضعون لتوجيه أيا كان مصدره • فلا هم خاضعون لتوجيه القاضى ولا لتعليمات صاحب القضية بل مؤدون رسالتهم بما يملى عليهم ضمائرهم لا يرهبون أحدا ماداموا لا يعتدون على أحد الا اذا اعتدى عليهم وما لهم اعتداء الا بالقدر الذى يتطلبه الدفاع •• فاذا أحس بضغط من أى نوع كان تعثرت كلماته وضعفت حجته وفقدت

آراؤه جرأتها وانطلاقها ولولا حرية الدفاع لضاعت الحقيقة بين الناس اذ لا تجد من يعبر عنها ومتى ضاعت الحقيقة ضاعت العـدالة التى هى أساس الحكم وبغيرها تسود الفوضى ولا يقوم نظام • والمحـامون هم أساس ذلك النظام وهم روح العدالة واذا كانوا لا يكتبون الأحكام فانهم يعـدون لهـا ببحوثهم ومرافعاتهم فيقـدمون للقضاء المادة الأوليـة لصناعته (! ؟) •

وأولى مميزات المترافع الجيد هو التواصل بحيث يشعر القاضى أن هناك رسالة موجهة من ذهن وقلب المحامى الى ذهنه وقلبه • ويجب أن يكون الالقاء بالأسلوب الطبيعى حتى ليخيل للمستمع أنك قد وضعت فى مرافعتك حتى تصبح محاميا محترفا من الطراز المترافع لأن الناس تتجمع حول المحامى المفعم بالطاقة أو مولد الطاقة البشرى صاحب الابتسـامة الساحرة الذى يجعل الآخرين فى حالة استجابة دافئة له دائما عنـدما يجعل مرافعته له طبيعية كالحديث الودى الدافىء الجميل الممتلىء حيوية وصـدقا •

وعند بداية المرافعة لمخاطبة القاضى فيحسن ألا تبدأ بالعجل فتلك سـمات المبتدئين بل تنشق نفسا عميقا وتطلع الى قاضيك للحظة واحدة وان كانت هناك ضجة فى ساحة المحكمة فترقب قليلا حتى تزول ثم ابدأ مرافعتك كما تريد بكل تلقائية وابعث فيها الحياة بكلماتك المضيئة •

فقد تكون المرافعة جيدة الأفكار وحسنة العبارات والأسـلوب ، ثم لا تظفر بالقاء جيد فتضيع فائدتها أذ لا يفهمها السامعون ولا تجذب انتباههم ، وقد تكون أقل من ذلك فى اعدادها ولكن جودة القـائها تنمى الى السامعين كل جزئية منها ، فتكون فائدتها أكبر وأكثر •

الالقاء الجيد له قواعد من أهمها ما يلى :

١ — جهارة الصوت وقوته .

٢ — حسن مخارج الحروف وتميز أجزاء الكلمة .

٣ — تلوين الصوت وتكييفه ، فيجهر المحامى مرة ويعلو صوته ويلين مرة أخرى حتى يكون كلامه هامسا كما يسرع فى جملة ويمد صوته فى أخرى ولابد أن يميز لهجة الاستفهام من لهجة الخبر وهكذا لا يستحسن لهذا أن تكون المرافعة مكتوبة ولا محفوظة ولكن على المحامى أن يعد عناصر مرافعته والأفكار التى يريد نقلها ثم يعبر عنها بطريقته ، وهذا يتوقف على مقدرة المحامى الكلامية ومحصوله اللغوى ومحفوظاته الأدبية كما يتوقف على حسن تفكيره وقدرته على تحليل موضوعه .

٤ — لابد من جودة الالقاء من الاشارات باليد أو بغير اليد أيضا فان هذه الاشارات مما يوضح المعنى ويثبت أثره فى مسامعه ، وفى هذا يقول الجاحظ : « والاشارة واللفظ شريكان . ونعم العون له ونعم الترجمان هى عنه وما أكثر ما تنوب عن اللفظ وتغنى عن الخطأ » فالمحامى الذى لا يكون متأثرا بكلامه يفقد أهم صفات المحامى المؤثرة .

أما من ناحية التدريب على الالقاء فلابد لمن يعد نفسه لهذه المهمة أن يمارسها مرات عديدة وأن يمرن نفسه عليها فى وحدته وبين رفاقه المتدربين حتى يحرز فيها تقدما . هذا كما أنه لابد من التكوين الأدبى بكثرة المحفوظات الأدبية خطبا وشعرا وكتابة مع الدرس التاريخى والتثقيف العام والقراءة المستمرة حتى لا يكون ذهن المحامى راكدا . وهذا ما يفيد المترافع فى الحالات التى يتعرض فيها للارتجال .

فليست المرافعة غزارة علم أو زخرف كلام ، انما حياة الدفاع فى

طريقة عرضه وحسن اختيار الأدلة ودقة ترتيبها وفى تصـوير الدعوى والرد على أوجه دفاع الخصوم وخير المترافعين هو الذى يستطيع أن يستقرىء ميول القاضى ويتابع تفكيره ويسبقه الى ما يقع فى نفسه من الخواطر والالهامات مما يؤدى الى المزاوجة بين طرق الاقناع والاقتناع التى من شأنها أن يتبعها قبول حسن من القاضى لرسول صاحب الحق .

وتقـوم المرافعة على الاسناد القانونى والتدليل المنطقى وقـرع الحجة بالحجة وقوة البيان وثبات الجنان والاستعانة — بقدر — بالتأثير العاطفى لاستدرار عطف القاضى أو اثارة غضبه حسبما يتراءى للمدافع مع وجهة نظره .

ويتعين أن يكون المترافع يقظا حاد الذهن واسع الصدر والحيـلة عند استجواب المتهمين أو مناقشة الشهود لحماية موكله — ومحـاصرة الملفقين وشهود الزور حتى تظهر الحقيقة فينكشف البطلان ويتحصـل على البراءة .

والارتجال فى المرافعة هو قمة البلاغة القضائية ولا توجد مرافعة بغير ارتجال ويعتمد الارتجال بالدرجة الأولى على حضور البديهة التى هى بطبيعتها هبة من عند الله لذلك يلجأ الكثيرون ومنهم بعض الكبار الى كتابة مرافعاتهم قبل الجلسات بلغة المرافعة وهى لغة تختلف فى طبيعتها وأسلوبها عن لغة المذكرات التى تكتب لتقرأ فيضع المترافع لنفسه فى هذه المرافعة التى تبدو طبيعية تصورا للدفاع لا يحيد عنه ثم يقوم بالتخديم عليه أثناء المرافعة بما يناسب الحال من رصيده المختزن من المقـدمات أو النهايات المرتجلة .

والخطباء وخصوصا المحامين يحتاجون الى حضور البديهة ، وسرعة الخاطر ، وربما سنحت للمحامى كلمة من خصمه لم يكن يتوقعها ولكنـه يتصيدها بسرعة ويبنى عليها مرافعته ولا تستغنى البديهـة الحادة عن

ذخيرة الثقافة والمحصول الأدبى فالارتجال هو موهبة الاختراع فى شكله الأكثر بدائية • انه فن التبارى مع المفاجىء والطوارىء ، والافادة من الظروف الغير متوقعة • على الشاب الذى يود النجاح أن يتعلم ممارسة هذا الفن الى درجة يصبح معها رد فعل ، بحيث يكون فكره حاضرا دائما وغير مضعضع البته عندما يجد نفسه فى موقف لم يواجه مثله من قبل ويمثل الارتجال دورا كبيرا فى المحاكم • وهو ذو أهمية فائقة فى فن تحقيق النجاح فى الحياة العملية والتجارة •

طريقة الارتجال

وعلى المحامى أن يكون دارسا تماما لموضوعه وأن يضع فى ذهنه أو على ورقة ما النقاط التى يقوم بالتحدث فيها •• وما عدا ذلك يكون خطابه كله مرتجلا وعليه أن يحظى بالدقة ونوع الأسلوب الذى يستعمله لو أراد كتابة مقال مجلة وبهذا الثمن وحده يستطيع أن يشترى ذلك الاحساس التلقائى والاستجابة الطبيعية بالشعور والمساواة بينه وبين سامعيه •

فالعيوب المزعومة التى تنسب الى الخطاب المرتجل هى فى الواقع من صور جاذبيته فالجمل الاعتراضية التى تتضمنها والفواصل والعبارات الغامضة والتكرار كلها ذات تأثير فعال مادامت النقاط موجودة فيه ومادام ذلك المحامى قادرا على أن يوجه حربته أثناء المرافعة الى حبل الوريد •

عدم ارهاق المحكمة

ما من محكمة تستطيع الاصغاء لرجل بانتباه أكثر من ساعة واحدة فلا تكثر من الاستمرار فى الكلام اذا كان ذلك يرهق المحكمة فاذا لم يكن قد أثقل على المحكمة فليتحدث بالقدر اللازم لشرح جميع النقاط الأساسية

فى القضية وهنا يجب على المرء أن يحرص على العمود الفقرى فى القضية فلا يحيد عنه الى الضلوع المتفرقة منه وبالتالى يجب على المحـامى أن يشعر وأن يجعل المحكمة تشعر لا لأن موكله محظوظ لأنه اختاره كمحام بل أنه هو المحظوظ لوقوع اختيار موكله عليه للدفاع فى قضيته .

عند الالقاء يجب ملاحظة النقاط الآتية :

١ — شدد على الكلمات المهمة واخفض على غير المهمة .

٢ — غير طبقات صـوتك .

٣ — توقف قبل وبعد الأفكار المهمة .

٤ — غير معـدل سرعة صوتك .

فالموهبـة حضـور وشخصية .

فالناس تعجب بالمحامى المطعم بالطاقة حول مولد الطاقة البشرى صاحب الابتسامة الساحرة ولذلك فانه يجب أن تجعل خطابك للمحكمـة كالحديث — طبيعيا — عندما تنهض لمخاطبة المحكمة .

ولن تستطيع أن تجعل القاضى يتفهم موضوعك الا عندما تفهمـه أنت وكلما اتضح الموضوع فى ذهنك كلمـا استطعت تقديمه بوضـوح فى ذهن القاضى . استخدم أمثلة عامة ووقائع محددة وأحاديث قدسية والقرآن الكريم ويجب استخدام الكلمات التى ترسم الصـور مثل كلمة الضوء وحفظ بعض الأقوال المأثورة هو جـواز السـفر للوصـول الى المحكمة .

وتحسين الأسلوب :

فالمحامى يقاس من خلال حديثه ومرافعته ويجب محاولة صقل التعبير والتحدث بأسلوب جيد بعدم خرق قواعد اللغة وازعاج الأذان حيث يوجد محام موهوب منحته الطبيعة هبة تأليف الكلمات ومن هؤلاء تأتى أروع الخطب •

المطلب الثانى

مقومات المترافع الناجح

لا شك أن الخطابة منصب خطير ومرتقى صعب المنال ، لا يصل اليها طالبها بيسر بل يحتاج مبتغيها الى زاد عظيم وصبر ومعاناة ، واحتمال المشاق ليصل الى تلك الغاية السامية •

والنبى ﷺ هو القدوة لكل ناصح وخطيب ، فمهما اقتدى الخطيب بهدى النبى ﷺ نال من النجاح بقدر موافقته وتوفيق الله عز وجل له •

قال الجاحظ : أوتى ﷺ المهابة ، وغشى الله كلامه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ، فلم تسقط له حجة ، ولم تعثر له كلمة ، ولم يغلبه خصم وانما أوتى جوامع الكلم ﷺ • كما قال أحمد شوقى :

فاذا خطبت فللمنابر هزة تعرو الندى وللقلوب بكاء

وتاريخ المرافعة القضائية يرتبط بلا ريب بتاريخ انشاء القضاء ولكن المرافعة نشأت قبل القضاء لأنها نوع من المحادثة ومخاطبة البشر كما أن نجاح المحامى وفشله يرجع الى أمرين رئيسيين : جودة المعلومات التى يقدمها أو ضحالتها ، وحسن القائه أو ضعفه فالمحامى المطلع الذى

يمد القاضى بمعلومات جديدة غير الذى يكرر معلومات يعرفها السامعون والـذى يلقى مرافعته بطريقة فنية ، معبرة موحية ، غير الـذى يسرد المعلومات سردا وفن الخطابة هو فن مخاطبة الجماهير بطريقة القائيـة تشتمل على الاقناع والاستمالة • فمن الخطباء من يكون فاتر الالقـاء ضعيف التأثير فتضيع أدلته الكثيرة المقنعة هباء • ومنهم من يأتى بأدلة أقل أو أضعف ولكنه يثير عواطف السامعين ويلهب مشاعرهم فيتحمسون لتنفيذ فكرته ويحاول كل واحد منهم أن يعمـل على تحقيق شىء منهـا بقدر طاقته •

ومن سمات الأسلوب الخطابى وضوح العبارات وظهـور معانيها بحيث يكون الغرض الذى يهدف اليه مفهوما للسامعين • وبعض الخطباء يجعل خطبته كلها باللغة العامية وهذا خطأ كبير فاللغة الفصحى لها جمالها وتأثيرها حتى على العامة واستعمال العامية أو الاكثار منها يفقد الخطبة هذا التأثير ثم ان بين المستمعين مثقفين ، ولا يستريحون لهذا الأسلوب بل يؤذى شعورهم •

ولن يستطيع المحامى أن يجعل القاضى يفهم موضوعا ما الا عندما يفهمه هو وكلما اتضح الموضوع فى ذهنه كلما استطاع تقديمه بوضوح فى أذهان الآخرين ويفضل استخدام أمثلة عامة ووقائع محددة فى موضوع المرافعة • بحيث أن يعتمد المترافع على منح الحماس والاثارة وبحيث أن يقوم أيضا بتحسين أسلوبه فهو جواز المـرور الذى يدخله فى عـداد المحامين الناجحين لأن الفرد يقاس كل يوم من خلال حديثه بالاستخدام الدقيق والصحيح بحيث يصبح موهوبا بفن هبة تأليف الكلمات ليصـل الى أروع الخطب عن طريق سمة المحفوظات الأدبية من الشـعر والنثر ومأثور كلام العرب من الحكم والأمثال والوصايا هذا فضـلا عن حفظ الكثير من القرآن وحفظ الكثير من الأحاديث النبوية • ونجد المحامين فى المحاكم وأعضاء البرلمانات يستعينون بالآيات القرآنية والأحاديث فى تأييد وجهة نظرهم وفى رفع أسلوبهم الخطابى • وليس الغـرض من هـذه

المحفوظات هو الاستشهاد ولكن الغرض منها هو اللغة وسهولة التعبير .

وأيضا من أهم الشروط الجرأة والشجاعة والثقة بالنفس بما يقول ومن نصائح الأقدمين : انك لا تتعلم الخطابة حتى تتعلم القحة والمراد بالقحة عدم المبالاة بأى شىء يكون معارضا له ويرجع ذلك الى الجرأة وقوة الجنان ومن أمثلة ذلك :

أيها السادة الى هنا صفقتم وضحكتم لأن الرجل خدعكم بكلام معسول ولكن انظروا ههنا ما يستحق أن تتأملوه . ومع كل هذه الصفات السابق ذكرها فى التدريب العملى والاعداد النفسى لمواجهة الجمهور لابد له أن يتوقع الفشل مرات كثيرة شأنه فى هذا الشأن كل متعلم يسقط مرة أخرى حتى يتم تكوينه وتربيته ، وانك واجد فى تاريخ الخطابه أشخاصا كانوا يخطبون للمقاعد الخالية وأمواج البحر ولأشخاص وهميين وقد أجدى عليهم ذلك وأخرجهم خطباء متفوقين وممتازين .

ومن شروطه أن يكون عالما باللغة العربية . وبالأخص علم الانشاء كى يقتدر على تأليف كلام بليغ وتنسيق درر مضيئة بشرق نور أسرارها على أفئدة السامعين فيسحرهم ببديع لفظه ويختطف ألبابهم بجواهر آيات وعظه .

ومن شروطه أن يكون فصيحا منطلق اللسان معبرا عما يخطر بباله من المعانى الكامنة فى ضميره ويبرز ما انطوت عليه السريرة من جليل النصائح وجميل الارشادات .

ومن شروطه أن يكون وجيها تهابه القلوب وتجله العيون وتعظمه النفوس يهابه الصغير ويوقره الكبير حتى يكون لكلامه تأثير ويجد له سميعا يعى ما يقال ويعمل بما يسمع .

ومن شروطه أن يكون عالما بالقرآن والسنن والفروع واللغة العربية وأن يكون نبيها وسلاحه أدوات الكلام فلا يكون التغ ولا ألدغ ومن مقوماته دراسة أصول الخطابة وسعة الثقافة .

ومن أهم شروط المحامى المترافع أن يقوم بحفظ آيات من القرآن الكريم وحفظ الأحاديث القدسية والأحاديث والنبوية والامثال العامية والمواعظ والحكم والوصايا •

المطلب الثالث

دستور المرافعة

تمهيد وتقسيم :

نعرض لدستور المرافعة فى هذا المطلب على أن نوضح أولا الدستور الأساسى للمرافعة الجنائية ثم نوضح بعد ذلك دستور العمل على قهر الخوف الناشىء عن المرافعة بعد ذلك •

أولا : دستور المرافعة[1]

١ — لا ترتكن على مقدرتك الكلامية ، وبلاغتك فى التعبير ، بل أعدد قضيتك كما لو كنت لا تحسن الكلام •

٢ — الوضوح وحسن التعبير أفيد للمترافع من قوة الحجة • فلا قيمة للحجة اذا لم يحسن المترافع شرحها •

* * *

٣ — لا يكفى أن تلقى المرافعة واضحة مستوفية الحجج مرتبة ، بل يجب أن تعرف كيف تعالج قاضيك وتلعب على أوتار قلبه • فالعلم وحده لا يكفى ، وبلاغة التعبير وحدها لا تقنع • بل يجب تغيير طريقتك تبعا لحالة قاضيك النفسية • وعليك أن تروض نفسك على الاستفادة

---

(١) حسن الجداوى — اراء متناثرة عن مهنة الجبابرة — كنوز المحاماة المرجع السابق — ص ٣٤ •

بحوادث الجلسة ، وأن تدلى بحجتك فى الوقت المناسب ليزداد أثرها ، وأن تعرف كيف تهاجم حين يـكون الهجوم ضروريا ومفيـدا • ومتى تصمت حين يـكون الصمت أوقع ، ومتى تبتسـم ومتى تعبس ، ومتى تلجأ لتأثير العاطفة ، ومتى تتحـدث الى عقـل القاضى • **فكثيرا ما يكون التمثيل مكملا لصناعة المحاماة •**

***

التحمس والعناد فى سبيل كسب الدعوى يجب ألا ينسيا المحـامى أنه انما وكل فى الدعاوى ليحول دون ترك العنـان لشهوات الخصـوم ولددهم ، ولكيلا يدع مجالا لأصحاب القضايا فيعكروا على العـدالة صفوها • فكل لفظ ناب ، وكل اهانة ، وكل تعرض لأشخاص لا شـأن لهم بالدعوى ، أو ذكر لوقائع غير مجدية ، أو سب ، يجب على المحـامى الذى يحترم نفسه أن يتجنبه أداء لواجبه ، وتحقيقا للعدالة •

***

ان المحامى والقاضى والنـائب أقاليم ثلاثة تتـكون منهـا وحدة العـدالة • فاحترام المحـامى لقاضيه ولممثـل النيـابة ، والتزامه الأدب والنظـام والدقة ، انما هو احترام لنفسه • ولا يكون الاحترام فى المظهر الخارجى وحده ، بل هو احترام لرسالة العدالة المقدسة ، ولمن حملوا أمانتها ، فهو احترام عميق أصيل • وانما نما القضاء وسـيطر ، ومكن له ، وثبتت أحكامه ، على أصوات المحامين ، وبفضـل جهـودهم وبحوثهم •

***

٤ ــ لا تترفع للجمهور • ان حجتك تفقد الكثـير من قوتهـا اذا أحس القاضى انك لا تسعى لاقناعه بل تريد الظهور •

***

٥ — لا تهاجم قاضيك ولا تتملقه ٠

* * *

٦ — قد يترافع المحامى ساعتين ويكون مقلا ٠ وقد يترافع غيره خمس دقائق ويصبح مملا ٠

* * *

٧ — أقلل من السخرية ٠ واذا استعنت بها فكن حصيفا ، فان القاضى لا يسره أن تسليه على حساب خصومك ٠ ولكنه يتوقع منك أن تقدم اليه حججا مقنعة ، يستعين بها فى تركيز حيثيات حكمه على أرض صخرية صلبة ٠

* * *

٨ — اجتهد أن تستحوذ على انتباه قاضيك عند أول جملة تقولها ، ولخص موضوع البحث فى ألفاظ قليلة واضحة لتضمن أن يتابعك القاضى حتى نهاية مرافعتك ٠

* * *

٩ — ليس معنى حرية الدفاع أن تتحدث فى مسائل بديهية ، أو خارجة عن موضوع الدعوى ، أو تتعرض لأشخاص لا علاقة لهم بالدعوى ٠

* * *

١٠ — لا قيمة لحرية الدفاع اذا استعملها المحامى فى نشر المفتريات وجبن عن فضح المظالم ٠

* * *

١١ — تذكر وأنت تترافع أن الكلام الغامض عن وقائع واضحة يجعلها غير مفهومة ، فى حين أن الحديث الواضح عن وقائع غامضة يلقى عليه بصيصا من النور .

* * *

١٢ — ان كانت قضيتك ضعيفة فلن تستفيد شيئا من اخفاء نقطة الضعف فيها ومحاولة الدفاع عما لا يحتمل دفاعا . وخير لك أن تعترف بما لا سبيل الى انكاره ليسهل عليك اقناع قاضيك بقبول ما تريد اقناعه به ، **فان الاخلاص فى عرض الوقائع ومناقشة الأدلة هو سلاحك البتار .**

* * *

١٣ — معرفة الحقيقة شىء والتعبير عنها والاقناع بها شىء آخر . ان اقناع القاضى يتطلب — فضلا عن قوة التعبير — طريقته ، وذلك السر الخفى الذى لا يتمتع به الا القليلون ، وهو ملكة بث الثقة ، بل فرضها فرضا على السامعين .

* * *

١٤ — ابتعد عن تعبيرات الملق . **لا تطلب شيئا من (عدالة) المحكمة ، بل أطلب حقق من المحكمة نفسها . فان عدالة المحكمة ان كانت موجودة فهى فى غنى عن تملقك — وان لم تكن موجودة فلن يوجدها تملقك .**

* * *

١٥ — أولى خطوات الاقناع أن تكسب انتباه من تتحدث اليه . فان لم تفعل فان بلاغتك وقوة حججك وأسانيدك القانونية تذهب كلها هباء .

* * *

١٦ — احــرص على ادخال حجتك القوية الى الأذن غير منتظــرة الاذن كمــا يقولون • لا تقدم لهــا بقرع الطبول ، بل ســقها فى الوقت المناسب ، عندما تتبين أن الآذان والقول مهيأة لقبولها •

* * *

١٧ — اهتم بالجانب المظلم من قضيتك أكثر من اهتمامك بالجــانب المضىء • فالجانب السهل يتولى نفسه بنفسه •

* * *

١٨ — لا تحــاول نفى ما لم يثبته خصمك فتستكمل بذلك الحلقــة الناقصة من سلسلة أدلته •

* * *

١٩ — السباب ليس حجة أيا كان مصدره • والتوكيد ليس دليــلا أيا كانت قائلة • والصــوت المرتفــع لا يحل اقناعا • انما يأتى الاقناع اذا صــدر من القلب • فانما تأتى قــوة الرصــاصة من قوة البندقيــة التى تقذفها •

* * *

٢٠ — لا ينحصر فن المحامى فى اعداد أفضــل الأسلحة ليستعملها فى المعركة ، بل فى معرفة كيف يستعملها وخاصة متى يستعملها •

* * *

٢١ — ساير قاضيك فى طريقــة تفــكيره هو ، لا فى الطريقة التى تعتقد أن يجب أن يفكر بها ، فمهمتك أن تجعل القــاضى يقتنع بحجتك ويحكم لك ، لا أن تبين السامعين أنك مصيب وأن قاضيك مخطىء •

* * *

٢٢ — ابدأ مرافعتك دائما فى هدوء وتواضع • واسترسل فيها حتى تعـد آذان القضـاء لسـماع صرخات غضبك أو استهجانك طبيعيـة وموضوعية ، فلا يستكثرها أحد ولا يسهجنها • أما الصراخ منذ البداية، والصوت الغاضب قبل أن يدرك السامعون له سببا ، فانه ينفـرهم بدلا من أن يسترعى اهتمامهم •

* * *

٢٣ — من الخـير أن تسأل نفسك من أين تبدأ مرافعتك ، ولـكن الأفضل أن تعرف متى وكيف تنتهى منها • فان الاطالة ضارة ، والتكرار أضر ، واملال القاضى أسوأ وقعا منهما •

* * *

٢٤ — يجب أن يكون الدفاع كاملا والا كان بلا جدوى • كالحرف الأبجدى لا قيمة له الا بالأحرف المكملة للكلمة •

* * *

٢٥ — القاضى ومحامى الخصم وممثل النيـابة وشـهود الدعوى يخضعون جميعا للمحامى الملم بقضيته • اذا خسر دعواه — كمـا لابد أن يحدث أحيانا — فانما يخسرها وهو مقتنع بأنه يضعف أمام القاضى ، ولا تغلب عليه محامى الخصم ، وانه انما خسر دعواه لأن العدالة اقتضت ذلك ••• أو لسوء حظ موكله ••• ولكنه يستطيع أن يخرج من الجلسة رافعا رأسه ، راضيا عن نفسه ••• لأنه لم يقصر فى أداء واجبه •

* * *

٢٦ — ابتعد عن الخطأ ، فالوقوع فيه سهل ، والتخلص منه صعب•

* * *

٢٧ — اذا تبادل قضاتك الحديث أثناء مرافعتك ، فافترض أنهـم

يتبادلون الرأى فى قضيتك • فـــلا تغضب ولا تظهر استياء بل توقف عن المرافعـــة ودعهم يصلوا الى رأى فى الحجة التى كنت تدلى بها ثم أعـــد عرضها مصقولة فى ثوب جديد •

* * *

٢٨ ـــ الحجة المتكررة كالطعـــام الذى يعـــاد تسخينه كن طبيعيـــا لا تتواضع كبرا ولا تتكبر عجرفة • لا خضوع ولا اســـتعلاء لا تكثر من الحـــركات • انك تجعـــل القـــاضى يلتفت الى حـــركاتك ولا يصغى الى حديثك •

ثانيا : كيفية قهر القلق عند المرافعـــة

ان الحقيقة الواضحة أنه مهما كتبت ومهما قرأ القارىء الكـــريم عن أسباب القلق فى الدعاوى وخاصة الجنائية فان ذلك لن يحـــل كثـــيرا من المشاكل النفسية عند نظر كل دعوى •

ولكن دعونى أوفر لحضراتكم بعض النقاط الأساسية التى يجب أن يـــكون عليها المحـــامى حتى يستطيع أن يتغلب على القلق الذى يسببه انشغاله على القضية •

١ ـــ اسأل نفسك عن أسوأ الاحتمـــالات التى يمكن أن تحدث ثم هيىء نفسك ذهنيا لقبول أسوأ الاحتمالات فاذا حدث نسبة أقل فهـــذا أيسر •

٢ ـــ لا تفكر فى بداية القضية كثيرا وتنشغل على نتيجتها بل اعمل فالعمل هو خير سلاح للقلق فى هذه الحالة •

٣ ـــ اذا حدثت نتيجة قضية غير متوقعـــة فارض بما قسمه الله لك وارض بما ليس منـــه بد •• وما تشـــاءون الا أن يشاء الله • وقدر الله وما شاء فعل وارادة الله فوق كل ارادة • وبالتالى اجعله فى حكم الماضى

ولا تفكر فى الماضى فليست هناك قوة بوسعها اعادة الماضى وانشر ذهنك بخواطر الطمأنينة والشجاعة وأن تتجنب القصاص من الخصــوم فأنت مجرد وكيل •

٤ — استرح قبــل أن تبدأ تلك القضية وتعلم كيف تسترخى وأنت تزاول عملك •

٥ — لا تجادل اذا كنت مخطئا واعلم أن خير السبيل لكسب جدال هى أن تتجنبه وسلم بخطئك اذا كنت مخطئا •

٦ — بالنسبة للموكلين كن مستمعا طيبا وشجع غيرك على الكلام عن نفســه وعن قضيته وأظهــر اهتماما بالناس وابتســم فمن لا يستطيع الابتسام لا يجوز أن يفتح مكتبا للمحاماة واجعــل الموكل يشعر بأهميته باسباغ التقدير والفت نظره الى أخطائه من طرف خفى •

٧ — قدر للقضية أسوأ احتمال تراه وأخبر به الموكل فاذا حدث أقل فلن يكون هناك أثر •

وفن الحديث الخاص مع رواد المكتب يكمن فى النقاط الآتية :

ابتسم تبتسم لك الدنيا

واجعل مصافحتك حارة

والصــداقة رائدك

اذا لم تتفق فى الرأى فكن صبورا وأحب لأخيك ما تحبه لنفســك

فالتذرع بالفشل فرار من المسئولية

كما يجب النظر الى مراحل القضية المتوالية حتى تضىء للمحــامى الضوء الأخضر نحو التعرف على المناطق المظلمة والمضيئة فيها •

فالحقيقة أن شيئا من القلق مطلوب ولا خوف الا من الفزع والرعب الدائم الذى يفقد الفـرد قدرته على الاستمرار فى العمل وذلك يعـالج بالاسترخاء بعد انجاز أى عمل والهدوء لكى تعيد شحن البطارية النفسية لذاتك ولكى تجمع شتات نفسك حتى يمكنك مواصلة المشـوار بصـورة أفضل[١] •

وارسم برنامجك وفقا لاتجاه مزاجك •

ويجب أن تنشد الاسترخاء دائما كما أن الارتواء الجنسى المشروع هو الطريق الطبيعى للراحة النفسية •

فلنحاول اذن أن نحدد الصفات الطيبة لكل انسان تلقاه •

انس الملق وامنح تقديرك المخلص المنزه • كن مبـذرا فى مديحك مسرفا فى تقـديرك يدخر الناس كلمـاتك سنوات طوال حتى بعـد أن تنساها أنت •

خمس طرق لكى تحبب الناس اليك :

١ ـ اظهر اهتماما بالناس •

٢ ـ اذكر أن اسم الرجل هو أجمل وأحب الأسماء اليك

٣ ـ كن متحدثا طيبا وشجع محدثك على الكلام عن نفسه « كن محدثا بارعا » •

٤ ـ تكلم فيما يسر محدثك ويلذ له •

٥ ـ اسبغ التقدير على الشخص الآخر واجعله يشعر بالأهمية •

---

(١) كيف تتخلص من عيوبك النفسية . د/يسرى عبد المحسن ـ اخبار اليوم ـ العدد ١٣٣ بدون تاريخ ـ ص ٤٥ .

ولا تفقد روح الفكاهة

ودع الشكوى وكن متفائلا •

كما يجب مواجهة الحقائق بصبر وشجاعة •

ان سر الصفات الناجحة أن تصغى باهتمام لمحدثك فلا شىء آخر يسره أكثر من ذلك • مستمع صبور عطوف باسم الثغر •

واذا تحدثنا بعد ذلك عن لغة المرافعة لوجدنا أن الأسلوب فى المرافعة يختلف فى خصائصه عن أسلوب التشريع •

فالمرافعة مخاطبة لمشاعر القضاة ومخاطبة لعقول القضاة فى الوقت ذاته •

هى مخاطبة لمشاعر القضاة عندما يتحدث وكيل النيابة المترافع فى أدبيات الدعوى وعندما يتحدث عن جسامة الجريمة ، وعندما يتحدث عن خطر الجريمة على أمن المجتمع وعندما يتحدث عن أخذ المتهمين بالشدة•

وأسلوب وكيل النيابة عندما يتحدث فى أدبيات الدعوى وعندما يخاطب مشاعر القضاة يجب أن يختلف عن أسلوبه عندما يعرض أدلة الدعوى وعندما يتحدث عن الجانب القانونى •

فهو عندما يخاطب مشاعر القضاة فى أدبيات الدعوى يجب أن يتخير العبارة الرنانة التى تبعث الحماسة والتى تهز المشاعر والتى تؤثر فى نفوس السامعين ، وهو عندما يخاطب عقول القضاة حينما يتحدث فى سرد الأدلة أو عن الجانب القانونى يجب أن يتخير الأسلوب المنطقى الهادى المتزن الخالى من عبارات الحماسة والذى يؤدى الى الاقتناع العقلى بالدليل وتوجد بعض الأخطاء الشائعة فى النطق(٢) •

---

(٢) فعلى سبيل المثال كثيرا ما نسمع من اخواننا القضائيين من يقول

عظمـاء المحامين :

لقد وجد الكثير من جبابرة المحامين فى مصر وفى العالم ولا يتسع هذا المؤلف الوقت والمكان الكافى لدراسة تفصيلية لهؤلاء العظماء ونكتفى بتناول كلا من الأستاذ ابراهيم الهلباوى وهنرى روبير وغيرهم .

ابراهيـم الهلبـاوى(٣)

* امتاز الهلباوى بقوة الجدل وهو العدة الأولى للعقل الفقهى ، وبه تميز آباء المحاماة فى مصر اذ كانت الدراسة الشرعية مصدر ثقافتهم، وهى تقوم على التأصل والتفريغ والقياس ، أى على المنطق — وآية ذلك الزعيم سعد زغلول خريج الأزهر العظيـم ثم المرحوم « الحسينى بك » الذى بدأت على يديه سيطرة الشريعة فى عالم المحاماه ، ومكتبته الفقهية تزدان بها دار الكتب المصرية .

* من أجل ذلك سـار من قضية كبرى الى قضية كبرى ، يجـود فكره دائما بالجديد والغريب ويخرج عن المعارج المطروقة الى الطـرق غير المطروقة ، يسمع القضاء أشياء كأنما يخلقها من لا أشـياء كفلسفة التشريع فى الموضوع . وقواعد الخلق ، وبطـلان الاجراءات وفسـاد أسلوب القاضى ، وتحيز المحقق ونقص انسانيته ومخالفة دعوى الخصم

الخصم (بكسر الخاء) وصحتها (بفتح الخاء) ومن يقول — بناء عليه (بضم الباء) بدلا من بناء عليه (بكسر الباء) ومن يقول اتجر فى المخدرات بدلا من اتجر (بتشديد التاء) ومن يقول اطرح الدليل بدلا من اطرح (بتشديد الطاء) ومن يقول (اصبح قاصرا على) بدلا من (اصبح مقصورا على) ومن يقول : حل جذرى (بفتح الجيم) بدلا من حل جذرى (بكسر الجيم) لانها منسوبة الى الجذر . وكثيرا ما نسمع من يقول وفقا للمادة .. بكسر الواو ، وصحتها وفقا (بفتح الواو) أو من يقول : بدءا من (بكسر البـاء) وصحتها بدءا من .. (بفتح الباء) ومن يقول قيم المال أو العمل وصحتها قوم المال أو العمل .. والتقييم وصحتها التقويم . والقصاص تكون بكسر القاف لا بفتح القاف .

(٣) انظر نجوم المحاماة فى مصر وأوربا — المستشار/عبد الحليم الجندى دار المعـارف .

للبداهة أو لأصول المنطق ، أو انخداع الهيئة الاجتماعية أو مخالفة انتهمة للتقدم الاجتماعى بل انه ليوازن يوما بين الله والقضاه وبين النبى موسى والمتهم .

* فتسمع كلاما من سورة الجن ومن سحر السحرة ، ومن الالهام الملائكى ومن علوم العرب ، وعلوم الغرب بالعربيـــة ا فصحى والعاميـــة الدراجة أو كما قال أستاذ من معاصريه :

.. يوحوح ويولول ويبكى وقد يبكى بعد ما يضحك ويضحك بعـــد ما يبكى .

* ويقف ليترافع عن الأستاذ عبد العزيز فهيم فلا يتكلم فيدعوه الرئيس للكلام فلا يتكلم ثم يقول ان لسانه قد انعقد لأول مرة فى حياته، لأنه يترافع ضد قاض أمام قضاه ثم يتلو عبارات شكوى القاضى ويقذف بهـــا الى الثرى لأنها عبـــارات « عرض حالجى » حتى اذا انتهى قال له الأستاذ المحامى : ذلك أمجد أيام حياتى،ولو توج مجهودا بشطب اسمى.

* رأيته يخطب الناس عصر يوم قدم فى صباحه من أعلى الصعيد والهلباوى اذا خطب بكله بلسانه وبعقله ، وبنخـــاعه وبعصبه وبيـــديه وبرجليه أيضا وله صياح يقد أصفق الحناجر .

* فهو يجد ويهزل ويثب ويحجل ويضحك ويبكى ويعـــلو ويسف ويثقل ويخف ، ويكثف ويشف وينظم الدرر ثم يرمى بالشرر ، وبينا تراه فى وداعة العصفور اذا به فى شراسة النمور كذاك يتشكل هذا الشيخ فى خطبه ويتلون لكل مواقع الكلام ...

*كان يعلم أن المرافعة لا تتسع الا لعرض الأصـــول وحاصـــل الدراسات ، وتطبيقها على الوقائع ، وان القاضى مع لهفته على حكم مماثل أو نص فاصل لا يطيق البحـــوث ولا الاستعراض الطـــويل للنصـــوص

وأن الفقه هو الفهم والهضم لأنه كما يقول رجال الشرع « نور يضعه الله فى القلب»وأن المحامى الفقيه يعمل عملين تكييف الواقعة وتكييف الحقيقة.

من النـــــــوادر

ـ فى ذات يوم سبق المأمور م.ط.بك الى محكمـة الجنـح بالمحلة الكبرى متهما بتعذيب الأهالى لأسباب سياسية فلم يراعى رئيس الجلسة ارهاقه وعرض للمتهم فى ايان شهادة الشهود مما جعله يبتسم فصاح فيه الرئيس « بتتبسم » وكأنما بهت الـذى ابتسم لـكن الرئيس بهت أكثر عندما قال له الهلباوى فى هدوء « لا ياسعادة الرئيس .. ده مش بيبتسم ده بيتنفس »

سأله رئيس الجلسة فى أثناء احدى مرافعاته « وهل لك فى كوب ماء قال « شكرا .. فالأستاذ .. س ، ن (محامى الخصم) هو الذى نشف ريقه » .

٣ ـ وفى قضية م.باشـا تنكب رئيس النيابة العـامة كل التنكيب وانتفخت أوداجه صلفا وعتوا وجانبه التوفيق فى ختـام مرافعته وهـو يحاول التنكيت أو التبكيت وكثرت الباءات فى أشداقه الغلاظ مع اجتماع طرف التشديد والتكرار فساء نطقا ، وانحط على كرسيه مضطربا . فتبعه الهلباوى بقوله « يا حلاوة ... يا حلاوة ... زدنا زادك الله » فانفجرت القاعة ضحكا كالقذيفة حتى رئيس الجلسة لم يكتم انشراحه .

* وينتقل الهلباوى ذهوبا وجيئة بين الهدوء والزوبعة والتساؤل والاستنكار والاستفهام والتعجب والتنكيت والتبكيت يعلو صوته ويهبط ويأسر سمع السـامع فى الموقف الدقيـق ثم يطلقه وقد يتوقف ليستلهم السماء الكلمة المناسبة فتسعفه كأنهار الانفجار المنتظر ساهم فيها المحامى

بقوله والسامع بانتظاره كان يقول هذه الـــ •• هذه الـــ •• هذه المذبحة ؟ أو يقول هذا الـــ هذا الخراب الشامل •

❋ مثـــل ذلك مرافعته عن ك•بك•ف فى تهمة تبديد اذ راح يبين أن الدين كان قد سدد فى ٣ أكتوبر وأن المطالبة لم تقع الا فى أكتوبر ثم صمت قليلا وقال فى يسر وطلاقة •• « ٣ أكتوبر قبل ٦ أكتوبر » •

❋ انني وأنا أبدأ نصيحتي للمترافعين بأن يكونوا واسعى الاطلاع شجعانا فى ابداء الرأى والمرافعة لا يسعنى الا أن أذكر ميزان المترافع وأهليته عندى هو مقدرته على أن يدلى بأدلته ووجوه رأيه دون أن يبعـــد عن جو الرضاء وحسن اصغاء القاضى ومقدرته على تذليل العقبات التى تعترضه فى هذا السبيل وألا يخشى أن تنتشر سحابة أمام القاضى فتصرف أذنه عن حسن الاصغاء وفى ذلك من الخطر ما لا يخفى فاذا كان لســـان الدفاع فى موكله فهو فى نفس الوقت وسيطه لدى القضاء فيجب ألا يفوته أن يظهر بمظهر الأستاذية وهو يدلى بالحقائق والمعارف وأن يـــكون فى نفس الوقت طالبا حسن السياسة ومن الواجب عليه أن يجمع بين هذين لا أن يضيع بينهما واجبه أو لباقته •

فأنا أنصح المترافعين بأن يحتفظوا بالاستقلال فى الرأى وفى تقديم الدفاع دون أن يتقيدوا برأى يأتيهم من السامعين أمامهم أو من ورائهـــم وألا يهتموا بالبحث عن عبارات أكثر المصلحة فيها تمليق الجمـــاهير أو تمليق ذوى السلطان أو تمليق السامع ولا يتحقق هذا جميعه الا اذا كان المحامى مستعدا عند قبول الوكالة لأن يلاقى وهو يؤدى واجبه من العقبات والأخطار ما يلاقى الجندى فى الميدان من طوارىء ومفاجآت •

ومن أقواله « ليعلم المترافعون •• أن اسمى مراتب المحاماة وأعلى معانيها هو أن يقفوا الى جانب مظلوم تحالفت عليه القوى ، وأن يتحملوا معه شطرا مما يقاسيه ، فهذه هى حقيقة المحاماة » •

* ومن أجل ذلك كرهه كثيرون ولكنهم كلهم أجمعوا على الإعجاب به ، وأعلنت مصر مرة بعد مرة حاجتها اليه وصنع ذلك سعد زغلول .

* وكأنما أرادت له السماء ألا يبرز الا فى ذلك الميدان الذى لم يقهره فيه انسان ، ميدان المحاماه .

* هذا المحامى الذى قضى حياته يدفع من صميم نفسه غرامة فرضتها عليه زعامته فى صناعته ومرافعته فى بعض قضاياه .

* هذا الشيخ الذى لا حدود لجرأته ولا لحيويته الذى يوضع اسمه مرات فى كشف الباشوات ولا يصير باشا مع أن كثير من تلاميذه صاروا باشاوات ووزراء هذا الرجل الذى تتلاقى عنده مصر القديمة ومصر الحديثة كما اجتمعت لديه القوتان قوة النفس ، وقوة البيان فصان عظمته نصف قرن وقضى حياته فى الدفاع عن مصر والسودان والمحاماه وحرية الفكر وحرية الصحافة وحقوق المرأة ، وعن كل ما هو جليل وعظيم الشأن فى هذا الوطن .

*وتلا الهلباوى سعدا فى المحاماة وقيد اسمه أمام المحاكم الوطنية سنة ١٨٨٦ وسيبقى هو الثانى فى تاريخ المحاماه بعد سعد زغلول وان كان هو النقيب الأول .

* كان بالقاهرة أساطين الصناعة الناشئة « سعد زغلول » عن عام ١٨٩٢ و « الحسينى » و « اللقانى » و «نقولا توما » و «خليل ابراهيم» وقليلون آخرون من هذه الطليعة النابهة الباحثة عن المجد والمال عندها من الكفايات أضعاف ما عندها من الأمل .. فلم يكد يضع بينهم قدمه حتى تثبت فى الأرض فبذ الكثيرون بشجاعته وقوة عبارته وفقهه وحيويته وسرعة خاطره ، وفيض ذكائه ففتحت له آلهة الحظ قلوبها ..

* ولو ترك المحامى المحكمة حينا من الدهر لكاد ينسى .

* فى هذه الآونة كان قاسم يكتب وكان على يوسف يكتب وكان محمد عبده يكتب فراح الهلباوى يكتب مقالاته المشهورة فى ذلك العهد بعنوان « الى أى طريق نحن مسوقون » وذاع اسمه فى كل مكان ، وأصبح من النوادر التى يتناقلها المثقفون قول العامة اذا تخاصموا « أقتلك وأجيب لهباوى » .

* وعندما مات نعتته الأمة بما كان ينعت به « لاشو » نفسه اذ يقول « أنا الدفاع » .

* دخل رجل يوما يشترى « قطعة لسان » فأغلى بائع اللحوم الثمن ، فصاح فى وجهه المشترى « هو لسان الهلباوى » .

* اذ أثبت كما قال «ان المأمور كان عبد المأمور» وهنأه فى الجلسة رئيس النيابة .

* ولما انفضت المحكمة سأل بطرس باشا الهلباوى عن رأيه فى الحكم فقال « ان مثلى مثل الوالدة التى يصاب ابن عزيز عليها بداء فى ساقه ويرى الأطباء ألا سبيل الى علاجها وأنه يجب بترها فلا يسع الوالدة الا أن تقابل ذلك القرار بالصياح والعويل » .

* قال رحمه الله فى مذكراته « وأمسى الهلباوى معروفا بعنوان لطيف وهبه له الشيخ جاويش وهو جلاد دنشواى « بل أنه ليختم تعليقه على هذه القضية بقوله « ما أتعس حظ المحامى وما أشقاه يعرض نفسه لعداء كل شخص يدافع ضده لمصلحة موكله فاذا كسب قضية موكله أمسى عدوا لخصمه دون أن ينال صداقة موكله » .

* وعرضت عليه فى هذه الأثناء ، وظيفة مستشار فى محكمة الاستئناف ، وأوشك أن يقبلها لولا أن جاءته الحكمة من صميم الريف على لسان سيدة مكفوفة البصر ، عرضت عليه قضيتها وحدثته أنهم يقولون فى

فناء المحكمة أنه سيلى قضاء الاستئناف ، وذكـرته بأن فى مصر أربعين مستشارا سيكون واحد منهم ولكن فى مصرا محاميا واحدا لا مثيـل له ، هو الهلباوى فتبسم ضاحكا من قولها وكأنما كانت كلمة القدر فقبل القضية ولم يقبل القضاء ، ورفض ما حملته اليه من الأتعاب قائلا أننى مدين لك بكثير ••• ودافع عنها دفاعا أكسبها كرامتها ودعواها •

* عندما نظرت القضية سأل الرئيس « المستر دليراوغلو » عـلى برنامج المحامين فقالوا محمود بك أبو النصر سيترافع فى سبق الاصرار ، وأحمد لطفى بك فى أن الجريمـة شروع أما الهلبـاوى بك فسيترافع فى الظروف المخففة حيث برع فى تناول الظروف المخففة فلما تقدم الهلباوى بدفاعه تقدم فى جلال المحاماه ليثبت أن فى مصر رجالا ليسوا أقل بطـولة من « شوفولاجارد » و « بربيه » و « مالزرب » و « دى سيز » وهـو الهلباوى الذى يقول فى مذكراته •

* « أنا معتقد أن من واجب المحاماة كثيرا ما يعرض صاحبه الى الخطـر وانى كنت ولا زلت أعتقـد بأن صناعتى شـبيهة ، الى حد ما بالعسكرى المجاهد ، وهو فى الخندق يقدم نفسه ضحية لوطنه ويكفى أن يراجع القارىء ما حدث لى من الأخطار •• » •

* ولا يليق بالملك أن يجمع الجرحى من المعركة ليقـذف بهم الى المشنقة •

* تلك صنعة الشجعان ولم يكن الهلباوى الا واحدا من أشـجع الشجعان الذين شقوا الطرق الى مجد الصناعة:كانت المحاماة عنده موهبة قبل أن تكون علما أو تجربة يهدر مصلحة محققة لنفسه فى سبيل مصلحة محتملة لموكله ، ويضحى بذاته وماله فى سبيل رأيه وكرامتـه وان تعجب فاعجب له اذ يضحى كل شىء فى سبيل أعدائه •

ومن أقواله :

خدمت نحو الخمسة وعشرين عاما محاميا ، ولم يخطر ببـــالى يوما ••• سبب اختيار الرداء الأســود حلة رسمية للمحامى الـــذى يتشرف بالدفاع بين يدى القضـــاء ولا سبب انتخاب اللون الأخضر للوسام الذى تزدان به صدور من عهد اليهم اصدار الأحكام النهائية • أما الآن وقـــد أبعـــدت عن قلبى هـــذه القضية كل راحة • وجعلتنى مرآة لتلك القلوب المنفترة كأم المتهم المتهم وشقيقته وباقى أهله ••• قد تت أن كان مختـــار هذه الألوان أراد باللون الأسود رمزا للحداد والمصائب للمحامى الـــذى يمثل القائم بالدفاع عنه ، وباللون الأخضر الذى يتحلى به صدر القاضى الرمز الى الطاووس ذى الريش الأخضر وهو مثال ملائكة الرحمة ، فنعم الاختيـــار •••

* كأنما هنا فى هذه القاعة أمام أولئك القضـــاة المشبهين بملائكة الرحمة على سطح هذه الأرض نقوم بمأمورية أولئك الأحبار فى هياكلهم الذين اتخذوا مثلنا ثياب الحداد وهم يتضرعون الى مبدع الســموات والأرض بأن يفيض على الأرواح الذاهبة الى دار اللخود سحب رحمته وغفرانه ••• فتقبلوا دعاءنا فى طلب الرحمة للأحياء كما يتقبلها من أقامكم فى عباده والذى علمنا أنه كما أن من صفاته العدل،فان من صفاته الرحمة، وعلمنا فوق هذا أن الرحمة فوق العدل •• ثم يقول :

الآن لى كلمتان أوجههما الى المتهم بين يدى القـــاضى : « الأولى » انى اذا كنت قاسيا عليه فى نعته فلأنى خاضع لقانون ليس دائما •• ملتئما فى أحكامه مع ما توحى به الذمة والضمير لأنه مضطر فى أحوال كثـــيرة — رعاية لسلامة المجتمع البشرى وصيانته — أن ينظر نظرا آخر فى تعريف الحـــلال والحـــرام ، ونحن المحـــامين أحق الناس بالأدب والخضوع لهـــذا القـــانون فاذا قبل الدفاع عذرك أيهـــا المتهم وعرضه أيها المتهم على قاضيك فعليك أنت أيضا أن تتقبل قبولا حسنا عـــذر الدفاع فيمـــا

خالنك فيه من عقائدك السياسية الثانية : انى اذا أنزلتك منزلة المجـرمين العاديين وطلبت لك الرحمة والغفران ، فلأن ذلك واجب أيضـا يقتضيه الدفاع ولكن اذا أبت نفسك أن تعيش بين السلاسل والأغلال وأن تعيش معادلا معاملة الأشقياء وقطاع الطريق فارفع نفسك عن هـذا السبيل ، وأقبل نبال الموت بقلب البواسل،فالموت لا راد له ان لم يكن اليوم فغدا..

اذهب الى لقاء الله الذى لا يرتبط الا بعدالته المجردة عن ظروف الزمان والآن اذهب مودعا منا بالقلوب والعبرات .

اذهب فقد يكون فى موتك بقضاء البشر عظة لأمتك أكثر من حياتك .

اذهب فان قلوب العباد اذا ضاقت رحمتها عليك فرحمة الله واسعة.

والفصاحة القضائية كالكتابة على الرمل أو على الماء « عمـل يبعثره الهواء ولا تحفظه المضابط ولا المطابع سأل رجال « الأكاديمى » النقيب « بتولو » عن كتاب يتقدم به ليقبل بينهم وفقا للتقاليد فقال « ليس لدى شىء » قالوا « تجمع بعض المرافعات فى مجموعة » قال ولا هذا أيضا .. اننى رجل كلام ، لم يكتب مما قلته شىء فخذونى كمـا أنا ، أو دعونى أو كمـا قـال « هنرى روبير » عن « جاميتـا » ان أسـوأ ما يصيب الخطيب المرتجل أن تنشر خطبه لأنها ستكون جافة خالية من الاشارات التى صحبتها عند الالقاء ومن موسيقى الصوت الذى ألقاها ولا يصـدق هذا المقال على أحد فى مصر قدر ما يصدق على الهلباوى .

ولقد كانت دنشواى احـدى الفواجع الكبرى التى رزئت بها مصر من عهد الاحتلال البريطانى كانت محكمة بلا قانون بلا نصوص تصـدر ما تراه مناسـبا من العقـوبات ولهـا أن تحـكم أقصى الأحـكام على من يرتكب أهون اعتداء على جندى بريطانى كان انشاؤها مخالفـة مخالفة صارخة للعدالة البشرية ، لم يقنع منشئوها بأن يخلقوا محكمـة بغير قوانين ولكن جسارتهم دفعتهم الى أن انشـاؤها مخالفـة يشوهوا

جيدها باجراءات بشعة غاشمة ... كان الدكريتو يوجب أن تكون قضاتها من الانجليز .. فكيف يحابى أحد الطرفين ؟

ولماذا يميز المدعون هذا التمييز ؟ أليس ذلك دراية بحقوق الانسان فى عمومها ، وحقوق المصريين على الخصوص .

كره المصريين جميعا هذه المحكمة من أجل هـذه الأسباب حتى لو طابقت أحكامها العدالة وليس غريبا أن يحتقروا من يشارك فيها من بينهم كقاض وكمدع عمومى ولو كان أكثر الناس وطنية واخلاصا لأنه يعرض سمعته للشبهات والريب الى أن يتضح للناس من بعد أنه كان يهدف الى غرض نبيل لا عيب فيه .

ومن ناحية أخرى فان من يقبل من المصريين أن يشارك فيها يحمل على عاتقه أكبر المسئولية عن القسوة الفاضحة فى أحكامها ..

هذه كلمات الهلباوى فى دنشواى وهو يدافع عن الرجل الذى حاكم رئيس محكمة دانشواى فقضى بفكره ضده وقضى بيده عليه .

بل اليك كلماته عن نفسه « لقد كان الحـكم فى قضية دنشـواى باجماع المصريين حكما قاسيا لا يستحقه المتهمون ، وكان تنفيـذه فوق ذلك أكثر استحقاقا للسخط ... لا فائدة فى القول بأن جميـع المصريين الذين شاركوا فى هذه المحكمة قد كرهم مواطنوهم واحتقروهم ــ ولربما استطاع أحد المدافعين فى القضية الحالية أن يؤكد ذلك أكثر من غيره لكنا لسنا هنا فى مقام الترجع ولا الدفاع عن أنفسنا ... لقد جئنا الى هـذه القاعة للدفاع عن الوردانى ، ومن أجل ذلك وجب علينا أن ننكر ذواتنـا وأن نغفر كل ما وجهه الينا مواطنونا .

اللهم اننا نستغفر مواطنينا عما نكون قد وقعنا فيه من أخطاء .

« ان الذين فى هذه المحكمة أو تولوا تمثيل النيابة فيها قد اعتبرهم

مواطنوهم قواد جيش الاستسلام للعدو ـــ يميل الجمهور لاتهامهم بأنهم يخدمون العدو أكثر مما يخدمون مصالح الوطن دون أن يقدروا مواطنوهم الظروف التى تصرفوا فيها تصرفاتهم ٠

« كان بطرس باشا رئيس هذه المحكمة المشهورة فلم ينل غير قسطه من التهم ـــ ومن العسير تبصير الرأى العام بشأنه » ٠

ولم يفته أن يتكلم عن اتحاد العنصرين فيقول « ٠٠٠ حلت وزارة بطرس باشا محل وزارة مصطفى فهمى باشا التى أرهقت بجمودها الأمة خمسة عشر عاما ٠٠٠ فقابلت الأمة وزارة بطرس باشا بالفرح العـــام أليست هذه الحماسة الشاملة لوزارة يرأسها رئيس قبطى حل محل رئيس مسلم ، دليلا قاطعا على أن مصر لا تخلط المسائل السياسة بالأمور الدينية وأنها تقدر من يخدمها حق قدرهم أيا كانت ديانتهم ٠

وهذه القضية سنة ١٩١٢ كقضية الوردانى سنة ١٩١٠ هما أول قضية وثانى قضية يحضر فيها النائب العام فى تاريخ القضاء المصرى وسنرى فى سنة ١٩٢٥ ، القضية الثالثة التى يحضر فيها نائب عام آخر والهلباوى لشهر المحامين فيها ، سعد زغلول يثنى عليـــه من أجلها واذا أضفنا الى هاتين القضيتين قضية سعد ضد أباظة باشا فى العام ذاته وجدنا الهلباوى فارس الحلبة تتلاقى على التسليم بعبقريته الأمة والانجليز وسعد زغلول والخديو فلا عجب اذا استمر اسمه على كل لسان ٠

وقال فى قضية الوردانى :

* عرضت على حضراتكم أنكم الآن تعالجون مرضى أصيبوا بجنون الوطنية ـــ وأريد أن أتكلم عن شيوع هذه الجرائم ، وهو أحيـــانا الى التشدد فى العقوبة ٠ وهو يدعو أحيانا الى التلطف فيها فالجريمـــة التى

وقعت والتى أخذت بعض الجرائد الانجليزية يندد بها علينا — والتى أنتجت الانذار البريطانى الذى يقول اننا لا نستحق من أجلها أن نكون بين الأمم المتحضرة •

هذه الجريمة من واردات أوربا لقد أتى مرض القتل السياسى من الغرب مع مرض الزهرى تماما •• يجب أن تقبل أوربا هذا أيضـا فهى ملوثة فى جميع أرجائها بمثل هذه الجرائم وبأفظع منها » •

* هناك سبب أتضرع اليكم أيضا بأن يكون سبب رحمة ، هـذه الجريمة كان يرمى خطـرها الى ايذاء العـلاقة بين مصر وانجلترا فكان ما لا بد منه ، أن تتدخل السياسة الانجليزية وقد تدخلت واحتملت مصرا مضطرا أن تكفر عن هذه الجريمة • دفعت تعويضا لا يقل عن نصف مليون جنيه ••• اتفقت كلمة الائمة على أن دفع الدية ينفى توقيع العقوبة •• وقد دفعت الدية •••

* فقد الجمهور وفقد المال وفقد الدار وفقد الأسرة وكانت سـنة تعبر السبعين الى الثمانين أى تدلف به نحو العالم الثانى •

* اذا كنت تستطيع أن تحتفظ باتزانك حينما يفقد الناس من حولك اتزانهم ••• واذا كنت تثق بنفسك حينمـا يشك النـاس كلهم فيك ••• واذا كنت تلاقى الانتصار كما تلاقى الانكسار•••واذا كنت ترى أشياءك التى وهبتها حياتك قد تحطمت ، فتنحنى تبنيها من جديد بأدوات واهنة• ••• فان لك الأرض ، وكل ما عليها •

* وفى نفس العهد ترافع عن الأستاذ محمود سليمان غنام اذ قدم للمحاكمة التأديبية لمقال كتبه فى لغة النائب العمومى وتقعر منشوراته ، وتحزج وكلائه فى فهمهـا ••• وكم كان فى التحقيق من مضحكات فلقـد دعى للتحقيق معه فوجد على مكتب المحقق كتابا ، واذا الكتاب ليس قانونا

ولكنه قامرسا لغويا لفك طلاسم منشورات النائب العمومى فأثبت المتهم فى محضر التحقيق هذه الواقعة ضد المحقق وضد رئيس التحقيق •

* كان شيخ المحامين،فكان أقدرهم علما بأن توكيلاتهم لا تولد الا فى المحن وكان الموكلين يدفعون الأتعاب ــ كالجزية ــ عن يد وهم صاغرون فاذا ظفروا بغاياتهم قطعوا ما يصل الماضى بالحاضر وأغرقوا المحاماة فيما يغرقون عن عمد من ذكريات آلامهم ومن ثمة يصدف بعض البرره عن المحامين بعد الانتهاء من عملهم ، فيستوى البررة فى نكرانهم ، بالكفرة فى كفرانهم وان تنوعت الأسباب •

* أترانا نستطيع أن نصوره لمن يراه أى من يسمع المحامى العظيم فى المحكمة لا يسمع كلام الناس عنه • وليس راء كمن سمع فهو فى ساعة العمل يعمل ويمثل اشاراته فصيحة كعباراته ، يستعين بجوارحه جميعا ليحدث فى دقائق معدودة ، أثار غير محددة ، ويظفر فى زمان قليل بغرض جليل ، لفرد أو لجماعة أو الأمة ، ترهقه التبعات ويعصف بطمأنينة القلق على من يمثلهم مما طوى القدر واحساسه أن الحق الذى يجازف به ليس له ، وانما هو وديعة أودعها الناس بين يديه وأن مجده ووجوده ، رهن بالأحكام التى تصرف بها الأقدار مصاير المغامرات الكبرى المسماة بالقضايا ، وهيهات أن يرسم القلم كل أولئك •

* وكان استقلاله عن موكليه سر قوته عند موكليه أو سامعيه كأنما كان يسبق الموكلين الى أهدافهم اذ يتخلص من أثقالهم فيطمئن القضاة الى أنه ليس صدى لأصوات المتقاضون وانما هو سفير العدالة اليهم ، وسفيرهم الى العدالة أو وكيل عن الحق لا عن صاحب الحق •

* سأله رئيس الجلسة يوما : كم من الزمن يكفيك ؟ قال لا أستطيع أن أضبط زمام عبارتى ما لم أفرغ من التعبير عن أفكارى ، فلا أعدك الآن بشىء •

❋ جاء بنفسه الى المحكمة ، لأنه يعرف أنه اذا انهزم فى كل مكان ، فقد تعود النصفة فى المحكمة •• وانه اذا لم يبقى له دار •• فانه باق فى دار العدالة التى ساهم فيها أكثر مما ساهم فيها أى انسان لا يلتمس أن يسكن ، ولا يلتمس أن يرحم ، ولكنه يطلب العدل فى دار العدل •

يعرض القضية مرة فى استهلال الدفاع فى دقيقة ••• ومرة أخـرى فى طول ما يترافع بيدأ فى اجواز الفضاء •• لا يقسم للمرافعة قسميها التقليدين العرض والمناقشة بل يسوق الوقائع ويجادل فيها معا حتى اذا انتهى من السرد كانت القضية قد انتهت وسقطت أدلة الخصم من نفسها•

❋ وفى الحـالات القليلة التى يرد فيها على الخصم ، تراه فى رده كمرافعته يستفتح بصعاب الأمور ويدلى بأقوى الحجج ، ثم يتركها قليلا ليسرد مسـألة ثانوية ثم يعود اليها ثم يتركها لمسـألة أخرى ليست من الصميم لكنها جديرة بأن تقال ثم يرجع الى الأصل وهكذا دواليك حتى اذا انتهى كانت الأصـول والفـروع قد عرضت ونوقشت فاذا القضية كل لا يتجزأ واذا هو قد قال كل شىء تساعده حريته فى الادلاء بما يشاء وقوته فى اسقاط كثير من العرض •

❋ الاختصار ديدنه اذا كتب كتابا فكتوقيعات الخلفاء فى ايجازه ، واذا ترافع تحمل المسئولية فحذف ما يحذف الجنـاية العادية كالقتـل والخطف وأمثالها مقياسها العادى ٦٠ دقيقة وكم فى هذه الدقائق القصار من أفكار وأخبار ، يسردها ذلك اللسان السريع كالقطار يطوى فى لحظات ما يطويه غيره فى ساعات ••••

❋ من نصائحه للمحامين أن يعلموا أن المعارك فى الحياة لخـدمة الوطن لن تصدق مبادئها أو غايتها الا اذا عاهد القائم بها الشرف والوطن أن حياته له وليعلم المترافعون جميعا وخصوصا المحامين أن أسمى مراتب

المحاماة وأعلى معانيها هو أن يقفوا الى جانب مظلوم تحالفت عليه القوى وأن يتحملوا معه شطرا مما يقاسيه فتلك هى المحاماة •

* ذهب محام ناشىء حكم على موكله بالاعدام يسأل « لاشـــو » ماذا تصنع لو كنت مكانى ؟ قال لاشو «أطلب من فورى مقابلة الامبراطور فالتمس العفو عن موكلى وهو يرفض فى العادة — فانتظر يوم التنفيذ •• فأصلى لروح موكلى ••• ثم •• قال المحامى الناشىء « ثم » قال لاشو وهو يضحك من كل قلبه « ثم يحكم على موكل لى جديد بالاعدام فأســير معه نفس السيرة » •

* كان يسترسل فى انسحابه كالزامر الهندى يستخرج الأفاعى اذ يخدرها بمزماره أو قول الرئيس « بارتو » فى كتابه عن الزعيم «ميرابو» «لقد خلف اسما تحيط به هالة من الأساطير لكن حظه كان أقل من عبقريته»

* ومن التضحيات فى المحاماة ما يعدل الظفر الجليل بالخطر ، واذا كان فيها من الجحود مثل ما فى الحياة من جحود فان فيها من الجمال ما لا يتوافر الا فى أبهج معانيها •

المحاماة رسالة لا تجارة السـعيد من فهمها على غـير أسس المال والكثير من مرافعات المحامى الكبير غير مأجورة واذا قام المحامى بواجبه فى سبيل المصلحة العامة تدفق عليه المجد والثراء • وكلما أعرض عن المال انحدر اليه المال • والنجاح فى المحاماة كالنجاح فى الحياة لمن صبر وثابر • فما أسـعد الأولى ملأوا نفوسـهم بالقناعة وأذهانهم بالعـلم وفراغهم الاجبارى أو الاختيارى بالسعى المطرد نحو الكمال •

* كما قال لابور « القضاء لا يكون عظيما الا اذا كانت المحـاماة عظيمة ولا تكون المحاماة عظيمة الا اذا كان القضاء عظيما » •

* بل كما قال « عبـد العـزيز فهمى » للمستشارين وهو يرأس

المحكمة العليا يوم افتتاح محكمة النقض فى ٥ نوفمبر ١٣١ « ان سرورى يا حضرات القضاة وافتخارى بكم ليس يعد له الا اعجابى وافتخارى بحضرات اخوانى المحامين الذى اعتبرتهم محكمة النقض والابرام المدنية كما تعتبرونهم أنتم عماد القضاء وسنده أليس عملهم هو غذاء القضاة الذى يحييه ولئن كان على القضاة مشقة فى البحث للمقارنة والمفاضلة والترجيح ، فان على المحامين مشقة كبرى فى البحث بالابداع والتأسيس .

لا شك أن عناء المحامين فى عملهم عناء بالغ جدا لا يقل البتة عن عناء القضاة فى عملهم .

٢ — شيشرون :

شيشرون هو الخطيب الرومانى المعروف ورجل السياسة والقانون والمحاماة وهو خير من كتب عن مشاكل الجمهورية الرومانية وعاش فى تلك الفترة الحاسمة من تاريخها ونجح فى انقاذ روما من مؤامرة قام بها كاتلينا (الذى كان يتطلع الى أن يكون قيصر) ووقف للحيلولة دون ذلك وطالبه بأن يغادر روما .

ويكفى فى وصفه كخطيب أو كمحام ما قاله عن نفسه ، لقد كان اهتمامى بالخطابة من القوة بدرجة انى لم أدع يوما يمر دون أن أقوم ببعض التدريب على الخطابة ويضيف الى ذلك بأن دفاعه كان يرتكز على الالمام بالأدب والفلسفة والقانون والتاريخ ودحض أداة الخصوم فى ايجاز وبصفة قطعية والتأثير بمهارة على عقول القضاة ، والانتقال من الجد الى المزح ، والنظر الى الموضوع وجهة نظر عامة ، والخروج قليلا عن الموضوع للامتاع .

٣ ــ هنرى روبير (١)

جمع كل المظـاهر الخاجيـة التى تحتاج اليها مهنة المحاماة ، فله وجـه معـبر شـديد التـأثير تضيئه عينان تشعان حيـوية وتنفـذان بنظراتهما الى النفس ، وكان يخيل الى الكثـيرين خطأ أن دور المحـامى ينحصر فى الكلام ولكن عند هنرى روبيرو رسالة أخرى هى الاصغاء الى متابعة الشهود أثناء آداء شهاداتهم وعـدم اضاعة شىء ممـا يقولونه ، وتسجيل جملة ما أفلتت من ممثل الاتهام للاستفادة منها عنـد الحـاجة وتنسيق كل هذا فى ذاكرته لاستخدامه أثناء المرافعة وهذا العمل يستدعى دقة نفاذة وقدرا كبيرا من السرعة فى وزن الأمور وقد جعـل من ذلك كله فنا نبغ فيه • فن أن يتمكن فى لباقة من ارجاء التصريح ــ بالنتيجة التى يشوق الى معرفتها بالتلويح لهـا أكثر من مرة وينتهى بفتنة المستمعين اليه وتلهفهم ، وهم يحبسون أنفاسهم فى انتظار تلك النتيجة فاذا أبرز النتيجة أخيرا فان أولئك المستمعين يحسون براحة الاقتناع •

* ان الكفايات هى التى رفعت هنرى الى الذروة تتحصل فى فكرة واحدة هى أنه كان يفهم حقائق قضاياه كلما كان يفهم عقلية القضاة •

* كان اذا أوغل فى الصميم ، وحميت الوقده ، واندلع لهيب النار، وانساقت الحجج متدافعة معجلة ، يضرب يمينـا ويضرب شمالا كلاعب السيف ، ضربات منظمة وأحيانا ضربات غير منظمة ، تسحر العيون أو كما شبهوه بالحاوى اذ يبهر المحلفين بصيحاته وحركاته واشاراته (٢) •

---

(١) انظر الأستاذ/محمـود العروسى ــ كيف تصبح محاميـا ــ ط ١ سنة ١٩٨٦ •

(٢) انظر المستشار/عبد الحليم الجندى ــ نجوم المحاماة فى مصر وأوروبا دار المعارف •

* أن تترافع باختصار ولباقة واخلاص فهى تعلم فن البساطة .

* والذى لا يفهم لا يستطيع أن يفهم وتبسيط الأشياء أصعب من تعقيدها والغموض فى التعبير هو فى غالب الأمر أثر الغموض فى التفكير .

ففى المحاماة أسلوبان : الأول يسرد الوقائع ثم يناقشها حتى لا يباغت ضمائر القضاة بجدل يجمل تأخيره وحتى تحتل الحوادث مكانها من الأذهان والثانى : أسلوب الأساتذة فى محكمة الجنايات لا يضيعون الوقت فى السرد ثم العودة الى ما سبق من سرد وهو فى الواقع أسلوب الخطيب الذى لا يريد أن يترك الواقعة الا بعد أن يصبغها بصبغته ، فلا يدع للسامع فترة ، يعمل فيها فكره ، بل يضطره الى التفكير فى الواقعة والرأى فى وقت معا .

* وفى الحق لقد مهد له ذلك صفاء عقله وقدرته على الارتجال ذلك الارتجال الذى قال عنه أنه نتيجة ترديد الكلام قبل المرافعة حتى ليسمى نفسه « اله كلام » .

يبدأ المعركة بأفكار واضحة وعبارات سهلة لينتهى منها بأسرع ما يستطيع لا يرسم الصور ولا يلقى الحكم ولا يتفيهق بالألفاظ يلقى الحجج واحدة بعد أخرى كالفيلق فى اثار الفيلق وكالانتصار فى أعقاب الانتصار ويستغنى عن أربعين دليلا بأدلة أربعة لها قوة أربعمائة ووضوح واحد مع القصد فى التفاصيل والسخاء على الدلائل يعرضها كل عرض ويصلى التهمة نارا بعد نار حتى اذا أوفى على التمام قذف بما يشبه المدفعية الثقيلة تمحو كل أثر ان كان قد بقى أثر .

* كان يشرح ارتجاله بقوله «أنا لا أفكر فى الكلام حين ألقيه » أنا لا أحضر مرافعات مكتوبة ، وانما أترافع بينى وبين نفسى على انفراد وبغير صوت ، لا أتكلم ، وانما تجرى العبارات فى مخيلتى اذ أمشى أو حين أكون فى عربتى وفى المساء تتوارد لدى خواطر ذات بال » .

والارتجال دون درس : مجازفة بحقوق الناس واستخفاف بالقضاة أما ارتجال الألفاظ فشىء آخر لا يرتجل الكلام العظيم الا من حضر مرافعته مرات ومرات ، ومرن على مواجهة الأحداث ومجابهة الفجأة فدانت له أعنة البلاغة ••• هو لا يرتجل كما يتوهم الواهمون ، وانما يستخرج ما فى مواهبه من كنوز ظاهرة أو غائرة تظهرها الحاجة فهناك تحضيران : مباشر وغير مباشر •

* هو سفير ومعبر ولا يستطيع أن يسفر أو يعبر الا مرتجلا فالارتجال هو الذى ينقل الأثر لسامعيه مستجيبا لتأثيرهم فيه ، والمحامى يخلق فى حركاته ، وسكناته ، خلقا من فكره وفمه ولن يعيش هذا الخلق الا اذا استمد الحياة من البيئة التى ولد فيها •

* وقديما قال « أرسطو » ان غرض الخطيب منذ يشرع فى خطبته أن يظفر بالقبول فى عقول سامعيه وأن ينسج عروة من التعاطف بين المتحدث والسامع ، فان السامعين لا تتفتح عقولهم للاستنارة أو للمتابعة ان لم تجمعهم هذه العروة بالمتكلم •

* قد يكون المحامى ممثلا لكنه مترجم يجب أن يتوافر فيه الاخلاص فى الترجمة ، فاذا لم يكن مع المتهم بفكره وقلبه فكيف يستطيع أن يدافع عنه •

* من أقواله : ها ان السماء تدوى وكأنها تكاد تنقض ، انكم تسمعون عصف العاصفة وهزيم الرعد •• ان السماء تزمجر سخطا على ما فى الأرض من ظلم ••• انها تحتج معى على تلكم الاجراءات •

* هذه العقوبة التى اذا وقعت على مجرم جعلته يشك فى وجود الانسانية فاذا وقعت على برىء جعلته يشك فى وجود الله •

* المترافع العظيم فى العصر الحديث يستفتح مرافعته بصميم الموضوع وصميم الحجج حتى اذا انتهى من الصميم انتهت مرافعته ، أما ما عدا ذلك من الزينة التى تزدان بها المرافعة ، فلا ينبغى أن تكون

زيادة تزداد من جرأتها المرافعة وبقدر ما يبدو من جراء المرافعة ، وبقدر ما يبدو من الأصالة فى المزيج بين الصميم وبين الزخرف ، وبقدر ما يسلم من التعامل والاصطناع ينجح المترافع العصرى فى مرافعته .

* كان « هنرى روبير » يوصى المحامين بالتمرس والتدريب بأن يكتبوا دائما ويقرؤوا دائما ليتعلموا حسن الاداء فالمحاماه فى جملتها حسن الاداء والتمرين العملى مدرسة المحاماة .

* ولئن قيل أن المحامى يشبه الممثل ان تبعات المحامى لأجل فالممثل يحفظ دوره عن ظهر قلب ليتلوه على متفرجين جاءوا ليستمتعوا أما رجل الدفاع فيواجه خصوما وقضاة اشربوا فى قلوبهم الشك تساقط عليه الفجاءات من منصتهم لا يراعوا الاصطناع وانما يخضعون للاقناع .

انتهى عصر القضية التى تنتظر وحدها فى دور كامل ... وعدونا عصر اللاسلكى الى عصر تحطيم الذرة وكلما ألم المحامى بموضوعه يكون أنفذ بصيرة وأصح تعبيرا وحكما .

* والمحامى الجدير باسمه هو الذى يفهم قضاته أن مرافعته ليست له ولكنها لهم وأنهم لا يخضعون لنظامه وانما هو الخاضع لنظامهم .

فالمرافعة « فعل » و « رد فعل » وتوجيه للأذهان وظروف الزمان والمكان .

* ان محكمة النقض نفسها وهى محكمة قانون أولا ، تكاد تقضى بالعدالة دائما .

— اننى أطرح بين أيديكم شرف هذا الرجل وحريته ، وديعة مقدسة أودعكموها وستردونها اليه سالمة انكم تصدرون أحكاما ولا تؤدون خدمات .

٤ ــ سعد زغلول :

يعد الزعيم سعد زغلول زعيم الخطابة العربية فى عصره ، فلقد درس فى الأزهر دراسة جادة أعدته ليكون كاتبا نابغا ومحاميا بارعا ، وقانونيا قديرا ، وقاضيا من طراز فريد ، فهو أول محام مصرى يعين بالقضاء ، فزاد من تقدير المحاماة وجلالها وقال فى بعض مرافعاته :

(ان التهمة الموجهة الى السجينة هى الاعلام وهذا وحده كاف ليوحى لكم بالطابع الكئيب للمناسبة التى جاءت بى وبكم للوقوف وجها لوجه) •

« ان الشموع تضاء وتطفىء ، ولكن شمعة الحياة اذا أطفئت هل أحد منا يستطيع اعادة الضوء لها » •

وبذات المعنى يردد سعد زغلول قول الامام التقى على ابن أبى طالب (دولة الظلم ساعة ودولة العدل الى قيام الساعة) •

ونجد سعد زغلول يختتم مرافعته ــ وكان مدعيا بالحق المدنى « ان ما قدمته وان كان يوجب شفقة المحكمة الى المتهم الذى كالآلة الصماء فى يد من تؤثر أفكارهم وأقوالهم عليه ، الا أننى رأيت من واجب الذمة ايضاح الحقيقة • فليكن فى علم المحكمة أن وكلاء المتهم لا يمكنهم أن يأتوا بما ينفى التهمة مطلقا وأعجب لهم كيف يتأتى لهم الكلام ولكن مع ذلك ستسمعون منهم أقوالا مجوفة وشقشقة يحاولون بها التمويه على الأفكار ، وما تجديهم نفعا » •

وزيادة على ذلك يضطر رغما عنه الى استعمال يديه رافعا وخافضا ومطوحا شمالا ويمينا ، واستعمال جسده مائلا ومعوجا متقدما ومتأخرا • لأن ما فى أعماقه يود أن ينطق •

وبجانب ذلك كله يجب على المحامى أن يضع فى ذهنه دائما مستوى

السلوك الاجتماعى لمقترف الجريمة أو المتهم فيها خصوصا وأن المشرع قد أعطى للقاضى السلطة التقديرية لوزن وملاءمة كل هذه الأمور .

ففى فروض كثيرة يمكن للقاضى وقف تنفيذ العقوبة وأيضا اصدار العفو القضائى بالنسبة للأحداث وغير ذلك من القرارات التى تتوقف على ملاءمة القاضى لظروف الواقعة وظروف مرتكبيها كما هو الشأن فى تخفيف العقوبة واستبعاد التشديد للعود وعموما سلطته فى اعمال الظـروف أو عدم الاعتداد بها .

٥ ــ لاشـــــو :

وقف يترافع يوما عن فتى قتل أباه وكان رئيس الجلســة صديقــا له وكان الرئيس قد قال له : هذا متهم سيشنق على رغمك ؟ قال لاشـــو لست « متأكدا » ــ وتراهنا) .

ترافع لاشو ساعات وساعات دون أن يلمح على وجوه المحلفين الا الصدود ، لكنه سمع فجأة أجراس الكنائس تدعو لصلاة منتصف الليــل فى ليلة الميلاد فأملى قليلا ، وقد تملكه الانفعال ، فواتته العبقرية بكلمات الساعة ، وراح يقول : فى هذه الليلة السعيدة ، فى هذه اللحظة المقدسة ، ولد هنا اله المغفرة اله السلام اله المرحمة ، انه عيسى فى المهد يصيح بكم أن ترحموا ... اذكروا أن الرحمة العالية ليست بذات حدود ، ولا تكونوا أشد قسوة من الله نفسه .

٥ ــ الشيخ / محمـــد عبـــده :

كان الوقار والجــلال والهيبة تفيض جميعا فى أفقه كان يقــول ان عمل القضاه فيما بينهم مشترك مستور لا تجوز اذاعة فضــل لأحد دون غيره ، كان من أوائل القضاة جدا وذكاء ونزاهة واستقلالا وكان علما من أعلام الدولة كان قاضيا كريم النفس واللسان .

ومن أقواله :

ان الرجل البار يحتمل فى سبيل وطنه وآداء واجبه الكثير سواء فى الأعمال الحرة أو فى الأعمال الوظيفية بين مصاعب وأحداث لا تقل جسامة عما يحتمله الجندى فى حومة الوعى هذا يتعرض للقذائف والنيران وهــذا يتعــرض لألوان لا عــداد لها ولا وصف لها من الدس ومن النفاق ومن الطغيان .

وقال مخاطبا القضاة : أنتم المثل لما يجب أن يكون عليه العالم علما ودراية وســموا واجــلالا ان القضاء فى كل أمة هو أعز مقدساتها وهو الحصن الحصين الذى يحمى كل مواطن فيها حاكمــا أو محكوما من كل حيف يراد به فى يومه وغده ومستقبله .

ومن ثم فأنتــم مأمن الخائفين وملاذ المظلومين وسياج الحــريات وحصن الحريات .

الفصل الرابع

بعض مرافعات
النصف قرن الأولى من القضـــاء
جمعها حضرة صاحب العزة مصطفى حنفى بك[1]

قضية مقتل المرحوم بطرس غالى باشا

أمام محكمة الجنايات المشكلة تحت رياسة جناب المستر دلبروغلى ويحضور حضرات أمين بك على وعبد الحميـد بك رضا مستشارين دور شهر ابريل سنة ١٩١٠

قطع من مرافعة حضرة صـاحب السعادة عبد الخالق ثروت باشا النـــائب العمومى

ان الجناية المطـروحة عليـكم اليوم ليست من الجنايات العادية ، بل هى بدعة ارتج لهـا القطـر بأكمـله ، ابتدعهـا الوردانى وكان الى اليوم طاهرا منها .

لم يكن من قصدى أن أطيل الكلام فى الجريمـة من حيث ثبـوت ارتكابها ، فان المتهم سجل على نفسه باقـراره سواء فى التحقيـق أو أمام قاضى الاحالة أنه قتل المرحوم بطرس باشا عمداً بعد سبق الاصرار

---

(١) عن الكتاب الذهبى ـــ ص ١٩١ وما بعدها ـــ المرجع السابق .

على القتـل والترصد له ، ولكن الدفاع أسمعنا فى الجلسة الماضية ٣٣ شاهدا . سمعت شهادتهم وفكرت فيها فألقيتها تحوم من بعيد حول نقطة يريد الدفاع أن يدرأ بها عن المتهم مسئولية القتل من جهة خاصة ، ويخفف بها مسئوليته عن الجناية من جهة عامة .

فكان لابد لنا من الكلام عن هاتين المسألتين وان كنا لا نرى هذه الطريقة التى يسلكها الدفاع الا بعيدة جدا فى التأدية الى هذه الغاية .

وبعد أن تكلم سعادة النائب العمومى عن هاتين المسألتين باسهاب قال سعادته :

« الوردانى بجنايته قد عمد الى خرق حرية القوانين السماوية والبشرية . عمد الى قتل النفس التى حرم الله قتلها . عمد الى ازهاق روح بريئة من غير ذنب . عمد الى حرمان انسان من أقدس حق له فى هذه الدنيا . عمد الى حرمان عيلة من معيلها وأمة من رجالها وحكومة من رئيسها . عمد ، وأطاع هواه ، وأطلق رصاصته ، فماذا جرى ؟

فانظروا يا حضرات القضاة كم أساء الوردانى بجنايته الى هذا البلد الأمين الأسيف ! فماذا جنت عليه مصر ؟ ولماذا هو يضرها كل هذا الضرر ؟ لعله يدعى بخدمة الوطن .

ان الوطنية التى يدعى المتهم الدفاع عنها بهذا السلاح المسموم لبريئة من مثل هذا المنكر .

ان الوطنية الصحيحة لا تحل فى قلب ملأته مبادىء تستحل اغتيال النفس . ان مثل هذه المبادىء مقوضة لكل اجتماع .

فماذا يكن حال أمة اذا كانت حياة أولى الأمر فيها رهينة حكم متهوس يبيت ليلة فيضطرب نومه وتكثر هواجسه ، فيصبح صباحه ، ويحمل سلاحه ، يغشاهم فى دار أعمالهم فيسقيهم كأس المنون .

ثم استطرد سعادة النائب العام فى الكلام الى أن قال :

ماذا يريد الوردانى ؟ أيريد ألا يكون حكم ولا حاكم ؟ أيريد أن تكون الفوضى بعد النظام ؟ أيريد ضرا ودمارا عاجلين ؟

هذه ، يا حضرات القضاة ، الغاية التى استحل الوردانى من أجلها قتل النفوس ليصل بوطنه اليها خدمة له ومحبة فيه .

هذه هى الغاية التى ظنها شفيعا له لديكم ، وسببا لعطفكم عليه وشفقتكم به .

ان جناية الوردانى لأشد ضررا ألف مرة من جناية كل مجرم قاتل أو سارق أو قاطع طريق ، فان هؤلاء جنايتهم فردية وجناية الوردانى على أمته ووطنه . وهؤلاء يمكن الاحتراس منهم وهو يأخذ الناس فى مأمنهم غيلة وعلى غرة منهم وما لهم منه واق .

ان كان الوردانى أراد بفعلته أن يخدم بلاده فلقد ساء طريقه الى هذه الخدمة . ان كان أراد أن يحييها من الجناية فلقد صدع كيانها صدعا ، وأضر بها ضررا بالغا بتلطيخه صحيفتها بالدماء وقد كان أمامه لخدمتها طريق من طرق مشروعة .

كان فى وسعه أن يحارب خصمه بغير ذاك السلاح القاتل ، فان كان على حق خرج من هذا النضال بطلا شريفا سائرا به وبنفسه الى خدمة الوطن ، لا أن يلقى اليه تلك الرصاصات ليذهب به الى عدم يسير اليه قاتلا أثيما . بئست المبادىء مبادؤه ، ولعنة الله عليها باسم الانسانية التى انتهك حرمتها ، والحرية التى خرق سياجها ، والوطن الذى جنى عليه .

يا حضرات القضاة : الآن بيدكم الأمر . أن هى الا كلمة تخرج

من أفواهكم لا تسألون عنهـا الا أمام ضمائركم وأمام الله سبحانه وتعالى ، وبها تبددون ظلمات أحاطت بالبلاد ، وبها تستأصلون جرثومة خبيثة يخشى منها على عقول النشء • وأنا على يقين من أنكم ستجيبون صوت الحق والعدل •

فالانسانية تستصرخكم لما أصابها من جراء هذه الجنـاية الفظيعة فتحكمون بالاعدام على هذا الجانى •

دفـــاع

حضرة الأستاذ محمود بك أبو النصر

لما دعينا للدفاع فى هـذه القضية تمثل لنـا ذلك الحـادث الجلل بنتائجه وأسبابه ، فشعرنا بعظم المسئولية التى احتملناها أمام ضمـائرنا وأمام الله والنـاس • نعـم أن المسئولية كبرى ما كنـا لنتقـدم الى احتمالها لولا ثقتنا بعـدل القضـاء واسـتقلاله •

حدث ذلك الحادث الأليم فعمت الدهشة البلاد ، واستحكم الذهول فى بعض العقول ، فتسرع من تسرع الى اتخاذه مثارا لأحقاد وضغـائن يشهد الله أن لا وجود لها الا فى بيداء الخيال والوهم •

نعـم سـمعنا ، والأسف ملء قلوبنـا ، سمعنا صيحة كانت أشبه بأصوات الانتقـام منها بتكييف الحـالة الواقعة • أوشك الجو بهـذه الصيحة أن يزداد ظلاما فتشابه الأمر ، واتسعت دائرة المسئولية الجنائية عن مركزها الحقيقى • أخذ البرىء بغير البرىء ثم سيقوا جميعـا الى المحاكم فلم يلاقوا من عدل القضاء واستقلاله سوى ما تعلمون • وكان من نتائج هذا التهويل فى هذا الحادث والخـروج به عن حد المعقـول وحقيقته الثابتة أن قام بيننـا بالأمس ذاك الضيف الـكريم يدعو بمـا لا يعرف • ليته وقف بتهجمه عند حد البحث — خطأ أو صوابا — فى كنه

ذلك المصــاب العظيم ، ولكنــه أجلس نفســه ظلما على منصة القضاء وأصدر حكمه فى قضيتنا كما يشاء (يقصد بذلك خطبة المســتر روزفلت التى تهم فيها الأمة بالتعصب الدينى) ٠

أجل يا حضرات المستشارين ٠ لا مثل هذه الصيحة المنــكرة ، ولا ما هو أشــد وقعا منها ، واجــد سبيلا الى نفوسكم الكبــيرة وعقولكم الرزينة فى تقدير مسئولية الوردانى ٠ ذلك الذى اختارته الأقدار ليكون حكمكم فى حادثته مظهرا جديدا من مظاهر الاستقلال القضائى فى محاكمنا الجنائية ٠ اختارته ليكون حكمكم فى قضيته برهانا ساطعا على وجود تلك الضمانة الكبرى فى قضائكم المتعالى عن الشبهات ٠ اختارته ليكون حكمكم فى هــذه الظروف اثباتا شافيا للنــاس عن معنى ذلك الثبــات الكامل ، والسكينة المطلقة ، والتجرد عن كل شيء الا عن النظر الحر فى تلك الحادثة مع رعاية الظــروف والأسباب فــلا تهزمكم صيحة ، ولا يؤثر فى رأيكم ضوضاء ٠

ثم أخذ الأستاذ أبو النصر يتكلم عن سبق الاصرار والسبب الذى دفع المتهم الى ارتكاب جريمته ٠ وبعد أن انتهى من كل ذلك تقــدم الى المحكمة بطلب الرحمة ٠ ومما قاله فى ذلك :

لا أريد بالرحمة أن تتجاوزوا للمتهم عن شيء مما يستحقه عــدلا ، لأنى لا أقول ان الرحمة فوق العــدل ، بل أقول ان الرحمــة هى أقصى وأســمى مرتبــة من مراتب العــدل ٠ فاذا طلبتها فانما أطلب العدل فى أرقى معانيــه ٠

أطلب العــدل المجــرد من كل مؤثر ٠ ذلك العــدل الــذى يقضى بقصاصين ، مختلفين اختلافا كبيرا ، على شخصين ارتكبا جريمة واحــدة فى ظروف متشابهة لما يتبين فيهما من اختلاف الطبائع ، وتغاير المقاصــد وتباين الأسباب ٠

انى على ثقة تامة من أنكم ستقدرون لهذا المتهم من زمان العقـوبة ما يصلح تقـديره لمثله • وبديهى لديـكم أن قليـل العقوبة عنده يعادل كثيرها عند غيره من المجرمين العاديين •

رب ساعة واحدة فى السجن تعـادل شـهرا أو أياما • العقـوبات مقدرة ، وأرقاها فى سـلم العـدل ما روعيت فيـه أحوال الارادة صحة واعتلالا وقوة وضعفا ، وهو ما لا سبيل اليـه الا باعتبـار المشخصات الذاتية لكل متهم ، والظروف الخصوصية لكل تمهة • فاذا اقتضى العدل أن تعاقبوا فلتكن العقوبة على هذا المبدأ القويم •

فاحكموا وسيحفظ التـاريخ حكمكم فى هذه القضية ليكون آية من آيات العـدل • فلا تنسـوا للمتهم ما قدمته من الاعتبـارات ، وعـلى الخصوص تحرر عمله من سبق الاصرار ، وتغلب الأسـباب على ارادته وتاثيرها فى مزاجه العصبى الى الحد الذى عرفناه •

دفـــاع

حضرة الأستاذ أحمد لطفى بك المحامى

ترافع الأستاذ أحمد بك لطفى عن المتهم وطلب من المحكمة اعتبار الواقعة مجـرد شروع فى قتل لأن الوفاة لم تنشأ عن الاصـابات التى أحدثهـا به المتهم • وكذلك طلب أن يوكل الى طبيب أختصـاصى فحص المتهم لتقدير مسئوليته عن الجريمة التى ثبتت عليه • وبعد الانتهاء من دفاعه خاطب المتهم بما يأتى :

أما أنت أيها المتهم

فقـد همت بحب بـلادك حتى أنساك ذلك الهيام كل شىء حولك ،

أبيك واجبا مقدسا هو الرأفة بأختك الصغـيرة وأمك الحزينة فتركتهما يبكيـان هذا الشـاب الغض ، تركتهما يتقلبـان على الجمر • وتركتهما يقلبان الطرف حولهما فلا يجدان غير منزل مقفر غاب عنه عائله • تركتهما على ألا تعود اليهما وأنت تعلم أنهما لا يطيقان صبرا على فراقك لحظـة واحدة فأنت أملهما ورجاؤهما •

دفعك حب بلادك الى نسيان هذا الواجب ، حجب عنـك كل شيء غير وطنك وأمتك ، فلم تعد تفكر فى تلك الوالدة البائسة وهذه الزهـرة اليانعة ، ولا فيما سينزل بهما من الحزن والشقاء بسبب ما أقدمت عليه •

ونسيت كل أملك فى هذه الحياة ، وقلت أن السعادة فى حب الوطن وخدمة البلاد ، واعتقدت أن الوسيلة الوحيدة للقيام بهذه الخـدمة هى تضحية حياتك ، أى أعز شيء لديك وادى أختك ووالدتك ، فأقدمت على ما أقدمت راضيا بالموت لا مكرها ، ولا حبا فى الظهور • أقدمت وأنت عالم أن أقل ما يصيبك هو فقدان حريتك ، ففى سبيل حرية أمتك بعت حريتك بثمن غال •

فاعلم اذا أيها الشاب أنه اذا تشدد معك قضاتك — ولا أخالهـم الا راحميك — فلذلك لأنهم خدمة القانون وهذا هو السلاح المسلول فى يد العدالة والحرية،واذا لم ينصفوك — ولأظنهم الا منصفيك — فقد أنصفك ذلك العالم الذى يرى أنك لم ترتكب ما ارتكبته بغيـة الاجـرام ولكن باعتقاد أنك تخدم بلادك ، وسواء وافق اعتقادك الحقيقة أو خالفها فتلك مسألة سيحكم التاريخ فيها • وان هناك حقيقة عرفها قضاتك وشهد بهـا الناس وهى أنك لست مجرما سفاكا للدماء ، ولا فوضويا من مبادئه الفتك ببنى جنسه ، ولا متعصبا دينيا خلته كراهية من يدين بغير دينه • انمـا أنت مغرم ببلدك ، هائم بوطنك ، فليكن مصيرك أعماق السجن أو جدران المستشفى فان صـورتك فى البعـد والقرب مرسـومة على قلوب أهلك وأصدقائك • وتقبـل حكم قضاتك باطمئنان واذهب الى مقرك بأمان •

مرافعـــة

حضرة الأستاذ ابراهيم الهلباوى بك

بعد أن ترافع الأستاذ الهلبـاوى فى القضية وبين الظـروف التى ارتكب فيها الحادث وحالة المتهم العصبية ختم مرافعته بالكلمة الآتيـة :

خدمت نحو الخمسة والعشرين عاما محاميا ، ولم يخطر ببالى يوما أن أسأل أو أقرأ سبب اختيار الرداء الأسود حلة رسمية للمحـامى الذى يتشرف بالدفاع بين يدى القضـاة ، ولا سبب انتخـاب اللـون الأخضر لأوسام الذى تزان به صدور من عهد اليهم اصدار الأحكام النهائية •

أما الآن وقد أبعدت عن قلبى هذه القضية كل راحة ، وجعلتنى مرآة لتلك القلوب المتفطرة كأم المتهم وشقيقته وباقى أهله ، قلت ان كان مختار هذه الألوان أراد باللون الأسود رمز الحداد والمصائب للمحامى الـذى يمثـل القـائم هو الدفاع عنه ، وباللون الأخضر الـذى يتحلى به صدر القاضى ، الرمز الى الطاووس ذى الريش الأخضر وهو مثال ملائكة الرحمة فنعم الاختيار •

كأننا نحن،هنافىهذه القاعة،أمام أولئك القضاة المشبهين بملائكة الرحمة على سطح هذه الأرض،نقوم ــ على نوع ما ــ بمأمورية شبيهة بمأمورية تلك الأحبارفىهياكلهم الذين اتخذوا مثلنا ثياب الحداد وهم يتضرعون الى مبدع السموات والأرض بأن يفيض على الأرواح الذاهبة الى دار الخلود سحب رحمته وغفرانه • **ونحن هنا نقول لكم انكم تذكرون انه ليس دائما بمقدور لهـذا الانسان الضعيف أن يحمى نفسه من الخطر والزلل ، وان يعيش معيشة الملائكة ، فتقبلوا دعاءنا فى طلب الرحمة للأحياء كما يتقبلها**

من أقامكم حكما فى عباده ، والذى علمنا أنه كما أن من صفاته العدل فان من صفاته الرحمة ، وعلمنا فوق هذا أن الرحمة فوق العدل •

الآن لى كلمتان أوجهها الى المتهم بين يدى القــاضى : الأولى أنى اذا كنت قاسيا عليه فى نعته فلأنى خاضع لقانون ليس دائما ــ من سوء البخت ــ ملتئما فى أحــكامه مع ما توصى به الذمة والضمير ، لأنه مضطر فى أحوال كثيرة ــرعاية لسلامة المجتمع البشرى وصيانته ــ أن ينظــر نظرا آخر فى تعريف الحل والحرام ، ونحن المحامين أحق الناس بالأدب والخضوع لهذا القانون • فاذا قبل الدفاع عذرك أيها المتهم وعرضه على قاضيك فعليك أنت أيضا أن تتقبل قبولا حسنا عذر الدفاع فيما خالفك فيه من عقائدك السياسية • الثانية أنى اذا أنزلتك منزلة المجــرمين العاديين وطلبت لك الرحمة والغفران ، فلأن ذلك واجب أيضــا يقتضيه الدفاع • ولكن اذا أبت نفسك أن تعيش بين السلاسل والأغلال ، وأن تعيش معاملا معاملة الأشقياء وقطاع الطريق فارفع نفسك عن هذا السبيل ، واقبــل نبال الموت بقلب البواسل ، فالموت آت لا راد له ان لم يكن اليوم فغدا • اذهب الى لقاء الله الذى لا يرتبط الا بعدالته المجردة عن الظروف والزمان والمكان ،اذهب مودعا منا بالقلوب والعبرات • اذهب فقد يكون فى موتك بقضــاء البشر عظة لأمتك أكثر من حياتك • **اذهب فان قلوب العباد اذا ضاقت رحمتها عليك فرحمة الله واسعة •**

اذا كانت قلوب العبــاد قد ضاقت رحمتها من المتهم فانه يرجو من قضاته أن تتسع رحمتهم له •• واذا لم يسعفه لا هذا ولا ذلك فان رحمة الله واسعة وسعت كل شيء •

مرافعـــــة

حضرة صاحب السعادة عبد الخالق ثروت باشا

النـــائب العمومى

لـــدى المحـــاكم الأهليـــة

في قضية المؤامرة نمرة ٩١ جنايات سائرة الأزبكية سنة ١٩١٢
المتهم فيها أمام واكد محمود طاهر العربى ومحمد عبد السلام
في دور أغسطس سنة ١٩١٢

ان أول كلمة أفتتح بها مرافعتى اليـــوم هى حمـــد الله على وقاية البلاد من نكبة لم يشهد التاريخ مثلها .

امتدت منذ عامين يد أثيمة أودت بحياة كبير الوزارة المصرية اذ ذاك فأصابت بموته كبد الأمة المصرية فتناجزت عناصرها ، وتنافرت قلوبها ، وتمثلت فى الأقطار — بعد أن كانت مثال الهدوء والطمأنينة — أمة هائجة مائجة ليس لأحد بينها اطمئنان على نفس ولا مال .

بلاء عظيـــم وخطب كبـــير ! ما كانت البـــلاد لتخلص من نتائجه المشئومة ، وعواقبه السيئة ، ولا ما أتاح الله لها من أمير رحيم برعاياه ، محب لشعبه ، أخذ بحكمته وعلى مقدرته يعمل بمعونة رجاله ومشيريه على تقويم ما كاد ينقض من دعائم سعادة البلاد ، وتجديد ما غشى سمعتها من السوء ، ومداواة ما أصابها .

بينما كان سيد البلاد حفظه الله يعمل على مداواة هذه الأدواء ليل نهار لا يعتريه فى ذلك ملل ، ولا تثنيه عنه مشقة ولا تعب ، حتى أخذت الأمة بفضل تلك الأجهاد الشريفة تتنسم نسيم الاتفاق بعد الانشقاق ،

والالتئام بعد الانقسام ، أخذت بشائر الأعمال تبعث فى النفوس الآمال بتحسين الحال ، وأضحت الأمة تلمح بريق اليسر بعد العسر ، والفرج بعد الشدة كانت ابان ذلك تختمر من وراء ستار عزائم شر وخبث ، من ورائها كبير البلايا والمصائب •

نعم كانت هناك فئة من الأغرار المفتونين طاشت أحلامهم ، وعميت بصائرهم وقلوبهم ، وخبثت نفوسهم فلم يروا من النور الا ظلاما ، ومن اليسر الا عسرا ، ومن الخير الا شرا ، ومن النظام الا ظلما ، ومن وجوب المحافظة على القانون الا استعبادا ورقا •

فئة عطلت عن التربية الصحيحة ، وتسممت عقولهم بشر المبادىء فلم يروا للبلاد — وهى فى طمأنينتها سائرة فى طريق سعادتها — خيرا من اراقة الدماء فيها أنهارا ، والايذاء بنفوس عالية غالية تدأب أبدا لخير أمتهم البريئة مما كانوا يفعلون •

ألم يروا خيرا من قتل كبار البلاد المخلصين لها ، خيانة وجبنا ، واغتيال الأرواح الطاهرة المطمئنة ، خلسة وخسة ، هؤلاء هم أولئك المتهمون الماثلون أمامكم اليوم ليلقوا جزاء شرورهم وسوء ما كانوا يدبرون ، وان فى تاريخهم لعبرة •

ثم أخذ سعادة النائب العام يتكلم عن تاريخ حياة المتهمين وأخلاقهم وشعورهم نحو حكومة ذلك الوقت ، مستشهدا على ذلك بما كان يكتبه المتهمون • ثم أخذ فى سرد وقائع الدعوى وتكلم عن التطبيق القانونى ثم ختم مرافعته بما يأتى :

الآن يا حضرات المستشارين ، وقد قمت بواجبى فى هذه القضية من شرح أدوارها وتفصيل وقائعها وبيان أدلتها ، لم يبق الا كلمة أوجهها اليكم خصيصا أنادى بها فيكم الحكمة والنظر البعيد •

أنادى الحكمة والنظر البعيد ولا أنسى أن فيكم معهما الرحمة والعدل ٠

كان لنجاة البلاد من كبرى الكوارث هزة وضجة حمدا لله على دفعها ٠

ولكن عتم هذا الشعور ما أدركه الحكماء منا أن الداء الذى كنا نأمل أن أولى جراثيمه قد أتى عليها القضاء العادل من عامين ، قد ولد جراثيم أخرى هى فى الخطر مع الأولى سواء ٠

أدرك الحكماء منا ذلك ٠ وأدركه بعدهم الناس عامة فملئوا ذعرا ورعبا ، وحق لهم أن يذعروا من أن تصبح الأرواح الغالية تحت رحمة أغرار لا عقل ولا تربية ٠

ان أشد ما ينتاب بلادا من الفوضى والاضطراب أن يصاب حكامها وساستها فى طمأنينتهم على أرواحهم من جراء قيامهم بالواجب المفروض عليهم ٠

انى أخشى أن أزيد رعب الناس ان قلت ان الداء الذى نخشاه هو ذلك الخطر الجلل ، ولكن خير لنا أن نعلم من أنفسنا الآن ما قد نأسف على معرفته يوم لا ينفع الندم ٠

نعم خير لنا أن نعرف مقدار هذا الخطر الداهم ، فما أشد الحالة التى يصبح فيها الانسان رهين حكم متهوس قد يرى فى كلمة أو عمل ، هما خير ما تقتضيه الظروف وتمليه الحكمة الصحيحة والعقل الراجح ، مثارا للقتل ومسوغا للاعدام ٠

اننا أمام تيار جارف ان لم نقف فى سبيله نزل بعقول سفهاء شبابنا الى منزلق فيه بلاء البلاد ٠

لقد بدأ هؤلاء الشبان يفكرون فى استباحة القتل واراقة الدماء تخلصا مما صور حمقهم من الشقاء قبل أن يفكروا فى الخلاص من جهالتهم التى هم فيها يعمهون •

ان هذه الأفكار الطائشة الخطرة كالسلاح فى يد المجنون الهائج ، ان لم يعجل بنزعه منه قوة واقدارا كانت العاقبة وبالا •

وعلى من هذا الواجب الخطير الشريف ؟

أنه عليكم الآن يا حضرات المستشارين •

امحوا هذه الأفكار الخطرة ، وانزعوا هذا السلاح القاتل •

انزعوه من أيدى هؤلاء المفتونين قبل أن يصيب البلاد شره المستطير •

انزعوه بحكم ترضاه الحكمة وأصالة الرأى •

انكم بذلك لا تكسفون الرحمة والعدل ، بل تزيدونهما رواء وجمالا •

أليس من الرحمة والعدل أن تحموا أرواح الأبرياء ؟

أليس من الرحمة والعدل أن تبعثوا الطمأنينة فى القلوب الواجفة ؟

أليس من الرحمة والعدل أن ترحموا صغارا كالغصون الرطبة أوشكت أن تلتوى على الشر تقليدا أعمى للمتهمين وأمثالهم ؟

قد أجهدت نفسى فى هذه القضية حتى أطمأن ضميرى واقتنع بأن من وضع القانون يده عليهم هم الجناة العاتون ، فقدمتهم للقضاء العادل لينالوا جزاء شرورهم وسوء ما كانوا يدبرون •

قدمتهم وأنا راج أن ما اقتنعت به بحق فى اجرامهم سيقنع ضمائركم بعد الروية والنظر الصحيح •

قدمتهم وأنا مؤمل أنكم ستقفون حيال شرور كثـيرة وتردون عن البلاد بؤسا وشقاء كان المتهمون مجلبة له .

أنتم يا حضرات المستشارين من خيرة أبناء البلاد وأعرف النـاس بأحوالنا وأدوائنا ، فزنوا نتائج ما كان المتهمون مقدمين عليه .

زنوا نتائج ذلك ونتائج حكم حكيم يمحو هذا السوء ، ويقينـا شر ماكاد يدهمنا ، وما نحن منه موجسون .

زنوا ذلك وعلموا صغار الأحلام والطائشين أن اللعب بالنـار فيه أذى وآلام وحرق وسقام .

ان هى الا كلمة تنطقون بها ترجو الأمة أن يكون من ورائهـا عبرة كبرى لأمثال هؤلاء المتهمين فلا تقوم لهم من بعدها قائمة .

قد كان شديدا علينا يوم أن جر على البلاد ما فعـله السفهاء من ضرورة سن قانون الاتفاقات الجنائية . ذلك القانون الاستثنائى الـذى فى وجوده مسبة على أمن الديار ، وحجة قائمة على أننـا دائمـا تحت خطر الاضطراب والهياج .

كان ذلك علينا يوما عصيبا ، لن يهـون شـقاءه ويخفف منـه الا الأمل فى ألا يشهد المستقبل ذلك اليوم الذى تمس فيه الحـاجة الى العمل به .

كم كنا نأمل ألا يأتى ذلك اليوم الكـريه ، ولكنـه أتى على أشنع ما نكره وأشنع ما كنا نخاف .

أتى ذلك اليوم العصيب ، وتوافق هؤلاء الأشرار على قتل رؤوس البلاد وحماتها ، وهل بعد ذلك من مصيبة ؟

توافقـــوا على ارتكاب هذه الجريمة الهائلة التى لا يمكن أن ينطق هذا القانون على جريمة أغظع منها .

أن كان شديدا علينا أن يوجد بين قوانينا مثل هذا القانون فاننـــا ـــ بعد أن قدر علينـــا أن تقع هذه الجريمة فى ديارنا ـــ لا مناص لنا من الاعتراف الآن بأنه الســـلاح الوحيد الـــذى نستأصل به اليـــوم هذه الجرثومة الفاسدة .

نعم هو سلاحنا الوحيد فى ذلك قد وضعناه فى أيديكم نسألكم أن تصرعوا به هذا الشر الذى بدت نواجزه وكشر عن أنيابه .

أصرعوه بأشد ما فى القانون الذى بيدكم .

ليس فى ذلك من قسوة ولا تحيف فمـــا أشـــد ما نحـــن فيـــه من الظروف !

— ٦ —

قضية اغتيال المأسوف عليه السير لى ستاك باشا سردار الجيش المصرى والمتهم فيها عبد الفتاح عنايت وآخرون أمام محكمة جنايات مصر المشكلة برياسة حضرة صاحب السعادة أحمد عرفان باشا وعضوية كل من المستر كرشو ومحمد مظهر بك فى دور شهر مايو سنة ١٩٢٥

مرافعة

حضرة صاحب السعادة محمد طاهر نور باشا

النائب العمومى

قبل أن أشرح لحضراتكم وقائع هذه الحادثة المؤلمة التى لم يشهد تاريخ الحوادث الجنائية فى مصر مثلها ، أكرر أسف الأمة على مصابها فى قائد جيشها الذى قتل من أيد أثيمة وهو قائم بخدمة مصر التى لا تنسى له خدمته كما لا تنسى جميل كل من أحسن عملا فيها .

نعم قد جزعت الأمة لمصابها فى قائد جيشها ، لجناية ارتكبها فئة من الأغرار المفتونين الذين طاشت أحلامهم ، وعميت بصائرهم فخرجوا على ارادة أمتهم ، وانتحلوا لأنفسهم سلطة القضاء فى مهام لم يناطوا بها . جزعت لهذه الحادثة جزعا بادى الأثر ، فقد أظهرت مصر من أقصائها الى أقصائها اشمئزازا ونفورا أوحت بهما عاطفة صميمة كاملة فى نفوس هذا الشعب الذى يأبى أن يحقق آماله الشريفة الا بالوسائل المشروعة .

استفظعت الأمة هذا الجرم واستنكرته ، واشترك فى هذا

الاستنكار والاستفظاع الصغير والكبير ، وعلى رأس الجميع مولانا المعظم جلالة الملك حفظه الله .

ان مصر أم الحضارة والمدنية قديما ، والتى لا تنكر منزلتها فى عالم العلم والحضارة حديثا .

مصر التى يضرب بحسن ضيافتها الأمثال وشعارها (أحرار فى بلادنا كرماء لضيوفنا) .

مصر ، مثال الهدوء والطمأنينة ، قد تمثلت فى البلاد الأخرى بسبب هذه الكارثة والحوادث السابقة عليها أمة هائجة ليس لأحد فيها اطمئنان على نفس أو مال ، حيث قالت عنها بعض الصحف الأجنبية : « ان من الصعب الاعتقاد بأن أى أسف أو اعتذار أو تعويض يعوض عن اعتداء من شأنه أن ينزل مقام مصر الدولى الى منزلة أمة نصف متمدينة ، فانه ليس من المحتمل أن تنظر الأمم الأخرى ذات المصالح فى مصر نظرة التساهل الى هذا الاعتداء » . وألقت صحف أخرى تبعة هذه الجناية على الشعب المصرى الذى تأصلت فى نفسه العقيدة الدينية وهى تحرم قتل النفس وتنهى عنه ، والذى يعرف حق المعرفة أن وسائل العنف والاجرام أكبر جناية على الوطن .

ما خلت بلاد من المغتالين ومن حوادث الاغتيال . وقد وقع الاجرام على المصريين ذاتهم قبل أن يقع على سواهم ، وكنا نأمل أن أولى جراثيمه قد يأتى عليها القضاء العادل ، ولكنها مع الأسف الشديد قد ولدت جراثيم أخرى أشد خطرا وأعظم هولا جرت على البلاد شرورا كثيرة ، أضرت بسمعتها ، وأورثتها من المشكلات والخسائر ما يقتضى اضناء العقول واجهاد القوى زمانا طويلا لتلافيه ودرء عواقبه .

هذه الجراثيم الخطرة التى تولدت عن الجرثومة الأولى كان سببها

افلات بعض الجناة من يد العدالة ، فكانوا حربا على البلاد هم ومن كانوا على شاكلتهم من المتهوسين ضعيفى النفوس أمثالهم ، فاختاروا طريقا لا يجدون فى مصر من يوافقهم عليه أو يجاريهم فيه •

انحدرت هذه النفوس الضعيفة فى مأوى الجريمة والاثم بسبب تلبد الجو السياسى ، ورأوا أن وسائل العنف والاجرام بالخيانة والجبن تخدم البلاد وتنيلها أمنيتها ، وفاتهم أن العنف على مختلف صوره وأشكاله لا يمكن أن يجر على مصر وقضيتها الا الضرر والفساد ، ولم نسمع فى تاريخ أى أمة — حالها كحالنا — أن هذه الوسائل الاجرامية أنالتها أمنيتها •

فاتهم أن أشد ما ينتاب البلاد من الفوضى والاضطراب أن يصبح الأمر فيها بيد فئة من المفتونين اختلسوا الحق فى اقامة أنفسهم مقام الحكم والمنفذ ، فى أمور لا يكون الحكم فيها الا للأمة بأسرها •

فاتهم أن بلادا يصبح فيها الانسان رهين حكم المتهوسين لا تقوم ولن تقوم لها قائمة حتى يترك ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله •

فات هؤلاء الأغرار أن الاستقلال لا يكفى لصوننا ورفع مقامنا ، بل يجب أن نعرف كيف نصون استقلالنا • فبنشر التعليم واعلاء شأن الأخلاق والفضائل ، وتوثيق عرى الاتحاد بين أبناء الأمة ، نتمكن من صيانة استقلالنا ونتبوأ المكان اللائق بنا بين الأمم المتمدينة •

وبعد أن شرح النائب العمومى وقائع الدعوى ، وأتى على تاريخ حياة المتهمين ، وكيف توصل المحققون الى معرفتهم ، والأدلة التى قامت عليهم قال فى ختام مرافعته :

قد شرحت لحضراتكم أدوار هذه القضية ، وفصلت وقائعها ، وقد

أجهدت نفسى فيها حرصا على العدل وعلى سمعة البلاد كما قدمت •

وقد وضعت العدالة يدها على من عاثوا فى الأرض فسادا • عبثوا بالقانون لعواطف شريرة غلت فى صدورهم فأصمتهم عن صوت العقل ، وأعمتهم عن نور الحق •

لقد اطمأن ضميرى واقتنع بأن من قدمتهم للقضاء العادل لينالوا جزاء شرورهم هم الجناة السفاكون ، وأرجو أن ما اقتنعت به ، بحق ، سيقنع ضمائركم فتمحون هذه الأخطار الخطرة ، وتردون عن البلاد بؤسا وشقاء كان المتهمون مجلبة له •

نحن الآن ، يا حضرات المستشارين ، أمام خطر داهم ان لم نقف فى سبيله سرنا الى الهاوية •

فعلى حضراتكم أولا ، ثم على كل مصرى خبر الحيـــاة وعـــلى الأخص قادة الأفكار فيها ، واجب خطير شريف ، ان الامة المصرية تمقت بطبيعتها الاعتداء وقتل النفس التى حرم الله قتلها ، حانقة أشد الحنق على هذه الفئة الضالة التى اتخذت سفك الدماء صناعة ووسيلة ، ونرجو أن يكون من وراء حكمكم العادل عبرة وذكرى لأمثال هؤلاء المتهمين حتى لا يعود صغار الأحلام والطائشون الى اللعب بالنار • ولكن هذا العلاج وحده لا يكفى لاستئصال المرض من أساسه •

نعم ان قصاص القضاء العادل سيعيد الى البلاد حظـــا وافرا من السكينة يمكنها من أن تسير فى طريق التقدم والارتقاء ــ ذلك الطـــريق الطويل الكثير العثرات ، فاذا ما سرنا بحكمة وأصالة رأى قطعنا الطريق فى وقت قصير قضى سوانا فى اجتيازه وقطعه قرونا • والحكمـــة تقضى بالقضاء على هذا المرض الذى وان كان محصورا الآن فى فئة من الأغرار ضعيفى العقول الا أنه يخشى أن تسرى عدواه الى شبابنا الناهض الذى

تفخر به البلاد ، ولها فيه رجاء عظيم ، يخشى أن تسرى اليه هذه العدوى فتلتوى هذه الغصون الرطبة على الشر • وهاك الطامة الكبرى •

وها هى نصيحة جلالة المليك المحبوب الساهر على سعادة بلاده والعامل على اعلاء شأنها مسطورة فى خطاب العرش يجب أن تكون منقوشة فى صدر كل مصر لما فيها من العلاج الشافى •

الآن ، يا حضرات المستشارين ، قد قمت بواجبى فى هذه القضية فأطلب منكم أن تستأصلوا اليوم هذه الجرثومة الفاسدة بأشد ما فى القانون ، فليس فى ذلك من قسوة اذ نحن فى ظروف شديدة توجب ذلك •

— ٧ —

دفاع

الأستاذ الهلباوى بك عن شفيق منصور

قبلنا هذه المأمورية القاسية ، مأمورية أن نكون لسان حال هؤلاء التعساء ، ونحن نعتقد أننا أمام محكمة تصم آذانها عن كل ما هو خارج عن موضوع الدعوى • تقدر ظروف الاتهام وظروف الحادث والأدلة كما تقدرها فى القضايا الأخرى • هذا رجاء زاد تحققا عندما أعلن سعادة الرئيس فى جلسة أول أمس أن هذه المحكمة لا تعنى بشىء من السياسة وأنها تقصر نظرها على المسائل العادية كما تنظر الى بقية القضايا • زدنا ايمانا بأنها تحقق العدل فتعاقب بقدر الجرم ، وتبرىء من تعتقد فيهم البراءة •

نعتقد هذا • ولكن ، يا حضرات المستشارين ، الظروف التى أثرت فى هذه القضية ، والنتائج التعسة التى لحقت البلاد ، من المستحيل — ونحن نؤدى هذه المأمورية — ألا نتأثر بها • ولكن هذا التأثير يجب

أن يقف عند حد ،هو ما يعنى القــاضى عنــدما يقدر أســباب الجريمة ، وعندما يقدر النتائج التى ترتبت على الجريمة ، وعندما يقدر حالة المتهم وتربيته • تلك هى الأركان الأربعة التى نعتقد أنها ستكون بحسب القانون أساس بحثنا فنقف عندها •

سعادة النائب العــام بدأ مرافعته بأن وصف شفيق منصــور بأنه زعيم العصابة التى ارتكبت هذه الجريمة • ونحن مع اعترافنا بحســن تقــديره ، وبالنتــائج البــاهرة التى وفق اليها فى تحقيق هــذه القضية نستسمحه فى أننا نخالفه فى هذا •

ثم أخذ حضرته يشرح موقف شفيق منصور من التهمــة كشريك فى الجناية ويتكلم عن التطبيق القانونى بالنسبة له • ثم قال :

عرضت على حضراتكم أنكم الآن تعالجون مرضى أصيبوا بجنــون الوطنية • وأريد أن أتكلم عن شيوع هذه الجرائم ، وهو يدعو أحيانا الى التشدد فى العقوبة ، وهو يدعو أحيانا الى التلطف فيها •

فالجريمة التى وقعت والتى أخذت بعض الجرائد الانجليزية تنــدد بها علينا ، والتى أنتجت الانذار البريطانى الذى يقول اننا لا نستحق من أجلها أن نكون بين الأمم المتحضرة ، هذه الجريمة من واردات أوروبا •

ان أوروبا التى تمن علينا فى كثير من الأحيان بأن ما نحن فيــه من حضارة هو من ناحيتها ، يجب أن تتقبل أيضا ، الى حــد ما ، أن الجــرم السياسى هو من ناحيتها أيضا • فلم يكن الجرم السياسى موطنه هــذه البلاد أبدا ، بل لقــد أتى مرض القتــل السياسى من الغرب مع مرض الزهرى تماما • يجب أن تقبل أوروبا هذا أيضا ، فهى ملوثة فى جميــع أرجائها بمثل هذه الجرائم ، وبأفظع منها •

أكبر صيحة نرفعهـا فى وجه معلمتنـا أوروبا أن ٩٠ فى المائة ممن جروا فى هذا السبيل هم الذين طرحت بهم المقادير وتعلموا فى ربوعها . ذلك جناية خلقية ، لا غربية ولا شرقية .

نريد استئصال هذه الجراثيم . القاضى مهما كان لديه من الوسائل لا يستطيع القضاء على الجرائم . أحسن علاج أن تعيش الأمم خاضعة للنظام . اعدام غلامين أو خمسة أو ستة مثل هؤلاء السفهاء لن يعمـل فينا على اصلاح الداء . انما يرجع الداء الى أن الأمم ينبغى أن تعيش فيما بينها محترمة لقواعد النظام .

فمعظم العلماء يميلون الآن ، أيضا فى أوروبا التى نتعلم عنهـا ، الى نبذ عقوبة الاعدام . فايكم ، ولو أنى أمام محكمة فى أمة صغيرة غير معروف للغرب أنها تعطى حكما وأمثلة للعدل — ولكن ليس للعدل وطن ولا للحكمة دار — اذا استطعت أن أتقدم بين يديكم أن هذه العقوبة عـلاج خطـير تنفـر منه النفس الا فى الأوقات الخطرة فانى أستطيع أن أقول صونوا الهيئة الاجتماعية من خطر هؤلاء السفهاء . انتفعوا من قوة هؤلاء الشبان فقد ينفعون اذا تابوا ، وقد تصلح المقادير من أمرهم . وخصوصا وأن عقوبة الجرائم السياسية مبنية دائما على خطأ فى التقدير . هؤلاء البغاة يذكرون أنهم ارتكبوا الجريمة بحسن نية . هم كالمجنون الـذى يتوهم خوفه من البرىء فيقتله . فى عرفهم هو قصد الخير . أنا لا أطلب منكم أن تحترموا هذا ، وانما وأنتم تزنون قدر العقوبة عليكم أن تزنوها بقدر فكر الجانى . أعفى القانون القاصر من عقوبة الاعدام لأنه عرف أنه لا يقدر تمام التقدير الظروف كلها .

هم مرضى . عرضوا على طبيب ينظر فى أمرهم دون غل ولا حقد . أنتم تعالجون مرضى الأرواح كما يعالج الطبيب مرضى الأجسام .

ومن أجـل هـذا أستطيع أن أقول أن هؤلاء المجرمين يستحقون عدلكم .

هذه الدار تمثل رحمة الله فى الأرض فأطلبها منكم لهؤلاء الأغرار .

هناك سبب أتضرع اليكم أيضا بأن يكون سبب رحمة . هذه الجريمة كان يرمى خطرها الى ايذاء العلاقة بين مصر وانجلترا فكان ما لا بد منه ، أن تتـدخل السياسة الانجلـيزية . وقد تدخلت ، واحتملت مصـر أن تكفر عن هذه الجريمة . دفعت تعويضا لا يقل عن نصف مليون جنيه . فهؤلاء الأغرار الأشرار حملونا كل هذا المصاب . لهم الحق أن يقولوا لكم ان سعادة النائب العام قال (ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب) .

اتفقت كلمة الأئمة على أن دفع الدية ينفى توقيع العقـوبة . وقد دفعت مصر الدية فأرجو أن تدخلوا ذلك فى اعتباركم .

فأرجو أن يعرف الانجليز أننا أمة تعرف الجميـل وتعـرف الرحمة فنرجوا ألا يؤاخذونا بما فعل السفهاء منا .

قيل لكم أمس أن هـذه هى القضية الأولى من نوعهـا التى تعرض على القضـاء المصرى ، وأنا أعتقد أن عودة القضـاء فيها الى نظـامه العـادى قد جعلتها بين أيدى قضاة ممن تتشرف بهم الأمم فيما يتعلق بصيانة المصالح ، فأؤكد لكم أن الطمأنينة قد عادت الى كثير من البلاد .

لا أقول ان الانجليز غير عادلين ففخر الأمة الانجلـيزية عدالتها . لكن اذا اعتز المصرى بعودة قضاته الى النظر فى أموره كلهـا فانما هـذا ترضية لشعوره واحساسه بالعبء الذى يلقى على عاتقه .

يا حضرات المستشارين : أهل المتهمين جميعا يتقـدمون لـكم طالبين الرحمة مع اعترافهم بما حدث .

— ٨ —
دفـاع
الأستاذ وهيب دوس عن شفيق منصور

يا حضرات استشارين :

فرض القانون — فيما فرض ضمانا لحسن سياسة القضـاء واقامة العدل بين الناس — أن لا يتقدم متهم أمام هيـكل قضـائكم الجنـائى دون أن يرافقه فى هـذه الرحلة الأليمة محام يتولى الدفاع عنـه — محام يشترك معكم فى شرف خدمة القـانون ويرتفع عن أوساط المتهمين الى الوسط الذى يفهم فيه معنى العـدالة كمـا تفهمونه أنتـم ، ويقدر أغراض الشارع التى وكل اليكم تحقيقها كمـا تقدرونها ، فيعرض عليكم المتهم كما يجب أن يعرض — بريئا أو مذنبا — **ويصـور لكم العـواطف التى اجتاحت نفسه وعصفت بوجـدانه فأفقـدته أسـمى ما يتحلى به الانسـان فى انسانيته ، وأرقى ما يطمح فى السمو اليه من فضيلة الرفق والتضحية والتسامح التى لو سـادت لما اجترم مجـرم جـرمه ، ولما قامت الحاجة لنظام القضاء .**

أوجب القـانون هذا ، مع افتراض أن يكون بين هـؤلاء المتهمين معترف أو متلبس بجريمتـه دون أن يحـرم هـذا الفـريق من هـذه المساعدة ، أو يقلل من أهميتها بالنسبة له ، فكان قضـاؤكم باطلا اذا لم يسترشد بدفاع المحامين الذين أصبحوا ركنا أساسيا فى القضاء الجنائى تسعى الى تحقيق قيامه نفس السلطة التى تقيم الدعوى اذا قصر المتهم فى حق نفسه فلم يسع اليه أو حتى اذا رفضه هو رفضا باتا .

فلم يكن هذا الواجب عبثا ، يا حضرات المستشارين ، لأن المهمـة التى شرفنا الشارع بتقليدنا اياها — مهمة الدفاع عن المتهمين أمامكم — لا تقوى النفوس البشرية أن تجمع بينها وبين مهمـة القضـاء . فنفس

القاضى وهو يجلس للقضاء عرضة لتنازع العوامل المختلفة ، والأهواء المتباينة • بحكم مركزه يتبين مصاب المجنى عليه ، فيتصور حال من أصابهم الجانى بجنايته ليقدر مبلغ أثرها فيهم ليسترشد بذلك فى حكمه • وعليه أيضا أن يتبين نفسية المتهم ، وما تفاعل فى نفسه من الأغراض والشهوات ، ومبلغ أثرها فى حسن تقديره لما أقدم عليه • على القاضى أن يحيط بهذا وذاك وهو بغير شك عرضة الخطأ فى التقدير بين مختلف هذه الأهواء والشهوات • ومن هنا وجدت الحاجة الى من يقيم الدعوى ومن يدافع فيها ، ليتفرغ القاضى الى وزن ما يعرض عليه دون اجهاد فى البحث عما يجب أن يعرض •

لهذا كان شرف المحاماة عظيما بهذا المكان الأسمى الذى حلت فيه تحت هذا النظام ، ولهذا جئنا ندافع أمامكم عن هؤلاء المتهمين تقديرا منا لهذا الشرف رغم ما أرجف به الكثيرون من تشويه جمال هذا الموقف الذى نقفه كمحامين نرتدى هذا الرداء ونخلع فيه عن أنفسنا كل رداء آخر قد يعطل من جهودنا فيما لو أعرناه التفاتنا وجارينا هؤلاء المرجفين فى اعارته اعتبارنا •

يظن العامة ، يا حضرات المستشارين ، أن اعتراف المتهم باجترام الجرم يخفف عبء القضاء على القاضى ويهون له سبيل الحكم فى الدعوى•

لقد ضل العامة فى زعمهم • وأمامكم الفرصة سانحة لخدمة العدالة بالقضاء على هذه الضلالة •

اذا أنكر المتهم وأقيمت عليه البينة كان عمل القاضى هينا فهو لا يتقيد الا بالعمل المادى ، وهذا قد أقيم عليه الدليل فلا ينبغى الا توقيع العقاب فيوقعه القاضى وهو قرير العين ، طيب النفس للخدمة التى أداها للمجتمع •

أما المتهم المعترف بجريمته فيقدم لقاضيه وسريرته على كفيه يبسطها أمامه مطالبا اياه بأن يحل نفسه محله ، ويتصورها محوطة بظروفه ، وأن ينزل الى دركه فى الفهم وفى مبلغ أثر الحوادث فيه — يطالبه بكل هذا لأن القضاء لا يقوم الا بتفهم هذا جميعه . ومن أجل ذلك ترك لكم ذلك المدى الواسع بين أقصى العقبة وأدناها . والمفروض فى جميع الأحوال أن الفعل المادى واحد ، ولا يجىء الفرق فى الحكم الا لاختلاف ما يفهمه القاضى من جميع تلك العناصر المختلفة والأهواء المتباينة .

لهذا كانت مأموريتكم ، يا حضرات المستشارين ، حال المتهم المعترف أشق وأدق منها فى أى ظرف آخر . حتى فى حالة الجريمة التى يعتذر المتهم عنها باحدى شهوات النفس الأولية كالانتقام والغيرة والسرقة للفاقة والغضب لعدم ضبط العواطف .

فاذا كان هذا هو حالكم فى تبين تلك الشهوات الأولية فكم يكون واجبكم أشق اذا كانت مقدمات الجريمة تشتبك فيها العواطف وتأخذ فيها الشهوات بعضها بأعناق بعض ، وتتناقض فيها الحالة النفسية للمتهم الواحد تناقضا لا يتفق مع النتيجة على ظاهر الحال ، ولا يمكن فهمه الا بالجهد والعنت .

لهذا كان اشفاقى عظيما على نفسى ، وعلى حضرات زملائى الذين كلفوا بالدفاع فى هذه الدعوى عن المعترفين من المتهمين ، وكان اشفاقا أعظم على حضراتكم ، وفى أعناقكم مسئولية الحكم وعليكم وحدكم تبعته ، وضمائركم بين ضلوعكم تستحثكم لتلمس قبس النور فى هذا الظلام الحالك فلا تكادون تتبعونه حتى يختفى . وبدون هذا القبس لا تملكون الحكم ولا تذوقون طعم الراحة اذا أنتم حكمتم .

حضرات المستشارين : ستخلون الى أنفسكم اذا ما فرغنا نحن من

القيام بواجبنا ، وستعرضون أمام خيالكم الجريمة بما أحاط بها من ظروف مفجعة ، وما ترتب عليها من نتائج بعيدة المدى قد يكون من أثرها تعطيل تقدم البلد أحقابا أو أجيالا • ستعرضون أمام خيالكم المجنى عليه عائدا من بلاده بعد أن قضى فيها شهور راحته ، وتاركا وراءه اخوانا وخلانا على أمل لقائهم قريبا — عائدا ونفسه مملوءة بالآمال فى المستقبل وقلبه مفعم بالمشروعات التى ينوى أن يخدم بها وطنه •

وسيأتى حتما فى هذه الصورة خيال زوج ذلك الشهيد وفخرها واعتزازها بهذا الذى يمثل لها الرجولة الحقة ، وأملها فى أن يخلد لها من الذكر الطيب ما يشتريه الناس بأرواحهم كاسبين • ستتمثلون هذا جميعه وغيره مما يعرض للمفكر عميق التفكير ، وتتصورون أن تلك الحياة النابضة وذلك الجسم القوى وتلك المواهب والآمال تتهدم فى لحظة واحدة ، فاذا بقائد الجيش لا يقوى على الكلام ، واذا بالموت يتسلل اليه برغم من أحاط به من أصدقاء وأحباب ، واذا بالبرق تتجاوب أسلاكه بخبر الفاجعة ، واذا بالرجل المملوء حياة ونشاطا طالما ملأ بهما ميادين القتال رهين حفرة تضيق به ويضيق بها •

يا حضرات المستشارين : **اذا ما تعاقبت هذه الصورة المفزعة أمامكم فثارت نفوسكم للحق ، وهمت بتوقيع العقاب على المجرم ، فتذكروا أنكم ورثتم أولياء الدم فى نظام القضاء الحديث ، ولكن الارث انتقل اليكم بعد أن تجرد من عاطفة الغضب والانتقام — انتقل اليكم القصاص العادل ، القصاص الذى فيه الحياة • فتذكروا هذا** ولا تنسوا أن للمسألة وجها آخر يجب استعراض صوره كذلك استعراضا دقيقا قبل أن تقولوا كلمتكم الأخيرة ، وبها تتعلق أرواح هؤلاء الأغرار •

ثم أخذ حضرة المحامى يترافع فى موضوع الدعوى ويشرح

للمحكمة المؤثرات التى دفعت هؤلاء المتهمين على ارتكاب جريمتهم الى أن قال فى ختام مرافعته :

تذكروا يا حضرات المستشارين اذا ما وضعتم القلم على القرطاس وقبل أن يجرى به قضاؤكم أن هؤلاء الشبان قضوا أعواما انغمسوا فيها فى الجريمة دون أن يكون لهم فى ذلك مصلحة •

تذكروا أن لهم عائلات يلبسها حكمكم السواد ، وأمهات وأخوات تخفض قلوبهن حنوا وعطفا ، وتجزع نفوسهن هلعا واشفاقا وان لهم عليكم دينا لا تملكون سداده اذا حكم القضاء • خاطروا بأنفسهم وتعرضوا للموت قتلا أو حكما فى سبيل مصر بحسب معتقدهم ، والأعمال بالنيات ، وهذا دين يشغل ذمة كل مصرى ، عليكم فيه نصيبكم ، فلعلكم موفون فى حكمكم باقالتهم من عثرتهم ، وانكم باذن الله لفاعلون •

مرافعـــة النيـــابة العمومية

فى قضية الجناية رقم ١٠٤ لسنة ١٩٢٦ الخاصة

بالاغتيـــالات السـياسية

فى دور شهر ابريل سنة ١٩٢٦

محكمـــة جنـــايات مصر

المشكلة برياسة المستر كرشو وعضوية حضرات كامل ابراهيم بك

وعلى عزب بك

— ٩ —

مرافعـــــة

حضرة صاحب العزة مصطفى حنفى بك

رئيس نيـــابة الاستئناف

فى هذه القاعة ، ومن خمس عشرة سنة مضت ، وقف حضرة صاحب الدولة عبد الخالق ثروت باشا النائب العمومى لذلك العهـد وأحد المجنى عليهم فى قضية اليوم ليترافع فى أول اعتداء سياسى حدث فى هذه البلاد يوم أن أطلق الوردانى رصاصاته على صدر بطرس غالى باشا . فقـــال يصف الاجرام السياسى .

(وهنا ذكر حضرة رئيس النيابة العمومية بعض فقرات من مرافعة المرحـــوم عبد الخـــالق ثروت باشـــا فى قضية مقتـــل المرحوم بطرس غالى باشا) .

بمثل هذه الكلمات البليغة ، والنصـــائح الغالية التى صـــدرت عن رجل خبر الدهر ، وعرك الأيام ، خاطب النائب العام قضاته وهى كلمات

ان حقت فى أول اعتـداء سـياسى فهى أحق اليـوم بعد أن قضت مصر خمس عشرة سنة تئن من هـذا الداء الوبيل ، وبعد أن تعدد ذلك النوع من الاعتداء حتى أقلق الذين يهمهم أمر هذه البلاد •

ومع أن المحكمة أجابت نداء النائب العام فقضت باعدام المتهـم الا أن هـذا العـلاج لم يستأصل الداء تماما • فان كان الوردانى قد أعدم فقد بقى شفيق منصور ومن على شـاكلته أحرارا طليقين يقتفون أثره ، ويعملون عمله ، وينشرون مبادئه الى أن انتهى بحـادثة السردار تلك الحادثة الأليمة التى فجعت لها الأمة والتى اصطدمت بآمال مصر ، بل لست مبالغا ان قلت لكم ان تلك الرصاصات الطائشـة التى أطلقهـا المتهمون على السردار انما هى رصاصات صوبت الى صدر مصر •

وبعد أن أخذ رئيس النيـابة العمومية فى سرد وقائع الدعوى ذكر تاريخ الاجرام السياسى فى مصر قال :

حضرات المستشارين :

الآن انتهى واجب مهنتى ، وبقى واجب وطنى • وان كانت هـذه المهنـة قد منعتنى فى الماضى أن أدلى برأيى فى هذه المسـألة التى أقلقت البال أعواما طوالا ، فان هـذه المهنـة نفسها هى التى أوقفتنى اليـوم هذا الموقف فأتاحت لى فرصة قلما تسنت مرة أخرى ، فمن الواجب ألا أتركها تمر دون أن أقول كلمة فى سبيل بلادى ، لا أكون فى هذه الكلمـة الا معبرا عن رأيى الخاص دون أن أمثل أحدا •

لقد ظل الاجرام السياسى فى مصر عهدا طويلا بدأ بمقتل المرحوم بطرس غالى باشا وانتهى بمقتل المأسوف عليه السردار وبين الفقيـدين ضحايا أخرى سقطوا فى ميدان الشهوات السياسية •

لقد بدأ التحقيق دولة عبد الخالق ثروت باشا وانتهى به سـعادة

طاهر نور باشا وبين النائبين العموميين نواب عموميون آخرون من ذوى العقول الراجحة ، والأفكار الثاقبة ، وقد وضعوا نصب أعينهم مصلحة بلادهم فعملوا على ابرائها من هذا الداء الوبيل فبحثوا ودققوا وبذلوا جهودا كبيرة فى هذا السبيل ، فان كانت المجهودات التى ظلت زمنا طويلا لم تنتج الا اتهام عشرات من الأشخاص فمن العدل أن نقرر هنا أن هؤلاء المتهمين أقلية بل أقلية تافهة لا تعبر الا عن رأيها فعليهم وحدهم أن يحملوا مسئولية أعمالهم ، وعليهم وحدهم أنيحملوا تبعتها .

واذا كانت هذه التحقيقات أيضا لم تثبت وجود أية صلة بين هذه الفئة القليلة ، وبين أية هيئة سياسية فمن الانصاف أن نقرر هنا أن مجموع الأمة برىء من هذا الاجرام .

حضرات المستشارين : قد يكون من حسن حظنا جميعا أن يعرض الأمر برمته على هذه المحكمة وهى أكبر هيئة قضائية مختصة فى هذه البلاد لتقول كلمتها . وقد تكون الكلمة التى تصدر منها هى أقرب الكلمات الى صدور الأمم المتمدينة .

لقد رأيتم بأعينكم وسمعتم بآذانكم كيف كانت الأمة تتفجع عند وقوع كل حادث ، وكيف كان ينبرى الزعماء الى تقبيح هذه الأعمال ، وبيان ما يلحق البلاد من جرائها ، فصم المتهمون آذانهم عن سماع أنين مصر ونصائح الزعماء . فكلمة منكم يا حضرات المستشارين قد تخفف آلاما تحملتها الأمة بصبر ، وتقضى على أراجيف أذيعت عن هذه البلاد بغير حق .

ستحكمون بادانة المتهمين أو ببراءتهم حسبما تستريح اليه ضمائركم الطاهرة ، ولكنكم ستقضون حتما أن مصر بريئة من الاجرام والمجرمين وستظل سائرة فى طريقها المشروع نحو غايتها المنشودة رافعة راية السلم حتى تتبوأ بين الأمم مركزا يليق بتاريخها الخالد المجيد .

— ١٠ —
دفـــاع
الأســتاذ مــكرم عبيــد

لقد أثارت هذه القضية بين الناس تباين نزعاتهم وأهوائهم شـــديد اهتمامهم وكامن عواطفهم ، وهذا طبيعى لأن القضية سياسية . والسياسة كانت ولا تزال عاطفة ، وسوقا لكل شهوة ، وميزانا لكل ضعف وكل قوة . ولقد نتج عن هذا الخلط بين السياسة والقـــانون أن اختلطت فى القضية أسباب الحق بالباطل ، والعدل بالظلم ، والصدق بالكذب حتى أصبحت مجمعا لكل تناقض ومضربا لكل مثل .

غير أن القضية قد أثارت أيضا هواجس الناس ومخاوفهم ، وهـــذا غير طبيعى ، لأن القضايا يقصد منها أولا وقبـــل كل شىء الوصـــول الى العدل ، والعدل تطمئن له النفوس ولا تجزع .

ولـــكن الناس خافوا — وحق لهم أن يخافوا — لأنهم خشوا فى هده القضية ذات الأهمية الاستثنائية أن يختل لها التوازن القانونى قبل أن تصـــل الى حـــرمة القضاة ، فتجر الى اجراءات استثنائية فى الاتهـــام والتحقيق ، ومن طبيعة الاستثناء أنه لا يعرف حدا ، لأنه لا يعرف قاعدة ، بل هو ضـــد كل قاعدة ، ولا يعبأ بعـــدل أو مساواة لأنه لا مســـاواة مع استثناء ، ولا يخضع لضمان لأنه لا يرى ضمانا الا فى هدم الضمانات ، ثم ان الاستثناء هو الفكاك من كل قيد . ومن سوء حظ البشرية أن هنـــاك نفوســـا اذا لم تكبح تجمح ، واذا لم ترعو لا تستحى ، وهنـــاك نفوس تجزع ، ونفوس تطمع . هكذا فالاستثناء ، مهما تلطفنا فى تسميته ، هو الظلم بعينه لأنه يفتح الباب لكل شهوة .

ثم أخذ حضرة المحامى يتحدث عن تصرفات البوليس فى هذه القضية وعن وجود جمعية سياسية للقتل السياسى ثم انتهى من مرافعته بالكلمـــة الآتيـــة :

يا حضرات المستشارين : لقد انتهى واجبى كمحـــام • ولا ريب أن واجب المهنـــة يتطلب كثـــيرا من الصنعة ، وأنـــه فيمـــا بين الأوراق والدوسيهات وشهادة الشـــهود والاتهام والدفاع يخلق جو خاص هو جو المحاكم ، وكثـــيرا ما تضيع على المتهم شخصيته فى وســط هــذا الزحام العلمى ••• فيصبح المتهم ويمسى فاذا به قد تحــول الى نظرية قانونية أو دليل يتراشقه الخصمان ، النيـــابة والمحـــاماة ، فهو فى نظر النيـــابة منـــدمج فى الاتهـــام وفى نظـــر المحاماة هو عبـــارة عن الدفاع ••• أما شخصية ، أما حريته ، أما عواطفـــه فهى فى نظـــر الاتهام مسألة ثانوية طالما أن القضية (مخدومة) •

وانى أؤكد لحضراتكم أنه ليس أقسى على المتهم من هـــذا التجرد عن شخصية ، هذا التنـــكر عن أهله وجنســـه ، فاذا دخل فالى سجن ، واذا خرج فالى قفص •

يجب ألا ننسى أن المتهم الذى هو فى السجن نمرة هو فى بيته حياة ومحبة • يجب أن لا ننسى أن المتهم الذى هو فى نظر النيابة اتهام هو فى الوقت نفسه أب وزوج وولد وأخ وصديق •

فلا تعجبوا اذن ، يا حضارات المستشارين ، اذا كلمتكم عن هـــؤلاء المتهمين كأشخاص وبشر ، فأنتم ولله الحمد لستم قضـــاة أوراق ، كمـــا وصف حضرة قاضى الاحـــالة نفســـه • أنتم — وانى لأرتجف من هـــول ما أنتم — أنتم قضاة نفوس بشرية أودع الله مصيرها فى كلمة تخرج من أفواهكم ، فأنتـــم لســـان الله وصوت القدر • فاقضوا اذن بيننـــا وبين شفيق منصور ، ذلك المجرم الذى قضى الله عليـــه مـــرات عديدة قبل أن يقضى عليه بشر ، اقضوا بين ضعفنا وقـــوة من اذا قـــال قـــدر ، فأنتم أقوى وأنتم أقدر •

— ١١ —

مرافعــــة

حضرة صاحب العزة مصطفى حنفى بك

رئيس النيــابة

فى قضية الجنــاية رقم ٣٦٦ بنــدر الجـيزة سنة ١٩٢٧ الخاصــة بالاعتــداء على المسيو ســلامون شكوريل ، وقتــله المتهم داريو جاكويل وآخرين أجانب •

حضرات المستشارين :

اسمحوا لى أن أؤدى واجبى ، فأعيــد الى ذكراكم حادثا أليما ، ذاك الجرم الشنيع الذى ارتجت له أركان البــلاد وتفزعت منــه نفوس الناس : قتــل تاجر من أكبر التجــار وأطيبهم نفســا وهــو وادع فى بيته ، آمن فى سربه ، وترملت سيدة كريمة لم تستوف بعد سن الشباب ، وتيتم أطفال صغــار مازالوا بحاجة كبــيرة الى جناح الأب الرؤوف • أقصد بهــذا مقتــل المأســوف عليه المسيو ســلامون شيكوريل بشارع الجيزة • ذلك الرجل الذى لم أكن أعرفه من قبل ولكنى عرفته من خــلال التحقيق : رب عائلة على أحسن ما يكون ، وزوج من أبر الأزواج ، ووالد من أطيب الآباء ورئيس شفيق بمرؤسيه • فقد تبينت كل هذه الصفات فى العيون الباكية ، وتلك الوجوه العابسة التى كانت تنم عما فى نفوسهم من حزن وأسى • حتى لقد كان كل منهم يرى المصاب مصابه والفقيــد فقيده فأبو أن يذهب هذا الرجل الى داره الأخيرة الا محمولا على أعناقهم •

حضرات المستشارين :

أنتم من شيوخ القضــاة ، خبرتم الدنيا فذقتم حلوها ومرها • وفى

هذه الساحة المقدسة ساحة القضاء العادل سمعتم شكوى المظلومين وسمعتم أنين المحزونين ، ورأيتم كيف تفقد الزوجة زوجها والأم ابنها والابن أباه فى ظروف وحشية قاسية ، وأرسلتم كثيرين الى منصة الاعدام بحكم القانون وأنتم هادئون مطمئنون • ولكن قلما أن تكونوا فى خبرتكم الماضية رأيتم شيئا فظيعا كالذى أعرضه عليكم اليوم ، رجل آمن فى بيته بين زوجه وأهله ، يؤخذ قهرا ليذبح كما تذبح الأغنام ، على مرأى من زوجه التى كادت تموت أسى وفزعا • اثنا عشرة طعنة فى صدر القتيل وظهره ، فارق بعدها الحياة وهو يتوسل اليهم بكلمات تذيب الحجر الصلب « خذوا كل شىء واتركوا لى الحياة » •

والذى يزيد الأمر فظاعة أن اثنين من المتهمين أكلا خبز القتيل وملحه ، بل لايزال ما فى بطن أحدهما من نعمة هذا السيد • فما استطاعت هذه التوسلات أن تدخل الرأفة على تلك القلوب القاسية •

قبل أن آتى على تفاصيل هذا الحادث أريد أن أدلى بكلمة شكر لحضرات المحققين الأجانب وأذكر منهم القاضى الايطالى جناب الكافاليرى امبالومينى والقنصل الشيخ باباداكيس وقاضى القنصلية اليونانية على المساعدة الكريمة التى أسدوها الينا فى تحقيق هذه القضية والتى كانت من الأسباب التى أدت الى النجاح •

ولقد ظهر بأجلى وضوح أن التضامن بين رجال التحقيق خير الوسائل للوصول الى الحقائق • وقد تكون هذه القضية من المرات القليلة التى تلاقى فيها القضاء الأجنبى بالقضاء الأهلى ، وعندى أن مثل هذا التلاقى سيكون له أثر بعيد المدى للوصول الى الغاية التى ننشدها ، وسيعدو بنا بخطوات سريعة نحو ذلك اليوم الذى تصبح فيه هذه التحقيقات بين أيد مصرية هى أشد ما يكون حرصا على اقامة العدل • لقد قام البوليس المصرى بواجبه فأضاف صحيفة جديدة الى صحفه المجيدة ، وقام المحققون من الأجانب والوطنيين بواجبهم وسيقوم القضاء

الأهلى بواجبه • وانا لمنتظرون بنفوس هادئة وبقلوب مطمئنة أن يقوم القضاء الايطالى واليونانى بواجبهما أيضا بما عرف عن هاتين الأمتين من حب العدل والانصاف •

ثم أخذ حضرة رئيس النيابة فى سرد وقائع الدعـوى والتطبيـق القانونى وأتم مرافعته بالعبارة الآتية :

يحق لى الآن ، يا حضرات المستشارين ، بعد أن تقدمت اليكم بهذه البيانات الكافية ، وتلك الأدلة القاطعة أن أطلب الى حضراتكم أن تقضوا عدلا باعدام المتهم •

نعم أن عقوبة الاعدام لن تعيـد الى الضحايا أرواحهم ، ولا الى الأيامى أزواجهـن ، ولا الى اليتـامى آباءهم ، ولكنهـا مع ذلك أقصى ما تصل اليه العدالة البشرية • أما عدالة الله فستكون شديدة ، جزاء وفاقا لما جنت أيديهم •

ولست فى حاجة لأن أعيـد على مسـامعكم تلك الحـكم التى دعت المجتمع الانسانى فى كل العصور أن يلجأ الى هـذا العقاب الصارم فهو ليس انتقـاما بل عبرة ، وفيـه مع ذلك عزاء للقلوب الحزينة ، وتهـدئة للخواطر المضطربة ، وتطمين للنفوس المنزعجة •

ولن تعـيروا ، يا حضرات المستشارين ، أى وزن لرأى الذين يقولون أن بعض المتهمين لا يقضى عليه بهذه العقوبة ، وأن من العدل أن يسـوى بينهم جميعا • نعم أن القانون الايطالى ألغى عقوبة الاعـدام واستبدل بهـا عقوبة أخـرى ، **ولكن رب حيـاة شر من الموت ، ورب موت خـير من الحيـاة •**

لقد قضى القانون الايطالى على هذه العقوبة منذ نحو أربعين عاما ، ولكن القوم من ذلك الحين يشعرون بحاجتهم الى هذا الجزاء الرادع ، بل

لقد أعيد فعلا فى جرائم خاصة . وعنـــدى أنه لن يمضى زمن طويل حتى تعود هذه العقوبة الى ما كانت عليه .

ولقد استبدلت بعقوبة الاعدام فى ايطاليا عقوبة الأشغال الشـــاقة المؤبدة التى تعرف عندهم بالأرجستولا . وشتان بين هذه العقوبة ، وبين عقوة الأشغال الشاقة المعروفة عندنا .

وقـــد قـــال المســـتر بوستن بروس فى مقال منشـــور فى مجـــلة "Law Quarterly Review" وصفا لهذه العقوبة ما يأتى :

« فما الأرجستولا الا اعادة لذكرى تلك الأهوال التى قاساها عبيد الرومان فى تلك السجون المظلمة » وهى السجون التى وصفتها بحق اللادى هاملتون كنج بقولها :

« ان هو الا اسم من الشر ، وشىء من الشر ، وجهنم على الأرض لا تمر بخاطر من كان فيه وساوس الأمل » .

ومع أن هذه السجون قد أدخل عليها من التحسينات ما اســـتدعاه تقدم المدنيـــة والاعتناء بالوسائل الصحية فهى لا تزال مقـــر الأشقياء ومقبرة الأحياء .

قضت المادة ٣٦٦ من القانون الايطالى بأن حـــكم على من يقترف جريمة القتل المقترنة بجريمة أخرى بالأرجستولا .

والأرجستولا هى ، كما تقول المادة ١٢ من القانون المذكور ، عقوبة مؤبدة تنفذ فى محل خاص يوضع فيه المحكوم عليه بالسجن الانفـــرادى

لمدة السبع سنين الأولى بالاستمرار مع ملزوميته بالشغل ، وباقي المدة يصرح له فيها بالأشتغال مع غيره من المحكوم عليهم مع التزامه الصمت .

وبحسب المادة٦٧ من هذا القانون يزاد على مدة الحبس الانفرادى المستمر مدة سنة الى خمس سنوات اذا اقترف الجانى عدة جرائم معاقب عليها بعقوبات مقيدة للحرية وكانت احدى هذه العقوبات هى الأرجستولا .

وقال المسـيو ادموند توريل المحامى بايطاليا فى مقـدمة عن قانون العقوبات الايطالى :

« انالأرجستولا هى أكبر عقـوبة فى القانون ، وهى مؤبدة يترتب عليها حتما نظام الحبس الانفرادى فى أقسى أشكاله » .

وقد يفزع الذين يحكم عليهم بهذه العقوبة ، ويستولى عليهم اليأس حتى يبحثوا عبثا عن الموت ، بل ثبت أن كثيرين لا يحتملون هذا العذاب المستمر فيموتون مبكرين ، وكثيرا ما يفقدون عقولهم .

وبودى لو كان لديكم من الوقت ما يسـمح أن أتلو على حضراتكم ما قاله النـواب الايطاليون عنـدما طلبوا اعادة عقوبة الاعدام لبعض الجرائم الى القانون الايطالى فقد نعتوه أنه أشد هولا من حكم لاعدام اذى استبدل به .

والحق أصارحكم ، يا حضرات المستشارين ، لو أن هذه العقـوبة كانت فى قانوننـا المصرى لرضيتها لمتهمى قانعـا بأن المجـرم قـد نال ما يستحق من عقاب .

ومع ذلك ما لى أنا لهذا البحث الذى استهوانى فأبعدنى عن موضوع

مرافعتى • فنحن فى مصر ، والقاتل والمقتول مصريان ، فانظروا حضراتكم الى قضيتنا بعين مصرية ، والشرائع الوضعية كما تعلمون تتغير بتغير الزمان ، وتختلف باختلاف المكان ، فما يصلح لمصر قد لا يصلح لغيرها ، والعكس بالعكس •

ان ظروف هذه القضية قاسية تدعوكم الى استعمال القسوة ، فلا تجعلوا للرأفة منفذا الى قلوبكم • وان لنا من عمل المتهمين أنفسهم مثلا ، فقد أبوا أن يرحموا القتيل فلا حق لهم فى الرحمة ، وأبوا أن يرأفوا بذويه فليس لهم أن يطلبوا الرأفة •

قد توسل اليهم أن يتركوا الحياة ويأخذوا ما عداها فأبو الا أن يكونوا قتلة مجرمين ، وسقوه كأس الموت مرا ، فعلى المتهم أن يجرع بالكأس التى سقاها فريسته • قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كتب كتب عليكم القصاص فى القتلى » •

فان كان سلامون شيكوريل قد مات بفعل الغدر والخيانة ، فليمت داريو جاكويه باسم القانون وكلمة الله ، والجزاء من جنس العمل •

لم يكن داريو جاكويل فقيرا ولا معدما دفعته الحاجة الى السرقة والقتل ، بل هو شاب نشأ فى بحبوحة من العيش ، ولو شاء لعاش شريفا ومات شريفا ، ولكنها نفس شريرة تصبو الى الجريمة بغير حاجة ولا سبب • **ومع أنه لايزال فى ريعان الشباب وزهرة الصبا قد سار فى طريق الاجرام شوطا بعيدا ، بل بلغ فى قصير من الزمن أقصى مداه فدل بهذا على أنه عضو فاسد يجب أن يبتر وجرثومة خبيثة يجب أن تستأصل•**

لست أخاطبكم بلسان النائب فحسب ، بل أخاطبكم بلسان زوجة ترملت وهى فى زهرة شبابها ، وأبناء تيتموا وهم فى حاجة الى ساعد

أبيهم ، أخاطبكم باسم هذه المدينة التى ما تجرعت من قبل هذا النوع من الاجرام .

وأناشدكم أن تلحظوا ما نحن فيه من ظروف ، فقبل هــذه الجناية حدث حادث آخر ذهب بحياة رجل وولده من يد مجرم أثيم حقت فيــه كلمة القضاء .

أخاطبكم كزوج وأب أشعر بمرارة الجــرم وفظاعته ، وأرجــو ، يا حضرات القضاة ، ان أنتم خلوتم الى خلوتكم المقدســة لتنطقوا بكلمة العدل أن تذكروا أنتم أيضــا أنكم آباء وأزواج وأن تذكروا قوله تعالى وهو أصدق القائلين : « ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب » .

— ١٢ —

مرافعــــة

حضرة الأستاذ صادق العجيزى وكيل النيابة

فى قضية الجناية رقم ٢٧ وايلى سنة ١٩٢٧

المتهم فيها أمين همام حماد أفندى عضو مجلس النواب

وآخرون بقتل الصحفى (شرف)

هذه هى عقلية حضرة النائب . وشخص يمثــل هذه العقلية وتلك الأخــلاق لا يمكن أن يكون الحــكم عليه حكما على الأمة . وليس هذا بالدفاع الذى يقال فى صدد تهمة فــردية لا علاقة للسياسة والأحــزاب بها . وما كانت النيابة يوما ما بمانعة القصاص . ففى أول الحرب حوكم كايو الشيخ والوزير الفرنسى ، وفى آخرها حكم على بوتوملى من أظهــر نواة انجلــترا وأحــد كتابهــا ، وفى مايو ســنة ١٩٢٦ حكم على النائب

الانجليزى سكلاتفالا . وفى كل يوم يسقط نواب وشيوخ ووزراء تحت سيف الجلاد ، ومع ذلك لا تتأثر الشعوب ولا البرلمانات ولا الأحزاب التى ينتمون اليها . فاقضوا قضاءكم العادل وأنتم مطمئنون الى أن الحكم بادانة النائب لن يصيب سمعة مصر بسوء . انطقوا بحكمكم الفصل وأنتم على ثقة من أن الأمة والبرلمان سيرفعون رؤوسهم مفاخرين بعدل قضاتهم . وطهروا البرلمان ممن لا يستحقون شرف النيابة عن الأمة ، وأفهموا المنتخبين أن يحسنوا اختيار ممثليهم ، وأفهموا أمين همام أن النائب وان كان يملك التشريع فانه لا يملك القضاء ولا التنفيذ . أفهموه أنه قد جاوز اختصاصه عندما نصب نفسه قاضيا على (شرف) وقضى عليه بالموت وأقام خادمه جلادا له . كونوا قساة فى حكمكم بقدر ما فى هذه الجريمة من الفظاعة والخروج على القانون .

— ١٣ —

مرافعة

الأستاذ عبد اللطيف محمود رئيس النيابة

فى قضية الجنحة رقم ١٤ دايرة عابدين سنة ١٩٣١ الخاصة بنشر مقال « حفلات الطرب ألم يكن الفقراء أولى بها ؟ » بجريدة السياسة

يا حضرات المستشارين :

لا نقرر نظرية جديدة اذا قلنا أن الصحافة هى مدرسة الأخلاق ، وهى مهذبة النفس ، القائمة على الشعوب لتعليمها وترقية مداركها بما يجب أن تتقدم لها كل يوم من بحوث شاملة لجميع نواحى الحياة فى أكرم لفظ وأقوم تعبير .

فالرجل الذى ينال شرف الانتساب اليها ، والاشتغال بها يجب أن يكون له من نتاج قلمه ، خير مثل يقدمه لمن يقرؤه ، وأن يكون له من خلقه أحسن قدوة لمن يطالعه •

ولقد كان بالود أن يكون حال الصحافة فى مصر كحـال الصحافة فى البلاد الأخرى • لا تعرف فى لغتها الا الترفع فى القول والأدب فى التعبير والاحترام لحرية الأفراد والجماعات ، والتبـاعد عن المطـاعن ، والضن بكرامتها عن الاختلاق ، وبهذا يمكنها أن تصل الى غرضها الذى وجدت له، فتؤدى مهمتها السامية بدون عبث أو خروج •

غير أنه مما يؤلم أن تجتاز مصر زمنا طاشت فيه الأقلام ، فخرجت عن اعتدالها ، وجاوزت مهمتها ، وهذا راجع الى تطرق عناصر ، أنزلت من قدرها ، وحطت من شرفها •

ولقد زادتها المبادىء التى قررتها بعض الأحكام ، الابسات خاصة على ما أعتقد ، استرسالا فى غيها ، واستهتارا بمـا تقضى به مهمتهـا ، وتجاوزوا لكل حد فى تعبيراتها ، فأصبح الأمر فوضى ، حتى لقد ظن أن الشذوذ هو القاعدة ، وأن الطعن مهما يكن جارحا فهو جائز ، وأنه يصح للكاتب أن ينال من شرف الناس ، ومن سمعتهم ، تحت ستار أنه نقـد مبـاح •

على أن هذه الأحكام على ندرتها قد وضعت شرائط للنقد لم يرد بعض الكتاب أن يفهمها على حقيقتها توصلا الى اساءة الاستشهاد بها •

ولئن كان من أهم أسباب نزول الصحافة عن مستواها الذى يجب أن تكون فيه دخول هذه العنـاصر التى لا تقـدر الأدب قدره ، أو تعرف للصحافة حقيقة مهمتها ، فلطالما عللنا النفس بأمل أن يقوم المثقفون من رجالها ، بتقويم اعوجاجها ، واصلاح ما فسد من شأنها ، والنهوض بها من كبوتها •

ولكنهم لم يكونوا عند حسن الظن بهم ، اذ سرت اليهم عدوى الأولين فاذا هم والأولون سواء •

وقضية اليوم ، تتعلق بكاتب معروف ، له من تربيته ، وثقافته ، ما يمنعه من استباحة قلمه ، يرسله من غير حق فى مواقف ما كان أغناه عنها ، ويشرعه ظلما فى صدور أشخاص لا ذنب لهم ، الا أنهم يقومون بواجبهم • ذلك الكاتب هو الدكتور هيكل بك الصحفى ، القانونى ، الأديب •

ثم أخذ رئيس النيابة العمومية فى شرح وقائع الدعوى والتطبيق القانونى ثم أتم مرافعته بالعبارة الآتية :

يا حضرات المستشارين :

اذا ما خلوتم لتقولوا كلمتكم ، فأشيروا الى أن حرية الصحافة ، أو بعبارة أخرى أن حرية النقد ، ليست هى حرية أخذ الناس فى شرفهم وفى كرامتهم ،بل يجب أن تكون حدود القانون ، مشبعة بروح العدالة ، لا لغرض الامتهان •

ان جرائم الصحافة أثرها بالغ ، وغورها بعيد ، أثرها ليس قاصرا على المتهم ومن جنى عليه وانما يتعدى الى الكثيرين •

ولن يستوى فى نظركم من يعرف القانون بتفصيله ، ومن له من علمه وتربيته ما يرشده الى حقائق الأشياء ــ لن يستوى هذا مع من هو جاهل بها •

فاذا ما أخذتم الصحفى على قدر علمه ، ووضوح غرضه ، فانكم تقومون بالاصلاح الذى نرتجيه ، فلا يولد بعد ذلك ضحايا ولا يوجد متهمون •

ان المطمئنين من الناس ، والقائمين بينهم ، يفـزعون الى عدلكم ، وهم يرجون بعـدها أن تأخذ الصحافة مكانهـا الصحيح ، مكان المهذب والمرشد الأمين ، عف اللسان ، لا سلاحا للتشهير .

عندئذ تصبح الصحافة فى مصر للخير ، وللخير وحده[1] .

— ١٤ —

مرافعــة

الأسـتاذ عمـر عارف

وكيل النيابة فى قضية الجناية

رقم ١٥٧٠ طهطا سنة ١٩٢٣

يا حضرات المستشارين :

فى اليوم السادس من شهر مايو سنة ١٩٣٢ روعت مصر ــ ريفهـا والصعيد ــ بزلزال كاد يطغى على قرية آمنة ، وينكب النـاس فى قوم أسلموا أنفسهم لراحة النوم فى قطـر تمـر سراعا لتبلغ بأصحابها مدنا قاصية من الصيد الأعلى . ولولا ما عرف عن مصلحة سكة الحديد من يقظة الحفظة الحارسين ونظامها الدقيق المكين ما نقلوا الى هذه المـدن قدما ، ولآثروا الدعة فى عقر دورهم على التعـرض للمخـاطر فى رحلة تحف بها الجرائم وبطيف الآثمون .

زلزلت الأرض فى طما زلزالها . ومصر جنة الله فى أرضـه . برأها نقية طاهرة على خير ما يشتهى الطامعون فى جنـة الخلد ، ليس فيها من زمهرير الشمال ، ولا زلزال جزر الاقيانوس ولا فيما يلى بحر الروم من جبـال النار .

---

(١) ملحوظة : قضى فى هذه الدعوى بتغريم محمد حسـين هيكل بك عشرة جنيهات .

نعم روعت مصر بهذا الزلزال ، وما كان للطبيعة يد فيه ولكنها يد الانسان • ويا ويل العالم أجمع من شر الانسان اذا ركب الشيطان كتفيه ، وناصب الآمنين العداء !

هذا اليوم تعده من التاريخ الجنائى فى مصر • نذكره فنذكر عنه هذه المأساة المروعة ، ونتبين فيه دما طاهرا لشهيد كان نكرة يدق أمره على الناس ، فلا يؤبه له فى طفولة ولا شباب ، فلما مات مجاهدا فى سبيل القيام بالواجب والدفاع عما أؤتمن عليه ، كان — بالقياس الى الآثمين — الشمس وضوحا ، والندى صفاء والطفولة براءة وطهارة ••• هذا الشهيد هو الحارس أبو زيد محمود •

يا حضرات القضاة :

أنى أجلكم الاجلال الذى يرفعكم عن العبث برنين ألفاظ غير مطابقة فى معانيها لمقتضى الحال • وما كنت لأضع لكم وقتا فى العبث بالألفاظ أسوقها فى حفل يشهده منكم قضاة هم فى الذروة من مجد القضاء انتهت اليهم مقاليد الأمور فى الأموال والأرواح ، ليس لهم الا قول الحق وعندهم فصل الخطاب •

فاذا بكيت بين أيديكم شهيدا وقلت لكم خذوا له بحقه ، وجعلته من نقاء الصحيفة فيما وصفته به ، وأكبرته بعد أن كان نكرة ، فانما لأن عبر هذه القضية عدت ما ألفيناه كل يوم فى غيرها من القضايا •

رأيتم ورأينا فى حياتنا القضائية عدوان القتلة على الناس فكنا نشهد قاتلا راح يسرق فأحرج فقتل ، أو جانيا أخذ منه الحسد أو طوحت به الغيرة أو حفزه الثأر الدفين فنال من صاحبه واشتفى •

ولكن الأمر فى هذه القضية خرج عن مألوف هذه البواعث • انما نحن من هذه القضية فى بدعة • هى ضلالة جيل من الناس ظنوا أنهم فى

الحياة أحرارا من قيود النظام ، فخرجوا وحسبوا أنفسهم أنهم بالغون فى المتعة بلذاذات العيش الحظ الأوفى على ألا يقاسموا النـــاس تكاليف العيش من كد وجهد وكفاح •

لهذا رأيت وجوبا على أن أنظر الى القضية نظرة تحليل ودراسة ، وأخذت نفسى بأن أعرض لها فى تقص يرتب لنا مقدمات نخـــرج منهـــا بتقـــدير ما أحيط بالمتهمين من دوافع فى جـــو حياتنا القومية لنرى أكان المتهمان على حق فيما ذهبا اليه ••• واذا لم يكونا على حق ولم يأسرهما سحر العقيـــدة ممـــا تشعه المثـــل العليا ، وتستعبد به بعض النفوس ، وتستهوى من عشاقها القـــلوب فمـــا هما ؟ وما شأنهما فى الحيـــاة ؟ وما الغرض الذى يرميان اليه ؟ أفيه خير شابه شر ؟ أفيه عمل صالح خالطـــه عمل غير صالح ؟

وفيما نحن بسبيله نسأل : أفى مصر من يرى رأى هذين المتهمين فى حياة الخمول والرضا بالدون من العيش والجـــرأة على الله فى الذنوب والآثام ؟

نحن من نهضتنا القومية فى عصر انشـــائى لم نحن ثمرتها ونتفيأ ظلالهـــا ، بل نحن نغـــرس لنجنى أو يجى آباؤنا من بعـــدنا ، ونؤسس لنبنى • لهذا نحرص الحرص كله على أن نحوط آمالنا وأعمالنا بســـياج من الجد والحزم يمنعنا من الاباحية فى السياسة والأخلاق • هذا السياج هو النظام الذى يمليه علينا العقـــل السليم الناضج والرغبة الصادقة فى خير الأمة •

نعم ونحن نبنى ونؤسس ونغرس ، نريد لمصر القوة فيما له بالصحة والأخلاق من صلة • نريد لمصر أطفالا سلمت آباؤهم من الآفات فأنبتوهم نباتا طيبا أزاهر يانعة • نريد شبابا لهم الصبر على المكاره والثبات على العمل والطموح الى المجد • نريد كهولا عركتهم التجارب فلا تبطـــرهم

النعمة فى النجاح أو تهد منهم أعاصير المغالبة والمكافحة . نعم نريد القوة فلا ضعف ولا تواكل ولا جبن ولا استخذاء .

ثم أخـذ حضرة وكيل النيابة فى سرد وقائع الدعـوى والتطبيق القانونى ثم ختم مرافعته بما يأتى :

يا حضرات القضاة :

انا أطلنا ونعتذر اليكم فيما فصلناه من أمر هذه المأساة وأفضينا فيه من بيـان ، فما هى قضية رجلين قتـلا رجلا وشرعا فى قتل رجل وكفى ، وما هى قضية تدمير واتلاف وحسب . ولكنهـا قضية لجناة خرجوا على نظام الدولة وأرادوا أن يقتلوا من الأمة هيبـة الحكومة كائنـة ما كانت وبئس ما يفعلون .

انما نحن فى موقفنا هذا لا ندافع عن الناس أفرادا وجمـاعات الا بقدر ما يمس هؤلاء من الأذى وما كنا لندافع عن المساء اليهم لسلطان كان لهم ، فاما انحاز عنهم سلطان هذا الجاه فترت منا الهمم وصغر من أمرهم ما كان عظيما عندنا ، لا ! ولكننا ندافع عن مبادىء سامية لا تتغير بتغـير رجال الحكم ولهذا نرفع الصوت عاليا لنقول أيها القضاة : « ان هيبـة الحكومة لولا عدلكم الحازم فى خطر فصونوا هيبة الحكومة » .

اذا كنتم عرفتم بالرأفة والرحمة فها هى الأمة تناديكم بأن ارحمونى أنا ، وارأفوا بى ، فان الأشرار سلطوا نقمتهم فى مرافق حيـاتى وهيبة حكومتى فأى الناس يأمن الطريق والموت يكمن فيه بأروع ما يكون ؟ أى تاجر يتخطى هذا الجانب من مصر ؟ وأى سـائح الى مصر يسعى ؟ وأى غريب يظن فى مصر نظاما تصونه هيبة الدولة وأمثال هؤلاء الجناة ، بعـد الاقتناع بتلوثهم بالجريمة ، يعيشون ؟ وأية حياة لهم ترجى وهم يسعون لاهدار دمهم بأيديهم وبأفعالهم الآثمة ؟

انظروا الى عمر بن الخطاب وقد رأى بوادر الفتنة من انحياز على الى داره يوم بيعة أبى بكر اذ ذهب عمر يشتمل عزيمة جبارة نافذة ونادى صاحبه من وراء حجاب أن تعال بايع ولا تسع الى الفرقة والا حرقت دارك عليك ، فقال على وان كانت فيها فاطمة فقال وان •

انظروا الى بطرس الأكبر وقد أراد أن يخرج بوطنه من الظلمات الى النور ، فوجد الرجعيون من خصومه فى ولده الداعر المستهتر أداة هـدم لبطـرس ، فجعلوه محور المؤامرات ، فبصر بهم أبوه وهم يهمـون برد بلاده الى الوحشية والاخلال بما رتبه من نظام ، وكان عليه أن يختـار بين أن يكون أبا فيحنوا على ولده وبين أن يكون منفذا لأمته ، فاختـار الخير الأعم على الرأفة المترخصة المترهلة فى ولده • وقدم هـذا العـاق لقضاته فلم يجدوا له الا الموت فكان هو الموت وفيه لوطنه حياة •

يا حضرات القضاة :

اذا اقتنعتم بأن المتهمين قتلا عمدا ، ورأيتم سبق الاصرار متوافرا ، ورأيتـم الجـرائم ثابتة لا نزاع فيها فاشيروا بحكمتكم على مصر الأمن والسـلام • أخـدموا بلادكم بالنظرة البعيدة الثاقبة • لا تسمعوا لدموع المتهمين الكاذبة تطلب منكم الرأفة ، فأنتم موضع الرأفة وأهل لها ، ولكن مكانها من عدلكم اليوم هو فى ناحية الأمة • وكيف يقتـلان ويهدمان ثم يرجعان منكم بالرأفة ! وأى شىء من رأفتكم اذا فى كفة الأمة المجروحة فى عزتها وهيبة حكومتها كائنة ما كانت • لا عليكم من أن يؤخذا بالحـزم الصارم فى هذا الموقف ، فخير لأمتكم أن توصفوا به ، فهو سيف العدل ، والعدل محتاج لقلمه وسيفه مادام عقله البصير بين هذين الميزانين •

ان القاضى الذى يشتد فى الزجر لخير أمته من طريق العـدل فى مثل هـذه القضية لهو الذى يثبت أركان النظام فى الدولة فى توجيه قـوى الشعب الى العمل الشريف المثمر وسلام الجميع •

أن اللين فى موضع الشدة لا ينفع الا رجلين أساءا الى نفسيهما وإلى أمتهما معا • وأما الصرامة فى الحكم — وهذا يومها — فهى تنفع الناس جميعا • فتخيروا لعدلكم بين أن يخرج المتهمان بعد الحكم ضاحكين فرحين بالحياة ، ولو مؤبدة فى الحديد ، وبين أن تخـــرج الأمة باكية مروعة فى مرافقهـــا مهـــددة فى هيبـــة الدولة • وأين نحن من الدعة ، والأمة تخلف الآثمين !!

ان الذين يصفون القضاة فى مثل هذه القضية بالقسوة لا يحسنون وضع الألفاظ فى حدود معانيها ، فانما القضاة أطبـــاء الهيئة الاجتماعيـــة يبترون العضو الميت من الجسم الحى •

اذا كان من الأفضل أن تحب الحكومة وألا تبغض ، فانا اذا جـــد الجد لا يعنينا أن تحب الحكومة أو تبغض بقـــدر ما يعنينا أن تهـــاب • الحب يذهب ويروح بذهاب أسبابه ، والبغض يتبدل بتبـــدل ما يدعـــو اليه ، وأما هيبة الدولة فلئن زالت فانما هى الثورة وقيام الأشرار وهدم النظام • وليس بعـــد النظـــام الا الفوضى ، ولا ينقذ مصر من الفـــوضى الا القضاء ، وعندنا والحمد لله فى مصر قضاة •

قد يحبنى من يحبنى ، وقد ينحـــاز عنى اذا لم أكن له عـــلى ما عودته أو اذا كنت على نفعه غير مطيق ، وقد لا يبغضنى من الناس من أعف عما بين يديه من عوض ومال ولكن الهيبة — ذلكم السلطان — الـــذى يبنى على خوف العقاب ورهبة الزجر فانه الأساس لخير البلاد • والناس قد يعيشون بغير أن يبغضوا دولتهم وبغير أن ينصرفوا الى حبها ولكنهم لا يعيشون فيها بغير أعناقهم التى على الأبدان • فخوف العقاب هو همهم الأول ، وما دامت الحكومة لا تأخذهم بظلم ، وأنتم منهم فى هيكل عدلكم المقدس ، فلا يعتدى على هيبة الدولة وأنتم محكمون • علموا الناس أن يخافوا العقاب فيرجعوا عن بغض الجريمة الى العمل الشريف المنظم • لا لين عند بوادر الفوضى • لا رحمة بالجناة يحشون القنابل بالموت يبثونها

فى الطرق الآمنة التى تحرسها فى الأمة هيبة الحكومة • أيها القضاة الذين ليس لنا فى مصر غيرهم بعد الله ! انا من مرافعتنا بعد القيام بواجبنا أمامكم نثبت كلمة الختام :

صونوا دماء الأمة من عبث الأشرار المجرمين ، وردوا على الحكومة — كائنة ما كانت — سلطانها من الهيبة • قد تم للنيابة ما عليها من واجب فلم يبق الا الواجب الأعلى — واجب القضاء الذى يجلس منا مجلس الحكم لانصاف الأمة المظلومة من الأشرار الظالمين فلا تأخذكم بالأشرار الجناة رأفة ، وان فى موت اثنين من الثائرين على هيبة الدولة بألوان من التقتيل والتخريب لحياة لأمة مجيدة شريفة تنام فى حراسة القضاء وعينه البصيرة وعقله الساهر على راحة الناس • لقد لجأت الحكومة بسلطانها القوى الى عدلكم الأقوى لتصونوا لها هيبتها وانا من عدلكم الحازم ننتظر فى الآثمين حكم القضاة وان لكم فى القصاص حياة •

— ١٥ —

الأستاذ عبد اللطيف محمود رئيس النيابة
فى قضية الجناية رقم ٣٤٢ بولاق سنة ١٩٣٢
المعروفة بقضية القنـــابل

يا حضرات المستشارين :

أمام حضراتكم قضية قد يخيل الى المتهمين أن الاتهام فيها لم يبن الا على أساس اعترافهم فحسب،وأنهم ما داموا قد عدلوا عن اعترافاتهم وعللوا هذا العدول بما أرادوا أن يدعوه أمامكم من أنه أو عز اليهم به فقد وجب على الاتهام — فى رأيهم — أن يقنع بتصويرهم ، وأن يســلم لهم بصدقهم فى عدولهم ، وحق على القضاء كذلك أن يأخذ بوجهة نظرهم دون ما مناقشة •

واقع الحال أنها ظاهرة غريبة ، لأنه من غير المنطقى ، ان لم يكن من المحال ، أن تتقدم اليكم النيابة بمتهمين عديدين ، منهــم من يعترف على نفسه ومنهم من يعترف على نفسه وغيره ، وجلهم امعات لا قيمة لهــم ، وتكون هذه الاعترافات بما أحاط بها من دليل ، وما لابسها من تفصيه — تكون هذه الاعترافات وليدة الجناية على الذمة والحقيقة وتكون قد أخذت بالطريقة التى قالوا بها •

والواقع أن هذه القضية غامر فيها بعضهم أمل الكسب العــاجل ، أو تحت تأثير العاطفة الجهولة ، وتبعه البعض ظنا منه أن ما فعل انما هو نوع من أنواع الرجولة •

يا حضرات المستشارين :

يحاول المتهمون اليوم ، وقد أثقلهم جرمهم ، أن يخرجوا القضـــية

من حدودها الطبيعية الى ما يمكن أن يفهم منه البسطاء أن القضية ، وهى غنية بأداتها ، لم تخرج عن كونها رواية دبرت وقائعها ، وأنهم كانوا من الداخلين فى تمثيلها رهبة أو مرضاة • ويمنا لو قدروا لادعوا أن القنابل لم تصنع ولم تلق فى المنازل والمصالح •

ولكن النيابة ، وقد أحاطت التحقيق بكل الضمانات التى تكفل للمتهم حرية الادلاء بما يريد ، ستريكم أنه لا فائدة ترجى للمتهمين من عدولهم هذا ، وأن الاعترافات التى سجلت عليهم سليمة من كل شائبة ، مؤيدة بالدليل المقنع • وستخرجون من القضية — كما خرجت منها — وأنتم على يقين من أن المتهمين السادس عشر والسابع عشر هما العقل المدبر ، واليد المحركة ، وأن كل هذه الجرائم التى وقعت فى غسق الليل حتى كادت تذهب بأرواح بريئة لا ذنب لها انما هى من شيطانهما وباملائهما ، وقد موناها بما لهما أو بما أعطى لهما باسم اعانة العمال العاطلين •

سأقيم البرهان على أن هذه الاعترافات لها دليلها المادى الذى يسقط من قيمة الانكار ، وسأدلكم على ما يثبت سابقة اعتراف المتهمين بفعلتهم لأشخاص هم أبعد الناس عن رجال البوليس ، وقبل أن يتصل البوليس بالمتهمين أو يعرفهم • وأخيرا سأقيم الدليل على أن حركة العمال التى بدأت بحوادث العنابر والترسانة ومدرسة الفنون والصنائع تمخضت عن حركة كان يعمل فيها البعض على أنها حركة فدائية واستدرجوا اليها البعض الآخر ، ثم أنتجت الحوادث التى يحاكم المتهمون من أجلها •

لست من غواة تزويق الكلام والاكثار فيه ، بل سأحاول القصد ما استطعت متجها الى الصميم غير تارك ما قد يظن فيه مصلحة للمتهم
ما استطعت الى الصميم غير تارك ما قد يظن فيه مصلحة للمتهم دون أن أتقدم اليكم به وبما ينفيه •

ثم أخذ حضرة رئيس النيابة العمومية فى شرح وقائع الدعوى والتطبيق القانونى ثم أتم مرافعته بالعبارة الآتية :

يا حضرات المستشارين :

الآن وقد فرغت من واجبى فأطلعتكم على القضية بما وسـعته من دليل أجد المبرر فى نفسى لأن أقول لحضراتكم كلمة هى فصل الخطاب .

ان الفردية التى تقدم بها المتهمون ، بل أستغفر الله وأقول ان الفحش فى القول والامعان فى الكذب الذى تقدم بهما المتهمون يتطلبـان منـكم صرامة فى الحكم وشدة فى الاستنكار .

انهم لم يتقـدموا لكم بدفاع عادى كغيرهم من المتهمين ، عـلى تعدد ما عرض عليكم وعلى غيركم من قضايا . ولكنهم لجأوا الى أسـوأ ما يمكن أن تلجأ اليه طائفة من المجرمين — لجأوا الى الطعن فى كل هيئـة وليت التحقيق أو كان لها اتصال بالتحقيق .

كان البوليس هدفا لمطاعنهم فلم يتركوا فرعا من فروعه الا تحدثوا عنه بمثالب .

فادارة الأمن العام ليس فيها أمن ، وهى التى تسيطر على الهيئة التنفيذية فى البلاد لمجرد أن كان لها ضلع فى معرفة المجرمين .

والقسم السياسى جعلوه ملفقا ، لا لصحة فى دعواهم ولـكن لأنه سعى وراء الحقيقة حتى وصل اليهم فأراد أن يطهر من أمثالهم البلاد .

حتى ضباط البوليس الذين قاربوا المتهمين ولو من بعيد جعلوا منهم أيضا أعضاء فى مؤامرة واسعة النطق لا تتناول الا أمثال العزب وعبـد الرسـول .

بعد أن شفوا حقدهم تخطوا تلك الهيئة المحترمة فى كل الممالك الى ما هو شاق على النفس التحدث فيه .

جرؤءا فصوبوا سهاما ظنوا أنهم يصيبون بها معقلا من أهم المعاقل فى كرامة البلاد .

ولن أطيل عليكم التحدث عنها فهى هيئة لى شرف الانتماء اليها وفخر الانتساب الى أسرتها .

هيئة أرفعهـا ويرفعهـا الكل الى الهامات ، فتنحنى أمام شرفها الرؤوس وتطاطىء أمام عظمتها الجباه .

هيئة تمثل الهيئة الاجتماعية ، وهى فى الوقت نفسه جزء من قدس القضاء .

ان الهيئة التى لا تعرف ضغنا ، كهيئة النيابة ، لا تعرف أشخاصا ، ولكنها تعرف الكرامة ، وتعرف الواجب والقانون . فمن شاء أن يحتـكم الى القانون فنحن سواسية . نتقـدم اليـه على أن يـكون ندا يعرف القـانون .

وعندها يكون للنيابة فخر الاحتـكام وفخر الحـكم ، وعندها يقول القدس الذى تخضع له اذا كانت النيابة تجنت على المتهمين أو أنها كانت وستكون دائما الركن الحصين .

يا حضرات المستشارين :

يظهر أن البغاث بأرضنا يستنسر . فمادام المتهمون قدروا عـلى التقول فى النيابة فلم لا يتقولون أيضا على القضاء .

الى هذا الحد وصل الاستهتار بكل ما هو مصون ...

راشوا أيضا سهامهم يظنون أنها تصيب فرموا رئيس المحكمة قاضى المعارضة ، ورموا قاضى الاحالة وهم يعمهون . أنا لا أجـرؤ أن أتـكلم عن القضاء . لقد كنتم قضاة ، وأنتم الآن قضاة وهم يتهمون القضـاء .

وليس لى أن أدفع عن كرامة هيئــة عدلها من عدل السماء ، انمــا لى أن أطرح الأمر عليكم لتقولوا رأيكم فى رجال القضاء[١] •

— ١٦ —

مرافعــة

حضرة صــاحب العزة محمــد لبيب عطيــة بك النائب العمومى أمام محكمة جنايات مصر فى قضية اتهام محمد على الفــلال بالشروع فى قتــل دولة اسماعيل صدقى باشا رئيس مجلس الوزراء دور شهو يولية سنة ١٩٣٣ بجلسة الجنايات المنعقدة تحت رياسة حضرة محمد نور بك وعضوية حضرتى ابراهيم ثروت بك ومحمــد نجيب ســالم بــك

حملت أمانة الدعوى العامة وهى أمانة خطــيرة تنــوء بها الجبال الرواسى ، ولكن خطرها تحوطه روعة ، ويحفه جلال يتأسى به من يعــرف الواجب ويصبو الى حسن القيام به •

بالأمس كنت جالسا بينكم أشاطركم ما تعانون من مشقة فى استظهار الحقيقة واستخلاص غوامضها ، وكنت ألتمس عون بارىء الكائنات الذى يعــلم السر وأخفى ، وأستلهمه كما تستلهمون صــواب الرأى وطمأنينة اليقين •

---

(١) ملحوظة : حكم فى هذه القضــية ببراءة شــعبان احمد شــعبان وعبد الرحمن عليوه وشوقى سلمان ومحمــد جاد وحســن والدكتور نجيب اسكندر ومعاقبة ابراهيم محمد عبده الشهير بالفلاح وباقى المتهمين بعقوبات تتراوح بين الحبس مع الشغل لمدة ستة شهور وبين الأشغال الشــاقة لمدة خمس عشرة سنة •

فلا عجب ، وهذه حالى ، وتلك دخيلة نفسى ، ان شعرت اليوم فى موقفى أمامكم بعبء مضاعف الأثقال ، عبء الأمين على دعوى الهيئة الاجتماعية ذات الخطر العظيم ، وعبء الزميل الذى عليه لزملائه ، وقد لابس ما يعانون ، واجب الجهد لهم حتى يطمئنوا الى ما به يقضون •

نادانى هذا الواجب من أول لحظة توليت فيها تحقيق هذه القضية فلبيت نداءه ، وسرت فى سبيلى على نحو أرجو أن يكون رائدى فيه لم يغب ، وبغيتى منه لم تفت ، والرضا عنه لم يضن به •

جعلت رائدى أن يكون تحقيق النيابة ــ التى حلت عملا فى نظامنا القضائى محل قاضى التحقيق ــ محوطا بكل ما يلبسه ثوب تحقيق ذلك القاضى ، ويكسبه مميزاته ويزينه بضماناته • فأفسحت للمتهم ما وسعنى الافساح له ، وسارعت الى اجابته فى كل ما طلب ، وأرحت هواجسه مما خشى ، وأوصلت رجاءه لعنوانه فى الصغيرة وفى الكبيرة ، وهيأت له فى أوائل خطوات التحقيق الاستنجاد بمن يدافع عنه ، فأبلغت رسالته لنقابة المحامين لتندب له من يستودعه سره ويرعى مصلحته • • ولما أهدرت تلك الرسالة ، ولم يجب داعيها ، طمأنت لوعته ، وهدأت ثورته ، ذاكرا له أن أوان ذلك لم يفت وأن لكل سائل قرارا •

كان هذا رائدى • أما بغيتى فقد عملت على أن أسعف خلجات نفوسكم ، وخطرات قلوبكم ، وتشدد ضمائركم ، بكل مدد من الوقائع بغير تمييز بين ما راح منها فى جانب الاتهام وما يمكن أن يتعلق به الدفاع •

أما رضاكم فآمل أن يكون مظهره كلمة الحق التى لابد أنكم قائلوها اليوم أو غد ، أليس الصبح بقريب ؟

حسبى بما قدمت فاتحة لمرافعة الاتهام • أستغفر الله بل فاتحة لقصة الحادث الذى وقع فى صدر يوم ١٦ مايو الماضى ، وما تستتبعه

وقائعه بجملتها وتفاصيلها من تحليل وتمحيص ، سواء أكان ذلك من ناحية القانون أو من ناحية البواعث النفسية وأثرها فى الاجتماع ، ثم استظهار ما انكشف لعينى من أدوائها ، وطرحه جليا أمام حكمتكم البصيرة ، لتصفوا الدواء ، تعالجوا الداء .

سأعرض على أسماعكم هذه القصة مستهديا فى سردها بنور اليقين ، وطمأنينة الاقتناع ، وسأنبذ كل ما قد يحيطنى — ولو فى مظاهر الأشياء — بشبهة من قال « لكل حال لبوسها » فليس يهين على — وقد أوفيت على تلك السنين — أن أتحلل بين عشية وضحاها من تفكير القاضى وميزان تقديره وروح تمييزه ، لاسيما وأننى لا أزال على نسبى القديم .

سأنبذ ثوب التهافت على الاتهام ، كما نبذت فى التحقيق الترحيب به والهشاشة له . وآية ذلك ما أرجو أن تشهد به ثناياه من السير وراء كل جليل وكل دقيق من الوقائع التى قد تنفع ذلك المتهم الماثل أمامكم . ولم تكن لى أية مفخرة فى ذلك ، فان الواجب العريق قد تضاعف فى نظرى عشية رأيت المتهم وقد استنجد فلم ينجد ، والتمس المواتاة من حظيرة رجال الدفاع فلم يؤت . ولعل تلك الهيئة الموقرة لم ترد بتغاضيها الا معنى الاستنكار لما وقع . ولعلها ، ولتعذرنى اذا انتزعت معنى آخر فيه الترضية لنفسى ، وثقت بأن الرجل — وأمره اذ ذاك فى يدى — ليس فى حاجة الى معونة . واننى لأشكر لها هذه التحية المغطاة ان كان حقا ما همس به الظن الكريم .

قلت انى سأنبذ ثوب التهافت على الاتهام ، وها أنا أطيع منطق هذا الوعد ، وأكف فى هذه المرحلة من حديثى عن تقديم المتهم بصفاته التى كشف عنها التحقيق ، خشية الظن الفطين بأنى أستجاب ضوءا قاتما من حوله تنعكس أشعته على ما سأسرده من أعماله ، فينجسم صغيرها ويعظم ضئيلها . سأكف عن ذاك الآن برغم ما جرت به العادة

من تقديم المتهم لقضائه بالصفات التى انكشفت عنه قبل الاسـترسال فى بيان ما أتاه •

وسأكف أيضا فى الآونة الحاضرة عن ذكر من وقعت عليه الجناية فان التنويه به فى هذه المناسبة قد يؤول أنى أستثير غضبتكم على الجانى قبل أن أقنع ضمائركم بجنايته ، ولو أنه تأويل واهى الأساس ، فانكم أكبر من أن تطمنوا ، وأنا فى هذا معكم على عهد مسئول •

ثم تكلم سعادة النائب عن وقائع الدعوى والتطبيق القانونى وتحقق ظرف سبق الاصرار والترصد وانتهى من مرافعته بالخاتمة الآتيـة :

لقد أبنت مبلغ نذالة الجريمة ومدى شرها اذا هى وقعت على كابر جليل المقام • أبنت ذلك بقدر ما فسح لى موقف النائب العمومى وأجازته الأمانة فى عنقه • ولو أن المجال حر لقائل لسمعتم كل ما يتطلبـه حزمكم وترضاه عدالتكم ، ولكنى كما أسلفت مؤمن بفطنتكم ولى فيها كل الغناء•

على أن هناك أمرا أجل شأنا وأعظم خطرا لا أستطيع حمل ضميرى على كتمانه ولا عد لسـانى عن بيـانه • هذا الأمر الخطير هو ما أشرت اليه فى صدر مرافعتى وألمحت به عند حديثى على الباعث الذى دفع المتهم الى جنايته •

ذلك هو ولع التبطل ، وغواية الاستعظام ، وما أجملت فى جلسـة الاحالة بأنه داء اجتماعى وبيـل يهـدد الحـكومات فى كيانها ، ويشـل النظام من أساسه ، وأنه ان لم يؤخذ بيد عسراء استفحل ضرره وعز اتقاء شره •

نعم استفحل ضرره وعز اتقاء شره •

ارسموا لأنفسكم ، بواسع خبرتكم ونافذ بصيرتكم ، حال البـلاد

وقد أصبح كل عظيم فيها هدفا لنار أى شقى تربعت فى نفسه الشريرة هذه الأفكار الخطرة .

تلك حال أستعيذ بالله منها .

هى مضيعة للطمأنينة ومقتلة للنبوغ ومفسدة لنفس العاملين . بل هى حفرة يتردى فيها اخلاص المخلصين ونشاط المجدين وايمان المصلحين .

أنتم قضاة الحق ولكنكم أيضا مربو الخلق .

وكلمة العدل التى بها تنطقون يتجاوب صداها فى نفوس ناشئة ، ونفوس ثائرة ، ونفوس فزعة خائرة .

فاجعلوا حكمكم رسالة عدل وبلاغ عبرة وبشرى سلام .

فاذا جنحتم الى الرحمة فاشملوا بها النشىء وقد أوشك أن يلتوى ، والبلاد وقد دب فيها ذاك الداء الوخيم .

أنتم أطباء النفس كما أنتم قضاة العدل . والطبيب البصير لا يتردد ولا ينى عند الضرورة الحاكمة ، والقاضى الحازم يهذب بالزجر الحكيم ، وهو فى زجره من الراحمين .

وازنوا بين روعة الرحمة وقد حلت بالبلاد وبالنشىء وبين ضآلتها ان هى حلت بهذا المجرم العتيد ، ثم اقضوا قضاءكم والله معكم انه نعم الهادى ونعم النصير .

ومن الخطب الهامة التى يجب معرفتها خطب الامام على رضى الله عنه وخطب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ولا شك أن الرسول ﷺ كان قمة البلاغة والخطابة وقد صدق أمير الشعراء عندما قال فى أمير الأنبياء :

مـمـــــا عـرف البـــلاغة ذو بيـــان

اذا لـــم يتخـــذك لـه كتـــابا

كان اذا خطب ينـاطح السحاب ويتطـاول الى الجـوزاء ويزاحم الشمس فى الجـلاء ، كان والله غزير العـبرة ، طويل الفـكرة ، بعيـد المدى ، شـديد القوى ، يقول فصلا ، ويحكم عدلا ، يتفجـر العـلم من جوانبه وتنطلق الحكمة من نواحيه •

ومهما قال اللسان وأملى الجنـان وفاض البيـان وسـال البيـان فلن أصـل الى شاطىء البحر الذى عبره فارس المنـابر عـلى بن أبى طالب رضى الله عنه •

وفى احدى المرافعات وقف المحامى العام وقال فى ختام مرافعته نحن الآن فى أشد الحاجة للاصغاء والانتباه لأننا نريد أن نجتمع على كلمة سواء •• كلمة حق •• وفرق بين كلمة حق وكلمة حق أخرى فكلمة الحق التى نبغيها هى تلك التى يجتمع عليها أبناء الدين الواحد ومصدرها كتاب الله الكريم وسنة نبيه المصطفى عليه الصلاة والسلام •• لا بنعى كلمـة الحق التى تخرج عن الأمراء والمشايخ الذين فقدوا البصيرة •• فقد صدق القـول « ان اعرفوا الرجال بالحق ولا تعرفوا الحق بالرجال » •

فنحن •• نريد كلمة حق فيمن أفتى وحكم وفقد حكمـه بحـدود ما أنزل الله بها من سلطان وعاقبوا من يشاهد مسرحا بالاعدام بالمفرقعات وألقوا الكور الحارقة على رواد موالد أولياء الله الصـالحين ، حتى ولو كانوا من الصبية والأطفال ، ويحرقون المساكن والمتاجر ويطلقون النار على أى مسئول بالدولة وكل من يرافقـه أو يتواجـد صدفة فى صحبته ويقولون بعد ذلك فليبعث على نيته •

نريد كلمة حق فيمن استحلوا أرواح وأعراض وأموال أهل الكتاب

من غير المسلمين وهو ما لم يفعله رسول الله وأصحابه •• ويقولون هو من عند الله ••

ان ما اقتنعت به بحق سيقنع ضمائركم •• سنصل الى كلمة الحق التى تبغيها كلمة الحق التى ستمنعون بها هذه الأخطار وتردون عن البلاد بؤسا وشقاء كان المتهمون مجلبة له •

لا تصدقوا أننا امام شباب مسلم •• كما يحلو للبعض أن ينافق ويصفهم •• ولكننا أمام فئة استعذبت الجريمة واتخذت من سفك الدماء صناعة ومن الارهاب حرفة •• ونحن أمام خطر داهم ان لم نقف فى سبيله • سقطنا الى الهاوية •• لقد أصبح الناس •• لا يأمنون على أنفسهم فى غدوهم ورواحهم فأعيدوا •• الطمأنينة للنفوس بحكم يقضى على هذا الداء ولست أخاطبكم بلسان النائب •• انما أخاطبكم بلسان الأبناء الذين تيتموا والآباء والأمهات الذين تجرعوا الحزن على أبنائهم والزوجات اللاتى ترملن ••

من مرافعات قضايا الارهاب :

فالمتهمون هم عناصر ارهابية •• تحمل أفكارا متطرفة ومن خلال ذلك •• كان استئجار الأوكار وكان الاختفاء واعداد المفرقعات والأسلحة والذخائر والتدريب والاستعانة بمن لديه خبرة فى ذلك •• وتدبير الدرجات البخارية والتزوير فى الأوراق الرسمية •• وراقبوا المسئولين وارصدوا تحركاتهم •• وكان القتل واراقة الدماء والجثث المسجاة فى الطريق العام •• والترويع والخوف والرعب فى وسط العاصمة •

واذا كان الارهاب فى الوقت المعاصر •• ظاهرة عالمية •• الا أن خطر الارهابيين فى مصر يكمن فى أنهم يعلقون ارهابهم بالاسلام دين السماحة والحق والعدل •• دين المثل والقيم •• فأخذوا يستغلون الدين بفجر وغش وكذب •• وجهل •• استباحوا أرواح وأموال وأعراض الناس ••

ولقد عذب المسلمون من قبل بأمثال هؤلاء فلا يغيب ما فعله الخوارج في عهد على كرم الله وجهه وها هم خوارج ذلك العصر .

مستمدين في تحريف الكلمة عن موضعه يتخيرون من التفاسير ما كان مرجوحا ويشحون عما هو راجح .. يرفضون أى منطق غير منطقهم ولا يجادلون بالحسنى بل يرفعون عصا التهديد وسلاح الاغتيال .

اننا أمام صورة صارخة من صور الخروج على القانون .. ولابد من تطبيق القانون بكل قوة وحسم فى اطار من الضمانات القانونية والقضائية .

— ١٧ —
ومن المرافعات الجيدة :

يا حضرات المستشارين :

القضية وان كانت سياسة فالقضاة فوق السياسة وسنبين ذلك لحضراتكم جليا فى قضيتنا الحالية ولكن الذى يهمنا ابرازه أن هذه القضية هى واحدة من مئات القضايا السياسية التى امتاز بها هذا العهد وان لذلك معنى ما يستفيد منه المتهم ويرجو من المحكمة تقديره فى حكمها ولتبيان هذا المعنى يجب أن نتسائل .. أولا ما معنى تكاثر القضايا السياسية فى عهد دون سواه ولماذا نرى مثلا مئات القضايا السياسية فى عهد وزارة النحاس باشا الا قضيتين أو ثلاثا من قضايا القذف أو الطعن فى الاعراض لماذا نرى هذا الفارق العظيم بين عهد وآخر بينما الشعب المصرى هو وأخلاقه هى هى وقانون العقوبات فى مجموعه هو هو والنيابة هى هى أن الرد ظاهر واضح نعم لقد تغيرت السياسة وتغيرت الحكومة التى تدير دفة السياسيين وكان طبيعيا أن ينتج تغيير مماثل فى القضايا السياسية فى نوعها وعددها ولا غرابة فى ذلك ولا عجب فى سياسة تضع الحكومة فى صف والأمة فى صف آخر ولذلك يئست الحكومة من اجتذاب الأمة اليها مهدت الطريق الى القضايا السياسية لتحاول

الايقاع بخصومها وستر فشلها واو أن النيابة وضعت الأمور فى نصابها ودخلت البيوت من أبوابها لأدركت أن النزاع الذى بينها وبين الأستاذ حسن النحاس هو بعينه النزاع القائم بين صدقى باشا والنحاس باشا وبين دستور الحكومة ودستور الأمةوأظنكم توافقونى على أن مثل هذا النزاع لا يصح بل ولا يجب أن يتخذ من دور المحاكم مقرا أو من منصة القضاء منبرا بل هو نزاع من شأن رجال السياسة أن يصفوا حسابهم فيما بينهم على صفحات الجرائد وعلى منابر الخطباء •

ان ما قاله حسن النحاس لا يعاقب عليه أى قانون والدليل على ذلك أنه لم يقل فى منشوره غير ما قاله المؤتمر الوطنىفىقراراته الخطيرة والتى وقعها أمرء لدولة وزعماء الأمة وممثلوا هيئاتها وكبار أصحاب الرأى فيها •• اننا اذا قارنا ما جاء فى منشور المتهم بما ورد فى عبارات المتهم لوجدنا التشابه بينهما تاما فى المعانى بل ويكاد فى الألفاظ بل ان أمرا خطيرا تغاضت عنه النيابة فحاشا لعدالتكم أن تتجاهله ذلك ان الأمر ليس مقصورا على قرارات المؤتمر بل ان الجرائد والكتاب والخطباء يكتبون ويقولون يوميا مثل ما قاله الأستاذ النحاس فى منشوره فلماذا رفعت النيابة الدعوى على المتهم ولم ترفعها على هؤلاء مجرد سؤال فاذا صرفنا النظر عن تناقض النيابة تصرفاتها فهل تدرك خطورة ما تطلبه من المحكمة أنها تطلب من حضراتكم باسم القانون أن تضعوا كمامة على أفواه الناس وأن تضيفوا أغلالا اقنونية الى الأغلال الادارية والسياسية التى ترسف فيها أمتنا المكبلة المعذبة هى تطلب اليكم أن تحطموا أقلام الكتاب وتكسروا أعواد المنابر بل هى تطلب اليكم أن تسجلوا بحكمكم على حسن النحاس الاجرام على أمراء الدولة وزعمائها وكتابها وخطبائها وأصحاب الرأى فيها فتحكموا بالاجرام أمير جليل مثل الأمير عمر طوسون •

ومن المرافعات فى جريمة السرقة :

ان جريمة السرقة جريمة بشعة لا يقبلها لا العقل ولا المنطق وتجرمها كافة الشرائع السماوية والقوانين الوضعية •

ولكن الأبشع منها أن يقوم السيد الضابط بتلفيق وخلق تلك الجريمة واسنادها الى اناس بسطاء لا صلة لهم بالواقعة من أساسها •

— نحن نفهم أن يقوم السيد الضابط بالقبض على المتهم متلبسا بالجريمة •

— نحن نفهم أن يقوم الضابط بضبط أشياء الجريمة فى منزل المتهم •

— نحن نفهم أن يقوم المجنى عليهم بمشاهدة المتهمين حال الجريمة•

— نحن نفهم أن يقوم المجنى عليهم بالتعرف على السارق •

لكن لا نفهم كيف يمكن تلفيق مثل هذا المحضر •

— نحن لا نفهم كيف يسند اتهام الى أشخاص لا دليل فى أوراق ضدهم •

— نحن لا نفهم كيف يحبس الأبرياء عى ذمة التحقيق كل هذه الفترة •

— نحن لا نفهم كيف يتم تحرير المحضر بعد سنة سابقة على الواقعة ثم يقوم باجراء التحريات ثم القبض عليهم بعد ذلك • ظلما وزورا وبهتانا •

— نحن لا نفهم كيف يحكم على شخص ما دون أن يقدم دفاعا على الاطلاق — لا أوراق — لا مستندات — لا شهود — لا شىء •

لقد جئنا الى هنا لنجيب على سؤال بلغ مبلغا كبيرا من الأهمية • ألا وهو : هل هذا المتهم مدان أم برىء •

هل هذا المتهم ارتكب تلك الجريمة أم لم يرتكبها •
واذا كان ارتكبها : فكيف •
واذا لم يكن ارتكبها : فكيف زج به فى الاتهام •

ولا شك أن استعمال الرأفة والرحمة يحتاج اليهما المحامى أمـام المحكمة لذلك كانت الرحمة هى الصفة السائدة فى أخلاقيات النبى محمد ﷺ حيث وصفه بذلك رب العالمين فقال :

« لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم » .

وقد أدرك ذلك كل من عاشوا معه ، وعاشروه ، أو كانوا منه بسبب قريب أو بعيد ، فما كان قاسيا على خادم ، ولا عنيفا على صاحب ، ولا باغيا على عدو ولا ظالما لزوجة ، شمل بره الجميع الأولياء منهم والأعداء.

يقول أنس بن مالك : خدمت النبى ﷺ عشر سنين فما نهرنى قط ، ولا قال لشى مما فعلته لم فعلته ؟ ولا لشىء تركته لم تركتـه ؟ ولا عجب فهو الذى يوصى بالخدم قائلا « أخوانكم خولكم أطعموهم مما تطعمون ، وأسقوهم ممـا تسقون ولا تكلفـوهم ما لا يطيقـون وان كلفتمـوهم فأعينوهم .

تذرف عيناه بالدموع وهو يحمل بين يديه ابنه ابراهيم يلفظ أنفاسه ويعاتبه بعض أصحابه ما هذا يا رسول الله ؟ فيقول انها رحمة وانما يرحم الله من عباده الرحماء ويجد بين يديه أسرى،وفيهم من كان طاغيا ومعاندا ومعذبا المسلمين من مكة فيكون مبدأ العفو هو الغالب على خاطره،المؤثر فى اختياره ، كما يلجأ اليه يوم الفتح ، اذ قال لقومه قريش : اذهبوا فأنتم الطلقـاء[1] .

* * *

والمنافق الذى أمعن فى أذى المسلمين حتى أن أذاه وصـل الى بيت

---

(١) مقال : الرحمة صفة ومنهج وهدف كريم ــ للدكتور/سيد الطويل جريدة الاخبار .

النبوة فى طهره وتساميه يتقدم اليه ابن هذا المنـافق ليقتـل أباه ابتغاء مرضاة الله ، فيرفض هذا الحل تماما .

ويرى فى احدى غزواته امرأة مقتولة ، فيغضب لذلك ، ويقـول : « من قتلهـا ؟ ما كانت هذه لتقاتل » فكانت حروبه حروب رحمـة يوجه أصحابه المقاتلين بقوله : لا تقتلوا شيخا ولا امرأة ولا صبيا ولا تخلعوا شجرا ولا تهـدموا بنـاء ، وستجدون رجالا فى الصوامع معتزلين فـلا تمسوهم بسوء .

وفى كل موقف يحث أصحابه عـلى الرحمـة ويحـذرهم من العنف والقسـوة ، ومن توجيهـاته فى هذا المجـال « من لا يرحم لا يرحم » ، « ولا تنزع الرحمة الا من شقى » .

* * *

وأما عن منهجه فى الدعوة فكان يتحرك خلال اطار كريم من الرحمة والرفق ، يلح على قومه فى الدعوة حرصا على استنقاذهم من عذاب الله، وضنا بهم — وهم أصحاب فضائل وذوو قربى أن يعيشـوا فى جاهليـة وضلالة ، وهو يقول كما تحدث عنه ربه :

« لا أسألكم عليه أجرا الا المودة فى القربى » .

ويقوم الخطأ يجرح مشاعر المخطىء أو يلبسه خـزيا وحسبه من المواقف التى تحتـاج الى تقويم أن يقول « ما بال أحـدكم يفعل كذا أو يقول كذا ؟ أو ما بال أقوام يقولون كذا وكذا ؟

ويتكلم رجل فى الصلاة بشىء من كلام الدنيا ، وضربه الصحـابة أفخاذهم بأيديهم ليسكت ؟ ويسكت الرجل وقد بلغ منـه الروع مبلغـا عظيما ، وعندما تنتهى الصلاة يقول له النبى الكريم فى رفق واناة : ان هذه الصلاة لايصح فيها شىء من كلام الدنيا وانما الذكر وقراءة القرآن.

وينبهر الرجل بهذه الحكمة وهذه الاناة ويقول والله ما رأيت معلما مثلك •• بأبى وأمى أنت يا رسول الله ؟

وتغريه حكمة رسول الله ومنهجه فى أن يسأل عن أشـياء من أمور الجاهلية ويجيبه النبى ﷺ بما يبين له موقف الاسلام مما سأل •

ويرى الصحابة رجلا يبول فى ركن من المسجد فيهمون به ، فيقـول لهم النبى الكريم : دعوه ولا تروعوه حتى يقضى حاجته ، ثم أريقوا على بوله ذنوبا من الماء •

* * *

ان هذه الرحمة البالغة على طريق دعوته عليه الصلاة والسـلام هى السر فى ذيوعها وانتشارها واقبال الناس عليها •

وهذه حقيقة سجلها القرآن الكريم ، وخاطب بها رب العالمين نبيه فى موقف غلبه فيه الغضب فعلته قريش به وبالمسلمين يوم واحد وبخاصـة تمثيلهم بجثة حمزة بن عبد المطلب •

يقول له رب العالمين : « فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضـوا من حولك فاعف عنهم واسـتغفر لهم وشاورهم فى الأمر فاذا عزمت فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين » •

* * *

ويبقى الحديث عن الرسالة التى حملها الرسول الخاتم أنها تقوم على ركائز قوية من الرحمة كما أنها من حيث غايتها تستهدف قيام مجتمع من الرحماء على الأرض ، يتجلى ذلك فى قوله سبحانه : « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » •

وأسلوب القصر هنا له شأنه ومغزاه وكأن الرحمـــة هى كل شىء فى هذه الرسالة الهادية •

وجاء فى الحديث الشريف « ترى المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » •

أما معالم الرحمة فى الرسالة الخاتمة الهادية فتتمثل فى أمور :

أولها : انقاذ الفكر الدينى من كل صور الزيف والتلبيس ، والتدليس التى أدخلها المغرضون فى رسالات الأنبياء •

يقول سبحانه وتعالى : « ان هذا القرآن يقص على بنى اسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون وانه الهادى ورحمة المؤمنين » •

ويقول : « يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » •

ثانيها : انقـــاذ البشر من تسلط الامبراطوريات الظـــالمة فى الشرق والغرب والتى استبعدت البشر فألغت انسانيتهم وتحـــولوا الى أصنام تعبد الأصنام وكانت هذه المظالم والضلالات سببا لمقت رب العالمين لهـــم كما هيأت لمجىء رسالة الرحمة التى حررت الانسان من بغى أخيه الانسان وأقامت أهدى حضارة على وجه الأرض •

ثالثها : تشيع روح السماحة فى كل ما جاءت به من تكاليف ، فـــلا عنت ولا ارهاق ، ولا تلزم انسانا بما لا يطيق ، ولا تزر وازرة وزر أخرى، فلا يسأل انسان عن ذنب غيره يقول تعالى « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » •

ويقول جل شأنه « ما يريد الله ليجعل عليكم حرج » • ، ويقـــول « يريد الله أن يخفف عنكم » كما قول « لا يكلف الله نفسا الا وسعها »

وفى سلوك نبى الرحمة « ما خير بين أمرين الا اختار أيسرهما ما لم يكن اثما » .

رابعها : الرفق والمودة والبر بأهل الكتاب الذين ظلوا على اتباعهم للرسالات السابقة ولم تتسع قلوبهم للايمان بالرسالة الخاتمة فنرى القرآن اكريم يقول للنبى ﷺ — بعد أن ذكر جانبا من انحرافاتهم « فأعف عنهم وأصفح ان الله يحب المحسنين » .

بل ان الكتاب الحق يتجاو زذلك الى التوصية بالبر بهم والاقساط بهم وفى ظل هذه الرحمة وقف النبى ﷺ عندما مرت به جنازة يهودى ، كما جعل عمر عطاء لليهودى الفقير من بيت مال المسلمين .

خامسها : أن هذه الرحمة التى ورد ذكرها مرارا فى الكتاب العزيز — وتعد من الملامح البارزة للرسالة الخاتمة تجاوزت — البشر حتى شملت الحيوان الذى يشارك الانسان الحياة على الأرض فذكر النبى ﷺ رجلا دخل الجنة ، لأنه سقى كلبا يلحس الثرى من شدة العطش كما ذكر امرأة دخلت النار فى هرة حبستها دون طعام أو شراب .

الفصل الخامس

من خطب الامام على كرم الله وجهه

١ ــ خطبة الزهراء

« الحمد لله الذى هو أول كل شىء وبديه[1] ، ومنتهى كل شىء ووليه ، وكل شىء خاضع له ، وكل شىء قائم به ، وكل شىء ضارع اليه ، وكل شىء مستكين له •

خشعت له الأصوات ، وكلت دونه الصفات ، وضلت دونه الأوهام ، وحارت دونه الأحلام[2] ، وانحسرت[3] دونه الأبصار ، لا يقضى فى الأمور غيره ، ولا يتم شىء منها دونه •

سبحانه ما أجل شأنه ، وأعظم سلطانه ، تسبح له السموات العلى ، ومن فى الأرض السفلى ، له التسبيح والعظمة ، والملك والقدرة ، والحول والقوة ، يقضى بعلم ، ويعفو بحلم •

قوة كل ضعيف ، ومفزع كل ملهوف ، وعز كل ذليل ، وولى كل نعمة ، وصاحب كل حسنة ، وكاشف كل كربة ، المطلع على كل خفية ، المحصى لكل سريرة ، يعلم ماتكن الصدور ، وما ترخى عليه الستور •

الرحيم بخلقه ، الرؤوف بعباده ، من تكلم منهم سمع كلامه ، ومن سكت منهم علم ما فى نفسه ، ومن عاش منهم فعليه رزقه ، ومن مات منهم فاليه مصيره ، أحاط بكل شىء علمه ، وأحصى كل شىء حفظه •

اللهم لك الحمد عدد ما تحيى وما تميت ، وعدد أنفاس خلقك ولفظهم

---

(١) البدية : أول كل شىء ومبداه .

(٢) الأحلام : العقول .

(٣) انحسرت : تعبت وكلت الأبصار فلم تستطع أن تراه .

ولحظ أبصارهم ، وعدد ما تجرى به الريح ، وتحمله السحاب ، ويختلف به الليل والنهار ، ويسير به الشمس والقمر والنجوم ، حمـدا لا ينقضى عدده ، ولا يفنى أمده •

اللهم أنت قبل كل شيء ، واليك مصير كل شيء ، وتكون بعد هـلاك كل شيء ، وتبقى ويفنى كل شيء ، وأنت وارث كل شيء ، أحـاط علمك بكل شيء ، وليس يعجزك شيء ، ولا يتوارى عنك شيء ، ولا يقدر أحد قدرتك ، ولا يشكرك أحد حق شكرك ، ولا تهتدى العقول لصفتك ، ولا تبلغ الأوهام حدك •

حارت الأبصار دون النظر اليك ، فلم تراك عين فتخبر عنك كيف أنت وكيف كنت ، لا نعلم اللهم كيف عظمتك ، غير أنا نعلم أنك حى قيـوم ، لا تأخذك سنة(٤) ولا نوم ، لم ينته اليك نظر ، ولم يدركك بصر ، ولا يقدر قدرتك ملك ولا بشر •

أدركت الأبصار ، وكتبت الآجال ، وأحصيت الأعمال ، وأخـذت بالنواصى والاقدام ، لم تخلق الخلق لحاجة ولا لوحشة ، ملأت كل شيء عظمة ، فلا يرد ما أردت ، ولا يعطى ما منعت ، ولا ينقص سـلطانك من عصاك ، ولا يزيد فى ملكك من أطاعك •

كل سر عندك علمه ، وكل غيب عندك شاهده ، فلم يستتر عنك شيء ، ولم يشغلك شيء عن شيء ، وقدرتك على ما تقضى كقدرتك على ما قضيت ، وقدرتك على القوى كقدرتك على الضعيف ، وقدرتك على الأحياء كقدرتك على الأموات •

فاليك المنتهى ، وأنت الموعد ، لا منجى الا اليك ، بيدك ناصية كل

---

(٤) السنة : النعاس .

دابة ، وباذنك تسقط كل ورقة ، لا يغرب[٥] عنك مثقال ذرة ، أنت الحى القيوم .

سبحانك ، ما أعظم ما يرى من خلقك ، وما أعظم ما يرى من ملكوتك ، وما أقلهما فيما غاب عنا منه ، وما أسبغ[٦] نعمتك فى الدنيا وأحقرها فى نعيم الآخرة،وما أشد عقوبتك فى الدنيا ، وما أيسرها فىعقوبة الآخرة .

وما الذى نرى من خلقك ، ونعتبر من قدرتك ، ونصف من سلطانك، فيما يغيب عنا منه ، مما قصرت أبصارنا عنه ، وكلت عقولنا دونه،وحالت الغيوب بيننا وبينه .

فمن قرع سنه ، وأعمل فكره : كيف أقمت عرشك ؟ كيف ذرأت[٧] خلقك ؟ وكيف علقت فى الهواء سماواتك ؟ وكيف مددت أرضك ؟ يرجع طرفه[٨] حاسرا وعقله مبهورا ، وسمعه والها ([٩]) ، وفكره متحيرا .

وفكره متحيرا .

فكيف يطلب علم ما قبل ذلك من شأنك ، اذ أنت وحدك فى الغيوب التى لم يكن فيها غيرك ولم يكن لها سواك ، لا أحد شهدك حين فطرت الخلق ، ولا أحد حضرك حين ذرأت النفوس .

فكيف لا يعظم شأنك عند من عرفك ؟ !! وهو يرى من خلقك ما ترتاع به عقولهم ، ويملأ قلوبهم ، من رعد تفزع له القلوب ، وبرق يخطف

---

(٥) أى لا يغيب عن علمه شىء ولو كان مثقال ذرة .
(٦) أى ان نعمته سابغة تامة .
(٧) ذرأ الخلق : خلقهم .
(٨) الطرف : البصر . حاسرا : كليلا .
(٩) الوله : ذهاب العقل والتحير .

الأبصار ، وملائكة خلقتهم وأسكنتهم سماواتك ، وليست فيهم فترة[١٠] ولا عندهم غفلة ، ولا بهم معصية .

هم أعلم خلقك بك ، وأخوفهم لك وأقومهم بطاعتك ، ليس يغشاهم نور العيون ، ولا سهو العقول ، لم يسكنوا الأصلاب ، ولم تضمهم الأرحام ، أنشأتهم انشاء ، وأسكنتهم سماواتك ، وأكرمتهم بجوارك ، وائتمنتهم على وحيك ، وجنبتهم الآفات ، ووقيتهم السيئات ، وطهرتهم من الذنوب ، فلولا تقويتك لم يقووا ، ولولا تثبيتك لم يثبتوا ، ولولا رهبتك لم يطيعوا ، ولولاك لم يكونوا .

أما انهم على مكانتهم منك ، ومنزلتهم عندك ، وطول طاعتهم أياك لو يعاينون ما يخفى عليهم لاحتقروا أعمالهم ، ولعلموا أنهم لم يعبدوك حق عبادتك .

فسبحانك خالقا ومعبودا ومحمودا بحسن بلائك عند خلقك ، أنت خلقت ما دبرته مطعما ومشربا ، ثم أرسلت داعيا الينا ، فلا الداعى أجبنا ، ولا فيما رغبتنا فيه رغبنا ، ولا الى ما شوقتنا اليه اشتقنا .

أقبلنا كلنا على جيفة[١١] نأكل منها ولا نشبع ، وقد زاد بعضنا على بعض حرصا ، لما يرى بعضنا من بعض فافتضحنا بأكلها ، واصطلحنا على حبها ، فأعمت أبصار صلاحنا وفقهائنا ، فهم ينظرون بأعين غير صحيحة ، ويسمعون بآذان غير سميعة ، فحيثما زالت زالوا معها ، وحيثما مالت أقبلوا اليها .

وقد عاينوا المأخوذين على الغرة[١٢] كيف فاجأتهم الأمور،ونزل بهم المحذور ، وجاءهم من فراق الأحبة ما كانوا يتوقعون ، وقدموا من الآخرة

---

(١٠) الفترة : الضعف .

(١١) الجيفة : هى جثة كل شىء يموت اذا انتنت وخرجت رائحتها . والمقصود هنا الدنيا ، فهى جيفة منتنة لا يتكالب عليها الا كلاب الطريق .

(١٢) على غرة : على غفلة على سبيل المفاجأة .

ما كانوا يوعدون ، فارقوا الدنيا وصاروا الى القبور ، وعرفوا ما كان فيه من الغرور ، فاجتمعت عليهم حسرتان : حسرة الفوت وحسرة الموت .

فاغبرت لها وجوههم ، وتغيرت بها ألوانهم ، وعرفت بها جباههم ، وشخصت أبصارهم ، وبردت أطرافهم ، وحيل بينهم وبين المنطق .

وان أحدهم لبين أهله ينظر ببصره ويسمع بأذنه ، ثم زاد الموت فى جسده حتى خالط بصره ، فذهبت من الدنيا معرفته ، وهلكت عند ذلك حجته ، وعاين هول أمر كان مغطى عليه ، فأحد[١٣] لذلك بصره .

ثم زاد الموت فى جسده ، حتى بلغت نفسه الحلقوم ، ثم خرج روحه من جسده فصار جسدا ملقى لا يجيب داعيا ، ولا يسمع باكيا ، فنزعوا ثيابه وخاتمه،ثم وضأوه وضوء الصلاة ، ثم غسلوه وكفنوه أدراجا[١٤] فى أكفانه ، وحنطوه ثم حملوه الى قبره ، فدلوه[١٥] فى حفرته ، وتركوه مخلى بمقطعات من الأمور ، وتحت مسألة منكر ونكير[١٦] ، مع ظلمة وضيق ، ووحشة قبر ، فذلك مثواه حتى يبلى جسده ويصير ترابا .

حتى اذا بلغ الأمر الى مقداره ، وألحق آخر الخلق بأوله ، وجاءه أمر من خالقه ، أراد به تجديد خلقه ، فأمر بصوت من سماواته ، فمارت السماوات مورا[١٧] ، وفزع من فيها ، وبقى ملائكتها على أرجائها .

---

(١٣) اى جعله حديدا شديدا شاخصا .

(١٤) الادراج : لف الشىء فى الشىء . فها هو قد لف فى اكفانه .

(١٥) دلوه اى انزلوه .

(١٦) ذلك أن الانسان اذا وضع فى قبره وذهب عنه أصحابه وأهله وخلانه جاءه ملكان منكر ونكير ، فيقعدان الميت ويسألانه : من ربك ؟ وما دينك وما النبى الذى بعث فيكم .

(١٧) مارت السماوات اى تحركت وجاءت وذهبت حتى اختل نظامها .

ثم وصل الأمر الى الأرض — والخلق رفات لا يشعرون — فأرج[١٨] الأرض وأرجفها وزلزلها ، وقلع جبالها ونسفها وسيرها ، وركب بعضها بعضا من هيبته وجلاله ، وأخرج من فيها ، فجددهم بعد بلائهم وجمعهم بعد تفرقهم ، يريد أن يحصيهم ويميزهم •

فريقا فى ثوابه ، وفريقا فى عقابه ، فخلد الأمر لأبده دائما ، خيره وشره ، ثم لم ينس الطاعة من المطيعين ، ولا المعصية من العاصين ، فأراد عز وجل أن يجازى هؤلاء وينتقم من هؤلاء •

فأثاب أهل الطاعة بجواره وحلول داره وعيش رغد وخلود أبد ومجاورة الرب ، وموافقة محمد ﷺ ، حيث لا ظعن[١٩] ولا تغير ، وحيث لا تصيبهم الأحزان ، ولا تعترضهم الأخطار ، ولا تشخصهم الاسفار •

وأما أهل المعصية فخلدهم فى النار ، وأوثق منهم الأقدام ، وغلت[٢٠] ومنهم الأيدى الى الأعناق ، فى لهب قد اشتد حره،ونار مطبقة[٢١] على أهلها ، لا يدخل عليهم بها روح[٢٢] ، همهم شديد ، وعذابهم يزيد ، ولا مدة للدار تنقضى ، ولا أجل للقوم ينتهى •

اللم انى أسألك بأن لك الفضل ، والرحمة بيدك ، فأنت وليهما ، لا يليهما أحد غيرك ، وأسألك باسمك المخزون المكنون ، الذى قام به عرشك

---

(١٨) أى جعلها ترتج وتهتز وتضطرب وتلقى ما فى جوفها .

(١٩) الظعن : الرحيل .

(٢٠) غلت الأقدام : قيدت وسلسلت بالسلاسل و القيود .

(٢١) مطبقة على أهلها : قد احاطت بهم فلا يستطيعون الفكاك منها .

(٢٢) الروح : هو النسيم العليل الذى ينعش النفوس ويسرها .

وكرسيك وسماواتك وأرضك ، وبه ابتدعت خلقك ، والصلاة على محمد ، والنجاة من النار برحمتك ، آمين ، انك ولى كريم •



٢ ــ خطبــة جامعة لخصال الخير

قام على بن أبى طالب خطيبا فقال :

« الحمد لله فاطر الخلق وفالق الاصباح ، وناشر الموتى وباعث من فى القبور ، وأشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله •

أوصيكم بتقوى الله ، فان أفضل ما توسل به العبد الايمان والجهاد فى سبيله ، وكلمة الاخــلاص فانها الفطــرة ، واقام الصلاة فانها الملة ، وايتــاء الزكاة فانها من فريضته ، وصوم شهر رمضان فانه جنة[٢٣] من عذابه ، وحج البيت فانه منفــاة للفقر مدحضة[٢٥] للذنب ، وصلة الرحم فانهامثراة[٢٥] فى المال منسأة[٢٦] فى الأجل محبة فى الأهل ، وصدقة السر

فانها تكفر الخطيئة وتطفىء غضب الرب ، وصنع المعروف فانه يدفع ميتة السوء ويقى مصارع الهول •

أفيضوا فى ذكر الله فانه أحسن الذكر ، وارغبوا فيما وعد المتقــون

---

(٢٣) جنة : وقاية .

(٢٤) مدحضة للذنب : مذهبة له ماحقة له .

(٢٥) اى سببا للثراء والغنى .

(٢٦) منسأة فى الأجل : زيادة فى العمر .

فان وعد الله أصدق الوعد ، واقتدوا بهدى نبيكم ﷺ فانه أفضل الهدى ، واستنوا بسنته فانها أفضل السنن ، وتعلموا كتـاب الله فانه أفضـل الحديث ، وتفقهوا فى الدين فانه ربيع القلوب •

واستشفوا بنوره فانه شفاء لما فى الصدور ، وأحسنوا تلاوته فانه أحسن القصص ، واذا قرىء عليكم فاستمعوا وأنصتوا لعلكم ترحمون •

واذا هديتم لعلمه فاعملوا بما علمتم به لعلكم تهتدون ، فان العالم العامل بغير علمه كالجاهل الجائر الذى لايستقيم عن جهله بل قد رأيت أن الحجة أعظم والحسرة أدوم على هذا العالم انسلخ من علمه على هذا الجاهل المتحير فى جهله ، وكلاهما مضلل مثبور •

لا ترتابوا ، ولا تشـكوا فتكفـروا ، ولا ترخصـوا لأنفسـكم فتذهـلوا[٢٧] ، ولا تذهـلوا فى الحق فتخسروا ، ألا وان من الحزم أن تثقوا ، ومن الثقة ألا تغتروا ، وان أنصحكم لنفسه أطوعكم لربه ، وان أغشكم لنفسه أعصاكم لربه ، من يطع الله يأمن ويستبشر ، ومن يعص الله يخف ويندم ، ثم سلوا الله وارغبوا فى العافية ، وخـير مادام فى القلب اليقين •

ان عوازم الأمور أفضلها ، وأن محدثاتها شرارها ، وكل محـدث بدعة ، وكل محدث مبتدع ، ومن ابتدع فقد ضيع ، وما أحدث محـدث بدعة الا ترك بها سنة•

المغبون من غبن دينـه ، والمغبـون من خسر نفسـه ، وان الرياء من الشرك ، وان الاخـلاص من العمل والايمان ، ومجالس اللهو تنسى

---

(٢٧) الذهول : ترك الشيء تناسيا له عن عمد أو شغله شاغل عنه ، فان الاكثار من الترخص فى الأمور يشغل الانسان كثيرا عن واجبات الدين .

القرآن ويحضرها الشيطان وتدعو الى كل غى ، ومجالسة النســاء تزيغ القلوب وتطمح اليه الأبصار وهى مصائد الشيطان •

اصدقوا الله فان الله مع من صدق ، وجانبوا الــكذب فان الــكذب مجانب للايمان ، ألا ان الصدق على شرف منجاة وكرامة ، وان الكذب على شرف ردى وهلكة •

ألا وقولوا الحق تعرفوا به ، واعملوا به تــكونوا من أهله ، وأدوا الأمانة الى من ائتمنكم ، وصلوا أرحام من قطعكم ، وعودوا بالفضل على من حرمكم ، واذا عاهدتم فأوفوا ، واذا حكمتم فاعدلوا ، ولا تفاخروا بالآباء ولا تنابزوا[٢٨] بالألقاب ولا تمازحوا ، ولا يغضب بعضكم بعضا •

وأعينوا الضعيف والمظلوم والغارمين[٢٩] فى سبيل الله وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ، وارحموا الأرملة واليتيم ، وأفشوا السلام وردوا التحية على أهلها بدئها أو بأحسن منها •

« وتعاونوا عى البر والتقوى ولا تعانوا على الاثم والعــدوان ، واتقوا الله ان الله شديد العقاب »[٣٠] •

وأكــرموا الضيف ، وأحسنوا الى الجار ، وعودوا المرضى ، وشــيعوا الجنازة ، وكونوا عباد الله اخوانا •

أما بعد ، فان الدنيا قد أدبرت وأذنت بوداع ، وان الآخرة قد أظلت

---

(٢٨) التنابز بالألقاب : رمى النــاس بعضهم بعضا بالألقاب السيئة المهينــة .

(٢٩) الغارمين : الذين لزمتهم الديون فى غير معصية .

(٣٠) سورة المائدة : ٢ .

وأشرفت باطلاع ، وان المضمار اليوم وغــدا السباق ، وان السبقة[٣١] الجنة والغاية النار .

ألا وأنكم فى أيام مهل من ورائها أجل يحثه عجل ، فمن أخلص لله عمله فى أيام مهلة قبل حضور أجله فقد أحسن عمله ونال أمله ، ومن قصر عن ذلك فقد خسر عمله وخاب أمله وضره أمله ، فاعملوا فى الرغبة والرهبة ، فان نزلت بكم رغبة فاشكروا الله واجمعوا معها رهبة ، وان نزلت بكم رهبة فاذكروا الله واجمعوا معها رغبة ، فان الله قد تأذن المسلمين بالحسنى ولمن شكر بالزيادة .

وانى لم أر مثل الجنة نام طالبها ولا كالنار نام هاربهــا ، ولا أكثر مكتسبا من شىء كسبه ليوم تدخر فيه الذخائر وتبلى فيه السرائر وتجتمع فيه الكبائر .

وانه من لا ينفعه الحق يضره الباطل ، ومن لا يستقيم به الهــدى يجر به الضلال ، ومن لا ينفعه اليقين يضره الشك ، ومن لا ينفعه حاضره فعازبه[٣٢] عنه أعوز وغائبه عنه أعجز .

وانكم قد أمرتم بالظعن[٣٣] ودللتم على الزاد ، ألا وان أخوف ما أخاف عليكم اثنان : طول الأمل واتباع الهوى ، فأما طــول الأمل فينسى الآخرة ، وأما اتباع الهوى فيبعد عن الحق .

ألا وان الدنيا قد ترحلت مدبرة ، وان الآخرة قد ترحلت مقبــلة ، ولهما بنون فكونوا من أبناء الآخــرة ان استطعتم ، ولا تــكونوا من

---

(٣١) أى ان الجنة مجال التسابق والتنافس .

(٣٢) العازب : الغائب البعيد .

(٣٣) الظعن : الرحيل .

بنى الدنيا ، فان اليوم عمل ولا حساب وغدا حساب ولا عمل »[٣٤] .

* * *

٣ — وصيته الجامعة لكميل

عن كميل النخعى قال : أخذ بيدى على بن أبى طالب ، فخرج بى الى ناحية الجبانة ، فلما أصحر[٣٥] تنفس الصعداء ثم قال :

« يا كميل ، ان هذه القلوب أوعية ، فخيرها أوعاها ، فاحفظ عنى ما أقول لك :

الناس ثلاثة : عالم ربانى ، ومتعلم على سبيل نجاة ، وهمج رعاع أتباع كل ناعق ، مع كل ريح يميلون ، لم يستضيئوا بنور العلم ، ولم يلجأوا الى ركن وثيق .

يا كميل ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، والمال تنقصه النفقة والعلم يزكو على الانفاق ، ومنفعة المال تزول بزواله .

يا كميل ، محبة العلم دين يدان به ، يكسب الانسان الطاعة فى حياته ، وجميل الأحدوثة بعد وفاته ، والعلم حاكم والمال محكوم عليه .

يا كميل ، مات خزان المال وهم أحياء ، والعلماء باقون ما بقى الدهر ، أعيانهم مفقودة ، وأمثالهم موجودة ، ان هاهنا لعلما جما — وأشار بيده الى صدره — لو وجدت له حملة ، بلى أجد لقنا[٣٦] غير مأمون ، يستعمل آلة الدين للدنيا ، ويستظهر بنعم الله على عباده وبحججه

---

(٣٤) البداية والنهاية لابن لاكثير (٣٠٧/٧) ، وحياة الصحابة (٤٧٢/٣ — ٤٧٤) ، وجاء بعضها فى اعجاز القرآن للباقلانى (ص ١٤٥) .

(٣٥) اصحر : خرج الى الصحراء .

(٣٦) اللقن : سريع الفهم والفطنة ، ولكنه غير مأمون اى غير ثقة .

على أوليائه ، أو منقادا لحملة الحق ولا بصيرة فى أحنائه[٣٧] .

ينقدح[٣٨] الشك فى قلبه لأول عارض من شبهة ، لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء ، أو منهوما باللذة سلس[٣٩] القيادة للشهوة ، أو مغرما بالجمع والادخار ، ليسا من رعاة الدين فى شىء ، أقرب شبها بهما الأنعام السائمة[٤٠] .

كذلك يموت العلم بموت حامليه ، اللهم بلى لا تخلو الأرض من قائم بحجة الله ، اما ظاهرا مشهورا ، واما خائفا مغمورا ، لئلا تبطل حجج الله وبيناته .

وكم ذا وأين ؟ أولئك والله الأقلون ، والأعظمون عند الله قدرا ، بهم يحفظ الله حججه وبيناته ، حتى يودعوها نظراءهم ، ويزرعوها فى قلوب أشباههم .

هجم بهم العلم على حقيقة الايمان حتى باشروا روح اليقين ، فاستلانوا ما استخشن المترفون ، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون ، وصحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالرفيق الأعلى .

---

(٣٧) أحنائه : جوانبه ، فهو ينقاد لأهل الحق لا فهما للحق وايمانا به ولكن هو التقليد فحسب ، فهو لا يحمل بين جوانب نفسه بصيرة يميز بها بين الحق والباطل .

(٣٨) أى يؤثر الشك فى صدره عند ورود أى شبهة اليه ، ذلك لأن الايمان واليقين لم يتمكن فى قلبه .

(٣٩) سلس القيادة : سهل الانقياد .

(٤٠) الأنعام السائمة : الماشية والأغنام التى ترعى حيث شاءت . والمقصود هنا انه ليس له انقياد للحق ، به هو منقاد لشهواته ونزواته حيثما كانت ، وقد يقلد أهل الحق فى شىء ثم ينكص على عقبيه فينقاد سهولة لأهل الباطل .

يا كميل ، أولئك خلفاء الله فى أرضه ، والدعاة الى دينه ، آه آه شوقا اليهم . انصرف يا كميل اذا شئت(٤١) .

* * *

٤ — من كلامه عليه السلام

فى آداب الحكماء والعلماء

« من حلم ساد ، ومن ساد استفاد ، ومن استحيا حرم ، ومن هاب خاب ، ومن طلب الرئاسة صبر على السياسة ، ومن أبصر عيب نفسه عمى عن عيب غيره ، ومن سل سيف البغى قتل به .

ومن احتفر لأخيه بئرا وقع فيها ، ومن نسى زلته استعظم زلة غيره ، ومن هتك حجاب غيره انتهكت عورات بيته ، ومن كابر فى الأمور عطب ، ومن اقتحم اللجه(٤٢) غرق .

ومن أعجب برأيه ضل ، ومن استغنى بعقله زل ، ومن تجبر على الناس ذل ، ومن تعمق فى العمل مل ، ومن صاحب الأنذال حقر ، ومن جالس العلماء وقر ، ومن دخل مداخل السوء اتهم .

ومن حسن خلقه سهلت له طرقه ، ومن حسن كلامه كانت الهيبة أمامه ، ومن خشى الله فاز ، ومن استقاد الجهل ترك طريق العدل ، ومن عرف أجله قصر أمله .

---

(٤١) العقد الفريد — ابن عبد ربه الأندلسى — لجنة التاليف والترجمة والنشر ١٩٤٠م — (٢/٢١٢ — ٢١٣) .

(٤٢) اللجج : جمع لجة . ومنه لجة البحر : الماء الكثير الذى لا يرى طرفاه . فمن يدخل فى غمرة هذا الماء الكثيف يغرق . وكذا من دخل فى لج الأمور فى اختلاطها بشبهاتها وتفريعاتها يغرق فيها فلا يهتدى للحق منها .

ثم أنشأ يقول :

ألبس أخاك على عيوبه   واستر وغط على ذنوبه
وصبر على بهت السفيه   وللزمان على خطوبه
ودع الجواب تفضلا   وكل الظلوم الى حسبه »[٤٣]

* * *

« أوصيكم عباد الله ونفسى بتقوى الله ولزوم طاعته ، وتقديم العمل ، وترك الأمل ، فانه من فرط فى علمه لم ينتفع بشىء من أمله .

أين التعب بالليل والنهار ، والمقتحم لجج البحار ، ومفاوز القفاز[٤٤] ؟ يسير من وراء الجبال وعالج[٤٥] الرمال ، يصل الغدو بالرواح ، والمساء بالصباح فى طلب محقرات الأرباح ، هجمت عليه منيته ، فعظمت بنفسه رزيته ، فصار ما جمع بورا ، وما اكتسب غرورا ، ووافى القيامة محسورا[٤٦] .

أيها اللاهى الغار[٤٧] نفسه ، كأنى بك وقد أتاك رسول

---

(٤٣) العقد الفريد لابن عبد ربه (٢/٤٢٠ — ٤٢١) .

(٤٤) المفاوز : الصحارى القفار المهلكة ، وقد سميت الصحراء مفازة لأن من دخلها وخرج منها سالما فقد فاز ، والقفاز : جمع قفزة ، وهى الأرض التى ليس بها نبات ولا ماء .

(٤٥) عالج الرمال : هو ما تراكم من الرمل ودخل بعضه فى بعض .

(٤٦) محسورا : نادما أشد الندم على ما قدم واقترف من الذنوب وترك من الطاعات .

(٤٧) الذى يغر نفسه ويخدعها بجهله .

ربك[٤٨] ، لا يقرع لك بابا ، ولا يهاب لك حجابا ، ولا يقبل منك بديلا ، ولا يأخذ منك كفيلا ، ولا يرحم لك صغيرا ، ولا يوقر فيك كبيرا ، حتى يؤديك الى قعر مظلمة ، أرجاؤها موحشة ، كفعله بالأمم الخالية والقرون الماضية .

أين من سعى واجتهد ، وجمع وعدد ، وبنى وشيد ، وزخرف ونجد[٤٩] ، وبالقليل لم يقنع ، وبالكثير لم يمتع ؟ !!



٥ — وصية أمير المؤمنين

على بن أبى طالب لابنه الحسن

« من الوالد الفانى ، المقر للزمان ، المدبر للعمر ، المستسلم فيه للدهر ، الذام للدنيا ، الساكن مساكن الموتى ، الظاعن اليهم عنها غدا ، الى المولود المؤمل ما لا يدرك ، السالك سبيل من قد هلك ، عرض الأسقام ، ورهينة الأيام ، ورمية المصائب ، وعبد الدنيا ، وتاجر الغرور ، وغريم المنايا ، وأسير الموت ، وحلف الهموم ، وقرين الأحزان ، ونصب الآفات ، وصريع الشهوات ، وخليفة الأموات .

أما بعد ، فان فيما قد تبينت من ادبار الدنيا عنى ، وجنوح[٥٠] الدهر على ، واقبال الآخرة على ، ما يزعنى[٥١] عن ذكر ما سواى ، والاهتمام بما ورائى ، غير أنى حين تفرد بى دون هموم الناس هم نفسى ، فصدقنى

---

(٤٨) يقصد ملك الموت .

(٤٩) التنجيد : هو تزيين البيوت بالفرش والوسائد والبسط وانواع الزينة المختلفة .

(٥٠) جنوح الدهر : ميله على الانسان بمصائبه ودواهيه .

(٥١) ما يزعنى : يكفنى ويزجرنى .

رأيى ، وتصرف بى هواى ، وصرح الى محض أمرى ، فأقصى بى الى جد لا يزرى[٥٢] به لعب ، وصدق لا يشوبه كذب •

وجـــدتك — أى بنى — من بعضى ، بل وجدتك من كلى ، حتى كان شيئا لو أصابك أصابنى ، وكان الموت لو أتاك أتانى ، فعنانى[٥٣] من أمرك ما عنانى من نفسى ، فكتبت اليك كتابى هذا ان أنا بقيت أو فنيت •

وانى أوصيك يا بنى بتقوى الله ، ولزوم أمره ، وعمارة قلبك بذكره، والاعتصام بحبله فهو أوثق السبب بينك وبينه •

يا بنى أحيى قلبك بالموعظة،وأمته بالزهد ، وقوه باليقين،وذلله بذكر الموت ، واكسره بالفناء ، وبصره فجائع الدنيا ، وحذره صولة[٥٤] الدهر ، وفحش تقلب الأيام ، واعرض عليه أخبار الماضين ، وذكره ما أصاب من كان قبلك •

وسر فى ديارهم ، واعتبر بآثارهم ، وانظر ما فعلوا ، وعمن انتقلوا ، وأين حلوا ، فانك تجدهم انتقلوا عن الأحبة وحلوا دار الغربة ، وكأنك عن قليل قد صرت كأحدهم ، فأصلح مثواك ، واحرز[٥٥] آخرتك ودع القول فيما لا ترف ، والدخول فيما لا تكلف ، وأمسك عن السير اذا خفت ضلالة ، فان الكف عند حيرة الضلالة خير من ركوب الأهوال •

وأمر بالمعروف تكن من أهله ، وأنكر المنكر بيدك ولسانك وبائن[٥٦]

---

(٥٢) لا يتهاون ويتناقص به لعب .

(٥٣) فعنانى من أمرك : فشق على واهمنى .

(٥٤) صولة الدهر : سطوته وقهره .

(٥٥) احرز اخرتك : اجعلهـا مقصدك دائما وضمها اليك واحفظها ولا تفرط فيها .

(٥٦) أى فارق من فعل المنكر جهد طاقتك وبكل ما تملك من جهد .

من فعله بجهدك ، وخفض الغمرات الى الحق ، وتفقه الدين ، وعود نفسك الصبر على المكروه ، وألجىء نفسك فى الأمور كلها الى الله ، فانك تلجئها الى كهف حريز (٥٧) ومانع عزيز •

وأخلص فى المسألة لربك ، فان بيده العطاء والحرمان ، وأكثر الاستخارة ، وتفهم وصيتى لا تذهبن عنك صفحا (٥٨)

أى بنى •• انى لما رأيتنى قد بلغت سنا ، ورأيتنى ازددت وهنا ، بادرت وصيتى اياك خصالا منهن أن تجعل بى أجلى قبل أن أقضى اليك ما فى نفسى ، وأنقص فى رأيى كما نقصت فى جسمى ، أو تسبقنى اليك بعض غلبة الهوى و فتن الدنيا ، فتكون كالصعب النفور (٥٩) •

وانما قلب الحدث (٦٠) كالأرض الخالية ، ما ألقى فيها من شىء قبلته ، فباكرتك بالأدب قبل ان يقسو قلبك ويشغل لبك (٦١) ، لتستقبل بجد رأيك ما قد كفاك تجربته ، فتكون قد كفيت مؤنة الطلب ، وعوفيت من علاج التجربة ، فآتاك من ذلك ما قد كنا نأتيه ، واستبان لك ما ربما أظلم علينا فيه •

أى بنى ، انى لم أكن عمرت عمر من كان قبلى ، فقد نظرت فى أعمارهم ، وفكرت فى أخبارهم ، وسرت فى آثارهم ، حتى عدت كأحدهم

---

(٥٧) اى محفوظ مصان منيع .

(٥٨) صفحا : جانبا . اى لا تدع وصيتى هذه تذهب عنك جانبا او تبتعد عنك .

(٥٩) اى تنفر من نصيحتى فلا تقبلها .

(٦٠) الحدث : الشاب الحديث السن الصغير .

(٦١) لبك : عقلك .

بل كأنني لما قد انتهى الى من أمورهم قد عمرت مع أولهم الى آخرهم ، فعرفت صفو ذلك من كدره ، ونفعه من ضرره ، فاستخلصت من كل أمر نحيلته[٦٢] ، وتوخيت لك جميلته ، وصرفت عنك مجهولة .

ورأيت عنايتى بك واجبة على ، فجمعت لك ما ان فهمته أدبك ، فاغتنم ذلك وأنت مقتبل بين النية واليقين ، فعليك بتعليم كتاب الله وتأويله ، وشرائع الاسلام وأحكامه وحلاله وحرامه ، لا تجاوز ذلك قبله الى غيره .

فان أشفقت أن تلبسك شبهة لما اختلف فيه الناس من أهوائهم ورأيهم مثل الذى لبسهم ، فتقصد فى تعليم ذلك بلطف .

يا بنى ، وقدم عنايتك فى الأمر ليكون ذلك نظرا لدينك لا مماريا[٦٣] ولا مفاخرا ولا طالبا لعرض عاجلتك ، فان الله يوفقك لرشدك ، ويهديك لقصدك ، فاقبل عهدى اليك ، ووصيتى لك .

واعلم يا بنى أن أحب ما أنت آخذ به من وصيتى تقوى الله والاقتصار على ما افترض الله عليك ، والأخذ بما مضى عليه أولوك من آبائك ، والصالحون من أهل بيتك ، فانهم لم يدعوا أن ينظروا لأنفسهم كما أنت ناظر ، وفكروا كما أنت مفكر ، ثم ردهم ذلك الى الأخذ بما عرفوا ، والامساك عما لم يكلفوا .

فان أبت نفسك أن تقبل ذلك دون أن تعلم ما علموا فيكون طلبك ذلك بتعليم وتفهم وتدبر ، لا بتوارد الشبهات وعلم الخصومات .

وابدأ قبل نظرك فى ذلك بالاستعانة بالله عليه ، والرغبة اليه ،

---

(٦٢) نحيلته : خلاصته . وهى مأخوذة من النحل الذى يأخذ من كل الأزهار والرياحين ويعطى لنا خلاصة هذا كله فى شكل عسل .

(٦٣) المارى هو المجادل فى الباطل بغية الجدال والظهور لا طلبا للوصول للحق .

واحذر كل شائبة أدخلت عليك شبهة ، وأسلمتك الى ضلالة ، فاذا أيقنت أن قد صفا قلبك فاخشع ، وتم رأيك فاجتمع،كان همك فى ذلك هما واحدا، فانظر فيما فسرت لك •

وان أنت لم يجتمع لهما ما تحب من فراغ نظرك فاعلم أنك انما تخبط خبط عشواء ، وليس من طلب الدين من خبط ولا خلط ، والامساك عند ذلك أمثل •

وان ما أبدؤك به فى ذلك آخره أنى أحمد الله الهى والهك ، اله الأولين والآخرين ، رب من فى السموات ومن فى الأرضين بما هو أهله ، وكما هو آلهه ، وكما يحب وينبغى له ، وأسأله أن يصلى على نبينا محمد ﷺ ، وأن يتم علينا نعمه لما وفقنا من مسألته ، والاجابة لنا ، فان بنعمته تتم الصالحات •

اعلم أى بنى أن أحدا لم ينبىء عن الله عز وجل كما نبأ محمد ﷺ فارض به رائدا ، فانى لم آلك نصيحة ، ولم تبلغ فى ذلك ، وأنى اجتهدت مبلغى فى ذلك لعنايتى وطول تجربتى وان نظرى لك كنظرى لنفسى •

اعلم أن الله واحد أحد صمد ، لا يضاده فى ملكه أحد ، ولا يزول ولم يزل ، أول من قبل الأشياء ، بلا أولية ، وآخر بلا نهاية، حكيم عليم قديم ، لم يزل كذلك •

فاذا عرفت ذلك فافعل كما ينبغى لمثلك فى صغر خطره ، وقلة مقدرته ، وكثرة عجزه ، وعظيم حاجتك الى ربك ، فاستعن بالهك فى طلب حاجتك ، وتقرب اليه بطاعته ، وارغب اليه بقدرته ، وارهب منه لربوبيته ، فانه حكيم لم يأمرك الا بحسن ، ولم ينهك الا عن قبيح •

اجعــل نفسك ميزانا بينك وبين غــيرك ، وأحبب لغــيرك ما تحب لنفسك ، واكره له ما تكره لها ، ولا تظلم كما لا تحب أن تظلم ، وأحسن كما تحب أن يحسن اليك ، ولا تقل ما لا تعلم بل قل مما تعلم ، ولا تقل ما لا تحب أن يقال لك .

اعلم يا بنى أن الاعجاب ضد الصواب ، وآفة الألباب ، فاسع فى كدحك ، ولا تكن خازنا لغيرك ، فاذا هديت لقصدك فكن أخشع ما تــكون لربك ، واعلم أن أمامك طريقا ذا مشقة بعيدة وأهــوال شــديدة ، وأنك لا غنى بك عن حسن الارتياد ، وقدر بلاغك من الزاد من خفة الظهــر ، فلا تحملن على ظهرك فوق طاقتك ، فيكون ثقله وبالا عليك .

واذا وجدت من أهل الحاجة من يحمل لك زادك ، وأوافيك به حيث تحتاج اليه فاغتنمه ، واغتنم ما أقرضت من استقرضك فى حال غناك .

واعلم أن أمامك عقبة كئودا[٦٤] ، مهبطها على جنة أو على نــار ، فارتد لنفسك قبل نزولك ، فليس بعد الموت مستعتب[٦٥] ، ولا الى الدنيا منصرف .

واعلم أن الذى بيده خزائن السموات والأرض قد أذن لك فى الدعاء ، وضمن الاجابة ، وأمرك أن تسأله فيعطيك ، وتطلب اليه فيرضيك .

وهو رحيم لم يجعل بينك وبينه حجابا ، ولم يلجئك الى من تشفع به اليه ، ولم يمنعك ان أسأت التوبة ، ولم يعاجلك بالنقمة ، ولم يؤيسك من

---

(٦٤) العقبة الكئود : الشاقة الثقيلة .

(٦٥) أى ليس بعد الموت من استرضاء ، فقد مضى زمان العمل وجاء زمان الحساب حيث لا رجعة للدنيا .

رحمته ، ولم يسد عليك باب التوبة ، وجعل توبتك النزوع عن الذنب ، وجعل سيئتك واحدة ، وجعل حسنتك عشرا .

واذا ناديته أجابك ، واذا ناجيته علم نجواك ، فأفضيت اليه بحاجتك ، وأنثته ذات نفسك ، وشكوت اليه همومك ، واستعنته على أمورك ، وسألته من خزائن رحمته ، التى لا يقدر على اعطائها غيره من زيادة الأعمار ، وصحة الأبدان ، وسعة الرزق ، وتمام النعمة .

فالحح فى المسألة ، فبالدعاء تفتح أبواب الرحمة ، ولا يقنطنك(٦٦) ابطاء اجابته ، فان العطية على قدر النية ، فربما أخرت الاجابة متطول مسألة السائل فيعظم أجره ويعطى سؤله ، وربما ذخر ذلك له فى الآخرة ، فيعطى أجر تعبده ، ولا يفعل بعبده الا ما هو خير له فى العاجلة والآجلة ، ولكن لا يحد لطفه أحد ، ولا يعرف دقائق تدبيره الا المصطفون .

ولتكن مسألتك لما يبقى ويدوم فى صلاح دنياك ، وتسهيل أمرك وشمول عافيتك ، فانه قريب مجيب .

اعلم أى بنى أنك خلقت للآخرة لا للدنيا، وللفناء لا للبقاء، وانك فى منزل قلعة ، دار بلغة ، وطريق الآخرة ، وانك طريدة الموت الذى لا ينجو منه هاربه ، ولا يفوته طالبه ، فاحذر أن يدركك وأنت على حال سيئة ، وأعمال مردية(٦٧) ، فتقع فى ندامة الأبد ، وحسرة لا تنفد ، فتفقد دينك لنفسك ، فدينك لحمك ودمك ، ولا ينقذك غيره .

---

(٦٦) القنوط : اليأس .

(٦٧) مردية : مهلكة .

أى بنى ، أكثر ذكر الموت وذكر ما تهجم عليه ، وتفضى بعد الموت اليه ، واجعله نصب عينيك ، حتى يأتيك ، وقد أخذت له حذرك ، ولا يأتيك بغتة فيبهرك[٦٨] ،وأكثر ذكر الآخرة وكثرة نعيمها وحبورها[٦٩] وسرورها ودوامها وكثرة صنوف لذاتها ، وقلة آفاتها اذا سلمت .

وفكر فى ألوان عذابها وشدة غمومها ، وأصناف نكالها[٧٠] ان أنت تيقنت ، فان ذلك يزهدك فى الدنيا ، ويرغبك فى الآخرة،ويصغر عندك زينة الدنيا ، وغرورها وزهرتها ، فقد نبأك الله عنها ، وبين أمرها وكشف عن مساويها .

فاياك أن تغتر بما ترى من اخلاد[٧١] أهلها اليها ، وتكالبهم عليها ككلاب عاوية وسباع ضاربة ، يهر[٧٢] بعضهم الى بعض ، عزيزها ذليلها ، وكثيرها قليلها ، قد أضلت أهلها عن قصد السبيل ، وسلكت بهم طريق العمى ، وأخذت بأبصارهم عن منهج الصواب ، فتاهوا فى حيرتها،وغرقوا فى فتنتها ، واتخذوها ربا[٧٣] ، فلعبت بهم ولعبوا بها ونسوا ما وراءها ، فاياك يا بنى أن تكون مثل من قد شانته[٧٤] بكثرة عيوبها .

أى بنى ، انك أن تزهد فيما قد زهدتك فيه من أمر الدنيا ، وتعرض نفسك عنها ، فهى أهل ذلك ، فان كنت غير قابل نصحى اياك منها فاعلم

---

(٦٨) فيقهرك ويغلبك .

(٦٩) الحبور : السرور .

(٧٠) النكال : العذاب .

(٧١) اخلاد اهلها : ركونهم الى الدنيا .

(٧٢) يهر : يكره بعضهم بعضا .

(٧٣) اصبحت الدنيا كل حياتهم ، حتى انهم اعتبروها مصدر الرى والهناء ، ومعلوم ان الرى هو سبب من أسباب استمرار الحياة .

(٧٤) شانته : تركت عيبا فيه ووصمته بالمعايب والمساوىء .

يقينا أنك لن تبلغ أملك ، ولن تعدو أجلك ، فانك فى سبيل[٧٥] من قد كان قبلك ، فاجمل فى الطلب ، واعرف سبيل المكتسب ، فانه رب طلب قد جر الى حرب ، وليس كل طالب يصيب ، ولا كل غائب يؤوب[٧٦] ، وأكرم نفسك عن كل دنية ، وان ساقتك •

اياك أن تعتاض بما تبذل من نفسك عوضا ، وقد جعلك الله به حرا ، وما منفعة خير لا يدرك باليسير ، ويسير لا ينال الا بالعسير ، واياك أن توجف[٧٧] بك مطايا الطمع ، فتوردك مناهل[٧٨] الهلكة •

وان استطعت ألا تكون بينك وبين الله ذو نعمة فافعل ، فانك مدرك قسمك وآخذ سهمك ، وان اليسير من الله أعظم وأكرم ، وان كان كل من الله ، ولله المثل الأعلى •

واعلم أن لك فى يسير مما تطلب فتنال من الملوك افتخارا وبيع عرضك ودينك عليك عار ،فاقتصد فى أمرك تحمد معقبة عقلك ، انك لست بائعا شيئا من عرضك ودينك الا بثمن ، والمغبون من حرم نصيبه من الله ، فخذ من الدنيا ما أتاك ، وتول عما تولى عنك •

فان أنت لم تفعل فأجمل فى الطلب ، واياك ومقاربة من يشينك ، وتباعد من السلطان ، ولا تأمن خدع الشيطان ، ومتى ما رأيت منكرا من أمرك فأصلحه بحسن نظرك ، فان لكل وصف صفة ، ولكل قول حقيقة ،

---

(٧٥) اى انك سائر فى نفس الطريق الذى سار فيه من كان قبلك وهو طريق الرحيل عن الدنيا مهما طال عمرك ، فهذا طريق كل حى •

(٧٦) يؤوب : يعود ويرجع الى اهله وأحبابه •

(٧٧) توجف : تسرع •   الوجيف : السير السريع •

(٧٨) المناهل : الموارد التى يستقى ويشرب منها الماء •

ولكل أمرا وجها ، ينال الأريب[٧٩] فيه رشده ، ويهلك الأحمق بتعسفة فيه نفســـه .

يا بنى .. كم قد رأيت من قيل له تحب أن تعطى الدنيا بما فيهـــا مائة سنة بلا آفة ولا أذى ، لا ترى فيها سوء! ، ويكون آخر أمرك عـــذاب الأبد ، فلا يقنع بها ولا يريدها ، ورأيته قد أهلك دينه ونفسه باليسير من زينة الدنيا ، وهذا من كيد الشيطان وحبائله[٨٠] فاحذر مكيدته وغروره.

يا بنى .. أملك عليك لسانك ، ولا تنطق فيما تخاف الضرر فيه ، فان الصمت خير من الكلام فى غير منفعة ، وتلافيك ما فرط من همتك أيسر من ادراكك ما فات من منطقك .

واحفظ ما فى الوعـــاء بشـــد الوكاء[٨١] ، واعلم أن حفظ ما فى يديك خير من طلب ما فى يد غيرك ، وحسن التدبير مع الكفاف[٨٢] أكفى لك من الكثير فى الاسراف ، وحسن اليأس خير لك من الطلب الى الناس .

يا بنى .. لا تحـــدث عن غـــير ثقة فتكون كـــذابا ، والـــكذب داء فجانبه[٨٣] وأهله .

يا بنى .. العفة مع الشدة خير من الغنى مع الفجور ، منفكر أبصر ومن كثر خطؤه هجر ، رب مضيع ما يسره ، وساع فيما يضره ، من خـــير

---

(٧٩) الأريب : العاقل .

(٨٠) حبائله : مصايده . مفردها حبالة .

(٨١) الوكاء : كل سير او خيط يشد به فم السقاء أو الوعاء .

(٨٢) الكفاف من القوت : الذى يكون على قدر حاجة الانسان ويغنيه عن سؤال الناس فلا يزيد عنه شىء ولا ينقص .

(٨٣) جانبه : ابتعد عنه وعن اهله .

حظ المرء قرين صـــالح ، فقارن أهل الخـــير تكن منهم ، وبائن أهـــل الشر تبن منهم •

ولا يغلبن عليك سوء الظن ، فانك لن تدع بينك وبين خليلك صلحا ، قد يقال من الحزم سوء الظن •

بئس الطعام الحرام ، وظلم الضعيف أفحش الظلم ، الفاحشة تقصم القلب ، اذ كان الرفق خرقا(٨٤) كان الخرق رفقا ، وربما كان الداء دواء ، وربما نصح غير الناصح وغش المتنصح •

ايــاك والاتكـــال عـــلى المنى فانهـــا بضـــائع النـــوكى(٨٥) ، ذك(٨٦) قلبك بالأدب كما تذكى النار الحطب ، ولا تكن كحـــاطب الليـــل وغثاء(٨٧) السيل •

كفر النعمة لؤم ، وصحبة الجاهل شؤم ، والعقل حفظ التجارب ، وخير ما جربت ما وعظك ، ومن الكرم لين الشيم(٨٨) ، بادر الفرصة قبل أن تكون غصة ، ومن الحزم العزم(٨٩) ، ومن سبب الحـــرمان التوانى ، ومن الفساد اضاعة الزاد ومسدة المعاد •

لكل أمر عاقبة ، فرب مشير بما يضر ، لا خير فى معين مهين ، ولا فى صـــديق ظنين(٩٠) لا تـــدع الطلب فيمـــا يحـــل ويطيب فـــلابـــد من بلغة(٩١) ، وسيأتيك ما قدر لك •

---

(٨٤) الخرق : الحمق والجهل .
(٨٥) النوكى : الحمقى . والأنوك : الأحمق .
(٨٦) ذك قلبك : اى اشعله واجعله متقدا بالأدب .
(٨٧) الغثاء : ما يحمله السيل ويسوقه أمامه من الزبد والوسخ وغيره .
(٨٨) الشيم : الصفات .
(٨٩) العزم : الاشتداد فى اخذ تعاليم الله بالحزم والعزم الأكيدين .
(٩٠) ظنين : كثير الظن فى الناس .
(٩١) البلغة : ما يتبلغ به من العيش بدون زيادة على الحاجة .

التاجر مخاطر ، من حلم ساد ، ومن تفهم ازداد ، ولقاء أهل الخير عمارة القلوب ، ما ذل لك بقوة .

وإياك أن تطمح بك مطية اللجاج ، وان قارفت سيئة فعجل محوها بالتوبة ، ولا تخن من ائتمنك وان خانك ، ولا تذع سر وان أذاع سرك .

خذ بالفضل ، واحسن البذل ، وأحبب للناس الخير ، فان هذه من الأخلاق الرفيعة ، واذك قلما تسلم ممن تسرعت اليه ، وكثيرا ما يحمد من تفضلت عليه .

اعلم أي بني أن من الكرم الوفاء بالذمم والدفع عن الحرم ، والصدود آية المقت[٩٢] ، وكثرة العال آية البخل ، وبعض الامساك عن أخيك مع الالف خير من البذل مع الجنف[٩٣] ، ومن الكرم صلة الرحم ، والتحرم وجه القطيعة .

احمل نفسك من أخيك عند جموحه على البذل ، وعند تباعده على الدنو ، وعند شدته على اللين ، وعند تحرمه على الاعتذار ، حتى كأنك له عبد ، وكأنه ذو نعمة عليك .

ولا تضع ذلك في غير موضعه ، ولا تفعله بغير أهله ، ولا تتخذ من عدو صديقك صديقا ، فتعادي صديقك ، ولا تعمل بالخديعة فانها أخلاق اللئام ، وامحض[٩٤] أخاك النصيحة — حسنة كانت أم قبيحة — وساعده على كل حال ، وزل معه حيث زال ، ولا تطلبن منه المجازاة فانها من شيم الدناءة ، وخذ على عدوك بالفضل ، فانه أحرى للظفر .

---

(٩٢) المقت : المكره .

(٩٣) الجنف : الميل عن الحق والظلم .

(٩٤) امحض اخاك النصيحة : اخلص له النصيحة .

لا تصرم[٩٥] أخاك على ارتياب ، ولا تقطعه دون استعتاب ، وان من غالظك فانه يوشك أن يلين ، ما أقبح القطيعة بعد الصلة ، والجفاء بعد اللطف ، والعداوة بعد المودة ، والخيانة لمن ائتمنك ، وخلف الظن لمن ارتجاك ، والغرر بمن وثق بك .

وان أردت قطيعة أخيك فاستبق له من نفسك بقية ، ومن ظن بك خيرا فصدق ظنه ، ولا تضيعن بر أخيك اتكالا على ما بينك وبينه ، فانه ليس لك بأخ من أضعف حقه .

لا يكون أهلك أشقى الناس بك ، ولا ترغبن فيمن زهد فيك ، ولا تزهدن فيمن رغب اليك ، اذا كان للخاط موضعا لا يكونن أخوك أقوى على قطيعتك منك على صلته ، لا يكونن على الاساءة أقوى منك على الاحسان اليه ، ولا على البخل أقوى منك على البذل ، ولا على التقصير أقوى منك على الفضل .

لا يكثرن عليك ظلم من ظلمك ، فانه يسعى فى مضرته ونفعك ، وليس جزاء من سرك أن تسوءه .

اعلم أى بنى أن الرزق رزقان ، رزق تطلبه ورزق يطلبك ، فان لم تأته أتاك ، واعلم أن الدهر ذو صروف ، فلا تكونن ممن يسبك لاعنة للدهر ومحفلا عند الناس عذره .

ما أقبح الخضوع عند الحاجة ، والجفاء عند الغنى ، انما لك من دنياك ما أصلحت به مثواك ، فأنفق يسرك ، ولا تكن خازنا لغيرك ، فان كنت جازعا مما تفلت من يديك فاجزع على ما لا يصل اليك .

---

(٩٥) لا تصرم أخاك : أى لا تقطع علاقتك به ومودتك له لمجرد الشك والظن .

استدل على ما لم يكن بمـــا قد كان ، فان الأمور أشباه يشبه بعضها بعضا ، ولا تكفرن ذا نعمة فان كفر النعمة من قلة الشكر ولؤم الخلق ، وأقلل العذر ، ولا تكونن ممن لا تنفعه العظة الا اذا بلغت فى الملامة ، فان العاقل يتعظ بالقليل ، والبهائم لا تنتفع الا بالضرب •

واتعظ بغيرك ، ولا يكونن غيرك متعظا بك ، واحتـــذ بحـــذاء[٩٦] الصالحين ، واقتد بآدابهم ، وسر بسيرتهم ، واعرف الحق لمن عــرفه لك رفيعا كان أو وضيعا ، واطرح عنك واردات الهموم بعزائم الصبر •

من ترك القصد جاز ، نعم حظ المرء القناعة ، شر ما أشعر قلب المرء الحسد ، فى القنوط التفريط ، وفى الخوف من العواقب البغى ، الحســـد لا يجاب الا مضرة وغيظا يوهن قلبك ويمرض جســـمك ، فأصرف عنـــك الحسد تغنم ، وأتق صدرك من الغل تسلم •

وارج من بيده خزائن الأرض والأقوات والسماوات ، وسله طيب المكاسب تجده منك قريبا ولك مجيبا ، الشح يجلب الملامة ، والصـــاحب الصالح مناسب ، والصديق من صدق غيبه ، والهوى شريك العمى ، ومن التوفيق سعة الرزق •

نعم طارد الهموم اليقين ، وفى الصدق النجاة ، عاقبـــة الكذب شر عاقبة ، رب بعيد أقرب من قريب ، وقريب أبعد من بعيد ، والغريب من لم يكن له حبيب ، من تعدى الحق ضاق مذهبه ، من اقتصر على قدره كان أبقى له ، ونعم الخلق وأوثق العرى التقوى ، من أعتبك[٩٧] قد هوى ، وقد يكون اليأس دراكا اذا كان الطمع هلاكا •

---

(٩٦) اى اقتد بهدى وعمل الصـالحين •

(٩٧) أعتبك : رجع الى ما ارضـاك عنه بعد أن ترك ما كنت تأخذه عليه واستخطك عليه •

كم من مريب قد شقى به غيره ونجا هو من البلاء ، جانبك من يجنى عليك ، وقد تعـدى الصحاح مبارك[٩٨] الجـرب ، وليس كل عـورة تظهر ، ربما أخطأ البصير قصده ، وأصاب الأعمى رشده ، ليس كل من طلب وجد ، ولا كل من توقى نجا •

أخر الشيء فانك اذا شئت عجلته ، أحسن ان أحببت أن يحسـن اليك احتمل أخاك على كل ما فيه ، ولا تكثر العتـاب فانه يورث الضغينة ويجر الى المغضبة ، وكثرته من سوء الأدب ، استعتب من رجوت صلاحه•

قطيعة الجاهل تعدل صلة العاقل ، من كابد الحزبة[٩٩] عطب ، ومن لم يعـرف زمانه حـرب[١٠٠] ، ما أقـرب النقمـة من أهـل البغى • وأخلق[١٠١] من غدر أن لا يوفى له ، زلة العالم أقبح زلة ، وعلة الكـذاب أقبح علة •

الفساد يبين الكثير ، والاقتصـاد يثمر القليل ، والقـلة ذلة ، وبر الوالدين أكرم الطبائع ، واخوف شر حاف ، والزلل مع العجلة ، لا خير فى لذة تعقب ندامة •

العاقل من وعظته التجربة ، ورسولك ترجمان عقلك ، وكتابك أحسن ناطق عنك ، فتدبر أمرك وتقصر شرك •

الهدى يجلو العمل ، وليس مع اختلاف ائتلاف ، ومن حسن العمل

---

(٩٨) الصحاح : هى الابل السليمة الصحيحة التى لم تصب بالجرب ، والمبارك هى مواضع بروك الابل . والجرب : هى الابل التى قد أصيبت بالجرب .

(٩٩) الحزبة : العصبة المجتمعة .

(١٠٠) حرب : سلب ونهب .

(١٠١) أى احرى به واجدر .

افتقاد[١٠٢] حال الجار ، لن يهلك من اقتصد ، سر المرء دخيله ، ورب باحث عن حتفه ، وليس كل من ينظر بصيرا •

رب هزل صار جدا ، من ائتمن الزمان خانه ، ومن تعظم عليه أهانه ، ومن لجأ اليه أسلمه ، ليس كل من رمى أصاب ، واذا تغير السلطان تغير الزمان ، وخير أهلك من كفاك ، المزاح يورث العداوة ، والحقد أعذر من اجترأ وربما أكدى الحق •

رأس الدين صحة اليقين ، وتمام الاخلاص تجنب المعاصى ، وخير القول الصدق ، والسلامة مع الاستقامة ، سل عن الرفيق قبل الطريق ، وعن الجار قبل الدار •

كن من الدنيا على بلغة[١٠٣] ، احمل لمن دل عليك ، واقبل عذر من اعتذر اليك ، وارحم أخاك وان عصاك ، وصله وان جفاك ، وعود نفسك السماح، وتخير لها من كل حال أحسنه •

لا تتكلم بما يرديك ولا ما كثيره يزريك[١٠٤] ، أنصف من نفسك قبل أن ينتصف منك •

أى بنى ، اياك ومشاورة النساء الا ما جربت بكمال ، فان رأيهن يجر الى من ، وعزمهن الى وهن ، أكفف عليهن من أبصارهن بحجابك اياهن ، فان شدة الحجاب خير لهن من الارتياب ، وليس خروجهن بأشد عليك من دخول من لا تثق به عليهن ، فان استطعت أن لا يرفهن غيرك فافعل •

أقلل الغضب ، ولا تكثر العتاب فى غير ذنب ، فان المرأة ريحانة

---

(١٠٢) اى يتعرف احوال جاره وليعينه ويقوم بأمره .

(١٠٣) هى ما يتبلغ الانسان به فى حياته فلا يزيد عن حاجته شىء .

(١٠٤) يزريك : اى يجعلك محتقرا بين الناس فيتهاونون بشأنك .

وليست بقهرمانة[١٠٥] ، وأحسن لماليكك الأدب وان أجرم أحد منهم جرما فأحسن العفو فان العفو من العز أشد من الضرب لمن كان له قلب ، وخف القصاص ، واجعل لكل امرىء منهم عملا تأخذه به ، فانه أحرى أن لا يتواكلوا .

وأكرم عشيرتك فانهم جناحك الذى به تطير ، وأصلك الذى اليه تصير ، فانك بهم تصول وبهم تطول ، وهم العمدة[١٠٦] عند الشدة ، أكرم كريمهم ، وعد[١٠٧] سقيمهم ، وأشركهم فى أمورهم ، وييسر عن معسرهم ، واستن بالله لعى أمرك كله ، فانه أكرم معين .

استودع الله دينك ودنياك والسلام .



---

(١٠٥) القهرمانة : القهرمانة فى اللغة هو الحافظ الوكيل لما تحت يديه من أموال وغيره والقائم بأمور الرجل ، والمقصود أن المرأة ليست هكذا ، وانما هى تحتاج لمن يقوم بأمرها .

(١٠٦) العمدة : ما يعتمد عليه . فعشيرة الانسان وقومه هم الذين يعتمد عليهم عندما تنزل به الشدائد والمصائب وتلم به الفواجع .

(١٠٧) أى زر من يمرض منهم .

الفصل السادس

من خطب أمير المؤمنين

عمر بن الخطاب رضى الله عنـه

١ ــ خطب عمر بن الخطاب اذ ولى الخلافة ، فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

يا أيها الناس ، انى داع فأمنوا ، اللهـم انى غليظ فلينى لأهـل طاعتك بموافقة الحق ، ابتغـاء وجهك والدار الآخرة ، وارزقنى الغلظة والشدة عـلى أعدائك وأهل الدعارة والنفاق من غير ظلم منى لهـم ولا اعتداء عليهم ، اللهم انى شحيح فسخنى فى نوائب المعروف قصـدا من غير سرف ولا تبذير ولا رياء ولا سمعة ، واجعلنى ابتغى بذلك وجهـك والدار الآخرة ، اللهم ارزقنى خفض الجنـاح ولين الجانب للمؤمنـين ، اللهم انى كثـير الغفلة والنسيان فالهمنى على كل حال ، وذكر الموت فى كل حين •

اللهم انى ضعيف عند العمل بطاعتك فارزقنى النشاط فيها ، والقوة عليها بالنية الحسنة التى لا تـكون الا بعزتك وتوفيقك • اللهـم ثبتنى باليقين ، والبر ، والتقوى ، وذكر المقام بين يديك والحياء منك ، وارزقنى الخشوع فيما يرضيك عنى ، والمحاسبة لنفسى ، وصلاح النيات ، والحذر من الشبهات •• اللهم ارزقنى التفكر ، والتدبر لما يتلوه لسانى من كتابك، والفهم له ، والمعرفة بمعانيه ، والنظر فى عجائبه ، والعمل بذلك ما بقيت، انك على كل شىء قدير •

٢ ــ عن سعيد بن المسيب قال : لما ولى عمر بن الخطاب خطب الناس على منبر رسول الله ﷺ ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

يا أيها الناس ، انى علمت أنكم كنتم تؤنسون منى شــدة وغلظة ، وذلك أنى كنت مع رسول الله ﷺ ، وكنت عبده وخادمه ، وكان كما قال الله تعالى : « بالمؤمنين رءوف رحيم » فكنت بين يديه كالسيف المسلول الا أن يغمدنى أو ينهانى عن أمر فأكف ، والا أقدمت على النــاس لمكان لينه ، فلم أزل مع رسول الله ﷺ على ذلك حتى توفاه الله وهو عنى راض والحمد لله كثيرا وأنا به أسعد ، ثم قمت ذلك المقام مع أبى بكر خليفــة رسول الله ﷺ بعده ، وكان كما قد علمتم فى كرمه ودعته ولينــه ، فكنت خادمه كالسيف بين يديه أخلط شدتى بلينه الا أن يتقدم الى فأكف ، والا أقدمت ، فلم أزل على ذلك حتى توفاه الله ، وهو عنى راض ، والحمد لله على ذلك كثيرا وأنا به أسعد ... ثم صار أمركم الى اليوم ، وأنا أعلم ، فسيقول قائل : كان يشتد علينا الأمر الى غيره فكيف به اذ صار اليــه ؟! واعلموا أنكم لا تسألون عنى أحد ، قد عرفتمونى وجربتمونى وعرفتم من سنة نبيكم ما عرفت وما أصبحت نادما على شيء أكون أحب أن أسأل رسول الله ﷺ الا وقد سألته ... فاعلموا أن شدتى التى كنتم ترون ازدادت أضعافا اذ صار الأمر الى على الظالم ، والمعتــدى ، والأخــذ للمسلمين لضعيفهم من قويهم ، وانى بعد شدتى تلك واضع خدى بالأرض لأهل العفاف والكف منكم والتسليم ، وانى لا آبى — ان كان بينى وبين أحد منكم .

٣ — أوصى عمر رضى الله عنه ، الخليفة من بعده فقال :

« أوصيك بتقــوى الله لا شريك له ، وأوصيك بالمهــاجرين الأولين خيرا : أن تعرف لهم سابقتهم وأوصيك بالأنصــار خــيرا ، فاقبــل من محسنهم ، وتجاوز عن مسيئهم وأوصيك بأهل الأمصار خيرا ، فانهم ردء (الاسلام) ، وجباة الأموال والفيء ، لا تحمل فيئهم الا عن فضل منهم ، وأوصيك بأهل البادية خيرا ، فانهم أصل العرب ، ومادة الاســلام : أن تأخذ من حواشى أموال أغنيائهم فترد على فقرائهم ، وأوصيك بأهل الذمة خيرا : أن تقاتل من ورائهم ، ولا تكلفهم فوق طاقتهم ، اذا أدوا ما عليهم

للمؤمنين طوعا ، أو عن يد ، وهم صاغرون ، وأوصيك بتقوى الله ، وشدة الحذر منه ، ومخافة مقته أن يطلع منك على ريبة ، وأوصيك أن تخشى الله فى النا س ، ولا تخشى الناس فى الله ، وأوصيك بالعدل فى الرعية والتفرغ لحوائجهم وثغورهم ، ولا تؤثر غنيهم على فقيرهم فان ذلك — باذن الله — سلامة لقلبك،وحط لوزرك،وخير فى عاقبة أمرك،حتى تقضى من ذلك الى من يعرف سريرتك ويحول بينك وبين قلبك . وأمرك أن تشتد فى أمر الله ، وفى لقلبك ، وحط لوزرك ، وخير فى عاقبة أمرك : حتى تقضى من ذلك الى من حدوده ومعاصيه على قريب الناس وبعيدهم ، ثم لا تأخذك فى أحد الرأفة حتى تـ تهك منه مثل ما انتهك من حرمه .

واجعل الناس سواء عندك لا تبالى على من وجب الحق ولا تأخذك فى الله لومة لائم ، واياك والأثرة ، والمحاباة فيما ولاك الله مما أفاء الله على المؤمنين ، فتجور وتظلم وتحرك نفسك من ذلك ما قد وسعه الله عليك .

وقد أصبحت بمنزلة من منازل الدنيا والآخرة ، فان اقترفت لدنياك عدلا وعفة عما بسط الله لك اقترفت ايمانا ورضوانا ، وان غلبك عليه الهوى ، ومالت بك شهوة اقترفت به سخط الله ، ومعاصيه .

وأوصيك ألا ترخص لنفسك ولا لغيرك فى ظلم أهل الذمة وقد أوصيتك وحضضتك ونصحت لك ابتغى بذلك وجه الله والدار الآخرة . واخترت من دلالتك ما كنت دالا عليه نفسى وولدى فان عملت بالذى وعظتك ، وانتهيت الى الذى أمرتك أخذت به نصيبا وافرا ، وان لم تقبل ذلك ، ولم يهمك ، ولم تنزل معاظم الأمور عند الذى يرضى الله به عنك يكن ذلك بك انتقاصا ، ورأيك فيه مدخولا ، لأن الأهواء مشتركة ، ورأس كل خطيئة والداعى الى كل هلكة ابليس ، وقد أضل القرون السالفة قبلك، فأوردهم النار ، وبئس الورد المورود وابئس الثمن أن يكون حظ امرىء موالاة لعدو الله والداعى الى معاصيه !! .

ثم اركب الحق وخض اليه الغمرات وكن واعظا لنفسك .

وأنشدك الله لما ترحمت على جماعة المسلمين فأجللت كبيرهم ورحمت صغيرهم ، ووقرت عالمهم ، ولا تضربهم فيذلوا ، ولا تستأثر عليهم بالفيء فتغضبهم ، ولا تحرمهم عطاياهم عند محلها فتفقرهم ، ولا تجمرهم في البعوث فتقطع نسلهم ولا تجعل المال دولة بين الأغنياء منهم ، ولا تغلق بابك دونهم ، فيأكل قويهم ضعيفهم .

هذه وصيتى اياك ، وأشهد الله عليك ، وأقرأ عليك السلام » .

* * *

٤ — كتب عمر بن الخطاب الى سعد بن أبى وقاص ، رضى الله عنهما ، ومن معه من الأجناد !

أما بعد فانى آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال ، فان تقوى الله أفضل العدة على العدو ، وأقوى المكيدة فى الحرب .

وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسا من المعاصى منكم من عدوكم فان ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم ، وانما ينصر المسلمين بمعصية عدوهم لله ، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة ، لأن عددنا ليس كعددهم ، ولا عدتنا كعدتهم ، فان استوينا فى المعصية كان لهم الفضل علينا فى القوة ، والا ننصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا .

واعلموا أن عليكم فى مسيرتكم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون ، فاستحيوا منهم ، ولا تعملوا بمعاصى الله ، وأنتم فى سبيل الله ، ولا تقولوا : ان عدونا شر منا ، فلن يسلط علينا وان أسأنا!فرب قوم قد سلط عليهم شر منهم كما سلط على بنى اسرائيل لما عملوا بمساخط الله كفار المجوس : **« فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا »** .

واسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم، أسأل الله ذلك لنا ولكم .

وترفق بالمسلمين فى مسيرهم ولا تجشمهم مسيرا يتبعهم ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم حتى يبلغوا عدوهم والسفر لم ينقص قوتهم فانهم سائرون الى عدو مقيم حامى الأنفس والكراع[1] ، وأقم بمن معك فى كل جمعة يوما وليلة حتى تكون لهم راحة يحيون فيها أنفسهم ، ويرمون أسلحتهم[2] وأمتعتهم ، ونح منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة ، فلا يدخلها من أصحابك الا من تثق بدينه ، ولا يرزأ[3] أحدا من أهلها شيئا فان لهم حرمة وذمة ، ابتليتم بالوفاء بها كما ابتلوا بالصبر عليها ، فما صبروا لكم فتولوهم خيرا ، ولا تستنصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح[4] ، واذا وطئت أرض العدو فأذك العيون بينك وبينهم[5] ولا يخف عليك أمرهم ، وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن الى نصحه وصدقه ، فان الكذوب لا ينفعك خبره ، وان صدقك فى بعضه ، والغاش عين عليك ، وليس عينا لك ، وليكن منك عند دنوك من أرض العدو أن تكثر الطلائع وتبث السرايا[6] بينك وبينهم فتقطع السرايا أمدادهم وموقفهم ، وتتبع الطلائع[7] عوراتهم ، وانتق الطلائع أهل الرأى والبأس من أصحابك ، وغير لهم سوابق الخيل ، فان لقوا عدوا كان أول ما تلقاهم القوة من رأيك ، واجعل أمر السرايا الى أهل الجهاد والصبر على الجلاد ، لا تخص بها أحدا بهوى ، فيضيع من

---

(١) الكراع : الخيل والسلاح .

(٢) اى يصلحون ما فسد منها .

(٣) يرزا : ينقص أو يأخذ منه شيئا .

(٤) اى لا تطلبوا النصر على أعدائكم بظلم اهل الصلح .

(٥) أذاك العيون : اى أرسل اليهم من يلتقط أخبارهم ويعرف أسرارهم .

(٦) السرايا جمع سرية : والسرية قطعة من الجيش ما بين خمسة أنفس الى ثلاثمائة .

(٧) الطلائع : جمع طليعة والطليعة : مقدمة الجيش ومن يبعث قدامه ليطلع على أسرار العدو .

رأيك وأمرك أكثر مما حابيت به أهل خاصتك ولا تبعثن طليعة ولا سرية فى وجه نتخوف عليها فيه غلبة أو ضيعة ونكاية ، فاذا عاينت العدو فاضمم اليك قاصيك وطلائعك وسرايك ، واجمع اليـك مكيـدتك وقوتك ، ثم لا تعاجلهم المناجزة[٨] ما لم يستكرهك قتال حتى تبصر عـورة عـدوك ومقاتلة[٩] ، وتعرف الأرض كلها كمعرفة أهلها بها فتصنع بعـدوك كصنعة بك ، ثم أذك أحراسك على عسكرك ، وتيقظ من البيات[١٠] ولا تؤتى بأسير ليس له عقد[١١] الا ضربت عنقه لترهب بذلك عدو الله وعدوك ، والله ولى أمرك ، ومن معك ، وولى النصر لكم على عدوكم ، والله المستعان » .

* * *

٥ — كتب عمـر بن الخطـاب ، رضى الله عنـه ، الى أبى موسى الأشعرى — رواها ابن عيينة :

« أما بعد فان القضاء فريضة محكمة ، وسنة متبعة ، فافهم اذا أدلى اليك الخصم ، فانه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له ، آس[١٢] بين الناس فى مجلسك ووجهك حتى لا يطمع شريف فى حيفك[١٣] ولا يخاف ضعيف من جورك .. البينة على من ادعى واليمين على من أنكر ، والصلح جائز بين المسلمين الا صلحا أحل حراما أو حرم حلالا ، ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس ، ثم راجعت نفسك وهديت فيه لرشدك أن ترجع عنه ، فان الحق قديم (لا يبطله شىء) والرجوع اليه خير من التمادى على الباطل ، الفهم

---

(٨) المناجزة : القتال والنزال .

(٩) المقاتل : جمع مقتل وهو الموضع الذى اذا أصيب فيه الانسان او الحيوان لا يكاد يسلم .

(١٠) البيات : الايقاع بالعدو ليلا بغتة .

(١١) عقد : عهد .

(١٢) آس : سو بين الناس .

(١٣) الحيف : الظلم .

فيما يتلجلج[١٤] فى صدرك مما لم يبلغك به كتاب الله ولا سنة نبيه ﷺ واعرف الأمثال والأشباه وقس الامور عند ذلك ، ثم اعمد الى أحبها عند الله ورسوله وأشبهها بالحق ، واجعل (لمن ادعى حقا غائبا أمدا ينتهى اليه) فان أحضر بينة أخذت له بحقه ، والا وجهت عليه القضاء ، فان ذلك أجلى للعمى ، وأبلغ فى العذر .

والمسلمون عدول[١٥] بعضهم على بعض الا مجلودا فى حد أو مجربا عليه شهادة زور ، أو ظنينا[١٦] فى ولاء أو قرابة ، أو نسب ، فان الله ، عز وجل ، ولى منكم السرائر ، ودرأ[١٧] عنكم بالبينات والأيمان .

ثم اياك والتأذى بالناس والتنكر للخصوم فى مواطن الحقوق التى يوجب الله عز وجل بها الأجر ، ويحسن بها الذخر ، فانه من تخلص نيته فيما بينه وبين الله ، ولو على نفسه يكفيه الله ما بينه وبين الناس ، ومن تزين للناس بما يعلم الله خلافه منه هتك الله ستره » .

وقال رضى الله عنه :

« تعلموا العلم وعلموه الناس وتعلموا له الوقار والسكينة وتواضعوا لمن تعلمتم منه العلم ، وتواضعوا لمن علمتموه العلم ، ولا تكونوا من جبابرة العلماء ، فلا يقوم علمكم بجهلكم » .

وقال رضى الله عنه :

« كونوا أوعية الكتاب وينابيع العلم وسلوا الله رزق يوم بيوم ولا يضركم أن لا يكثر لكم » .

---

(١٤) اى يتردد فى صدرك ويقلق ولم يستقر .
(١٥) عدول : جمع عدل وهو المرضى الحكم او الشهادة .
(١٦) الظنين : المتهم وكل ما لا يوثق به .
(١٧) درأ : دفع .

وقال رسول الله ﷺ : لا شفاعة فى الموت ولا حيلة فى الرزق ولا راحة فى الدنيا ولا سلامة من ألسنة الخلق ولا راد لقضاء الله .

ويجب أن يكون قول رسول الله ﷺ السابق الاشارة اليه هو دستور المحامى فى حياته العملية .

وعلى رأس المناقب الحميدة والصفات الكريمة ، والفضائل الجمة ، التى مدح الله — تعالى بها نبيه محمدا — ﷺ — فضيلة الرحمة التى هى كمال فى نفوس العقلاء هذا الكمال يجعلهم يهتمون لآلام غيرهم ، ويسعون لازالتها أو لتخفيفها ، كما يجعلهم هذا الكمال الانسانى يحرصون على تصحيح أخطاء المخطئين ، وارشادهم الصراط المستقيم ، عن طريق الكلمة الطيبة ، أو الفعل الحسن[1] .

والرحمة فى أفقها الأسمى واتساعها الذى لا يحد صفة من صفات الله — عز وجل — فان رحمته سبحانه — شملت الوجود كله ، وعمت جميع مخلوقاته ، كما قال سبحانه :

« ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون »[2] .

وكل ما يرى فى هذا الكون من تراحم وتعاطف بين الناس ، هو أثر من آثار رحمة الله تعالى التى أودعها فى قلوب مخلوقاته وأوفر الناس نصيبا من هذه الرحمة ، هم العقلاء السعداء الذين يحسون بحاجات الضعفاء ، ويعملون على سدها وقضائها .

وقد أراد — سبحانه — أن يمتن على الانسانية كلها بانسان يمسح آلامها ، ويخفف أحزانها ويصحح أخطاؤها ، ويرحم ضعيفها وينصر

---

(١) دكتور/محمد سيد طنطاوى — جريدة الأخبار فى ١٩٩٢/٨/٣ .
(٢) الاعراف : ١٥٦ .

مظلومها ، ويهديها الى الطريق القويم .. فكان هذا الانسان هو محمد ابن عبد الله — ﷺ — الذى أرسله ربه بالهدى ودين الحق ليخرج الناس من الظلمات الى النور ، ولينقذهم من الظلم والفجور ، وليملأ قلوبهم بالرحمة بدل القسوة وبالرقة لا بالغلظة ، وبالتواد والتعاطف لا بالتقاطع والتدابر ..

ولقد كانت صفة الرحمة من أبرز الصفات التى مدح الله — تعالى — بها نبيه محمدا — ﷺ والتى تكرر الحديث عنها فى كثير من آيات القرآن الكريم ومن ذلك قوله تعالى « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » (الأنبياء : ١٠٧) أى : وما أرسلناك — أيها الرسول الكريم — الا رحمة للعالمين من الانس والجن ، وذلك أننا قد أرسلناك بدين الاسلام ، الذى متى اتبعوه سعدوا فى حياتهم وبعد مماتهم .

وفى الحديث الصحيح : « انما أنا رحمة مهداة » .

فرسالته — ﷺ — رحمة فى ذاتها ، وهو — ﷺ — رحمة بشخصه وبقوله وبفعله ، وبكل لون من ألوان سلوكه ولكن هذه الرحمة انتفع بها من استجاب لدعوتها ، أما من أعرض عنها فقد ضيع على نفسه فرصة الانتفاع .

ورحم الله صاحب الكشاف فقد وضح هذا المعنى فقال : « أرسل الله — تعالى — رسوله محمدا رحمة للعاملين ، لأنه جاءهم بما يسعدهم متى اتبعوه ، ومن خالف ولن يتبع فقد ضيع نصيبه من هذه الرحمة ومثاله : أن يفجر الله عينا غديقة — أى : كبيرة عذبة — فيسقى ناس زروعهم ومواشيهم بمائها فيفلحوا ويبقى ناس مفرطون فيضيعوا فالعين المفجرة فى نفسها نعمة من الله تعالى — ورحمة للفريقين ، ولكن الكسلان محنة على نفسه ، حيث حرمها ما ينفعها .

وفى موضع اخر نجد القرآن الكريم يوضح أن صفة الرحمة التى

سكبها فى قلب نبيه محمد ﷺ ـــ كانت من أعظم الأســباب التى حملت اتباعه على محبته الصادقة ، وعلى الالتفاف من حوله ، وعلى اقتــدائه بأنفسهم وبأموالهم ، واستمع الى القرآن الكريم وهو يقرر هذه الحقيقة فيقول « فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم ، وشاورهم فى الأمر فاذا عــزمت فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين » (آل عمران : ١٥٩) •

أى : فبسبب رحمة عظيمة فياضة ، منحك الله ـــ تعــالى ـــ اياها يا محمد ، كنت لينا مع أتباعك ولو كنت ـــ أيها الرسول الكريم ـــ كــريه الخلق ، خشن الجانب ، لانفض أصحابك من حولك ولتفرقوا عنك ، ونفروا منك ، ومادام الأمر كذلك فاعف عن أخطاءهم ، والتمس من الله ـــ تعالى أن يغفر لهم زلاتهم وشاورهم فى الأمور التى تقتضى المصلحة مشورتهم فيها ، فاذا ما صحت عزيمتك على تنفيذ أمر معين بعد المشورة ومبــاشرة الأسباب المشروعة ، فتوكل على الله ـــ تعالى بدون تردد ، انه ســبحانه يحب المعتمدين عليه المفوضون أمورهم اليه •

وفى موضع ثالث ، نرى القرآن الكريم يمدح النبى ﷺ ـــ لحرصه على منفعتهم ، فيقول : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم » •

(التوبة : ١٢٨)

أى : لقد جاءكم ـــ أيها الناس ـــ لرسول عظيم الشأن ، هذا الرسول ليس غريبــا عنكم وانما هو من جنسكم ، تعرفون حسبه ونسبه ومولده ونشأته وخلقه ، فقد شهدتم له فى صباه بالصدق والأمانة كما شهدتم له فى شبابه بالعفاف والاستقامة •

وقوله ـــ سبحانه ـــ عزيز عليه ما عنتم أى شديد وشاق عليه عنتكم

ومشقتكم لكونه واحدا منكم فهو يخاف عليكم سوء العاقبة والوقوع فى العــذاب .

قوله ــ تعــالى : « حــريص عليــكم » أى حريص على ايمانكم وهدايتكم وعزتكم وسعادتكم والحرص على الشىء معناه : شدة الرغبــة فى الحصول عليه وحفظه .

وقوله عز وجل : « بالمؤمنين رءوف رحيم » أى : شــديد الرأفة معناها : السعى فى ازالة الضرر والرحمة معناها : السعى فى ايصال الخير الى الغير .

فهو ﷺ يسعى بشدة فى ايصال الخير والنفع للمؤمنين ، وفى ازالة كل مكروه عنهم .

قال بعض الحكماء : لم يجمع الله تعالى لأحد من الأنبياء اسمين من أسمائه ، الا النبى ــ ﷺ ــ فانه قال « بالمؤمنين رءوف رحيم » وقال عن ذاته : « ان الله بالناس لرءوف رحيم » .

وهذه الرحمة التى سكبها الله ــ تعــالى ــ فى قلب نبيــه محمــد ــ ﷺ ــ كانت رحمة عامة ، شملت الصغير والكبير ، والقوى والضعيف ، والقريب والبعيد ، والعدو والصديق والطير والحيوان ، وكان من كلامه ــ ﷺ ــ « لن تؤمنوا حتى ترحموا قالوا : يا رسول الله كلنا رحيم ، قال : انه ليس برحمة أحدكم صاحبه ، ولكنها رحمة العامة » .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه ــ قال « قبل رســول الله ــ ﷺ الحسن والحسين ، وعنده الأقرع بين حابس التميمى ، فقال الأقرع : ان لى عشرة من الأولاد ما قبلت واحدا منهم ، فنظر اليه رسول الله ــ ﷺ ــ وقال : « من لا يرحم لا يرحم » .

وفى صحيح مسلم عن أنس بن مالك ــ رضى الله عنه ــ قال : أخذ

رسول الله — ﷺ — ابنه ابراهيم فقبله وشمه ، ثم دخلنا عليه بعد ذلك وابراهيم يجود بنفسه فجعلت عينا رسول الله ﷺ — تذرفان بالدموع .

فقال عبد الرحمن بن عوف ، وأنت يا رسول الله ؟ — كأنه تعجب من بكائه — فقال — ﷺ — « يا بن عوف انها الرحمة ، ثم قال ان العين لتدمع ، وان القلب ليخشع ، ولا نقول الا ما يرضى الرب ، وانا لفـراقك يا ابراهيم لمحزونون » .

وعندما جاءه رجل فقال له يا رسول الله انى أشكو اليك قسوة قلبى ، رد عليه — ﷺ — بقوله : أتحب أن يلين قلبـك ، وتدرك حاجتك ؟ ارحم اليتيم ، وامسح رأسه وأطعمه من طعامك يلين قلبك ، وتدرك حاجتك .

وقال له رجل : يا رسول الله انى لأرحم الشاة أن أذبحهـا فقـال — ﷺ « ان رحمتها رحمك الله » .

وفى صحيح البخارى انه — ﷺ — قال : « دخلت امرأة النـار فى هرة حبستها فلم تطعمها ، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض » .

ولقد لازمت هـذه الرحمة رسـول الله — ﷺ — حتى فى أصعب المواقف ، وفى أحرج الأوقات ، فعندما استقبله السفهاء من بعض أهـل الطائف أسوأ استقبال ، فقذفوه بالحجارة ، حتى سالت دماؤه ....

وجاءه جبريل ليقـول له ان الله أمرنى أن أطيعك فيهم ، فان شئت أطبقت عليهم الاخشبين ، فما كان منه — ﷺ — الا أن قال : « يا أخى يا جبريل لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله — عز وجل — اللهم اهد قومى فانهم لا يعلمـون » فقال له جبريل : « صـدق من سـماك الرءوف الرحيم » .

ورحمته — ﷺ لغيره ، لم تكن حنانا لا عقل معه ، أو شفقة تتنكر للعدل والنظام أو رأفة تحابى الظالم على حساب المظـلوم ، أو سـلوكا

يتعارض مع الحدود التى أمر الله — تعالى — بتنفيذها ، أو قولا أو عملا يتنافى مع اعتناق الفضائل والبر كلا ثم كلا لم تكن رحمته — ﷺ — من هذا القبيل الذى يتناقض مع احقاق الحق وابطال الباطل ، وانما كانت رحمته — ﷺ — هى الكمال بعينه ، وهى العدل بذاته وهى وضع الأمور فى مواضعها الصحيحة .

لم تمنع رحمته من أن يقيم حدود الله — تعالى — على من تجاوزها وتعداها ، فعندما سرقت امرأة من أشرف قبائل قريش ، وجاءه أسامة بن زيد لكى يشفع لها بعد أن اهتم الناس بأمرها قال — ﷺ — حديثه المشهور ، « يا أسامة أتشفع فى حد من حدود الله انما أهلك من كل مكان قبلكم انهم كانوا ، اذا سرق فيهم الشريف تركوه ، واذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، والذى نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها .

وعندما اعتدى نفر من قبيلة عكل على الرعاة الذين كانوا فى خدمتهم واستاقوا الابل التى كانت تحت رعايتهم ، ما كان منه — ﷺ — الا أن أرسل بعض أصحابه ليأتى بهؤلاء الغادرين ، فلما حضروا أمر بقطع أيديهم وأرجلهم جزاء غدرهم وخيانتهم .

والخلاصة أن رحمته — ﷺ — التى شملت الانسان والحيوان والطير لم تمنعه من أن يقيم حدود الله — تعالى بالحق والعدل ، امتثالا لقول الله تعالى : « ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون » .

نسأل الله تعالى — أن يجعلنا جميعا من عباده الرحماء ، أنه أكرم مسئول وأعظم مأمول .

والقاضى العادل هو القاضى الرحيم — أسوة بالرسول ﷺ — فالقاضى الرحيم أفضل من القاضى القاسى والقاضى الرحيم أقوى علما من القاضى المتشدد مصداقا لحديثه ﷺ: « ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء وويل لقاضى الأرض من قاضى السماء الا من عدل .

— ١ —

مثال مرافعة نموذجية فى جناية قتل

بســـم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد النبى الأمى المبعوث رحمة العــالمين أما بعد فان خير بداية دائما هى البدء بحمد الله جلت قدرته على ســابغ فضله ونعمته وفائض احسانه ورعايته عليه عز وجل اعتمادنا وبه سبحانه وتعالى اعتزازنا .

حضرات المستشارين الاجــلاء :

يسعدنى ويشرفنى ويرفع من قدرى أن أقف اليوم أمام خيرة قضاة مصر وصفوة مستشارى العائلة القضائية حيث نقف أمامكم فى هذه القاعة فى صمت وخشــوع واحترام وكأننا أمام مســجد ولو لم نسمع أذان المؤذنين أو كأننا أمام هيكل أو معبد ولو لم نسمع أنغام المرتلين وداخل تلك القاعة التى هى معمل النفس الانســانية وبركان الطبيعــة البشرية وداخل تلك الجدران التى لها ذاكرة أقوى من ذاكرة الانسان نتطلع الى حضراتكم لكى تقضوا ببراءة المتهم ... من التهمة المسندة اليه حيث أن هذه القضية المصطنعة لا تجد سندا تقوم عليه ولو أن محرروها وصانعوها أنصتوا الى صوت الفطرة فى داخلهم ولو أنهم أنصتوا الى صوت الضمير ذلك السفير الالهى الذى لا يخطىء لما حرروا هذه القضية ضد أشــخاص أبرياء ولما أدخلوا المتهم فيها على الاطلاق . وان لم يحاسب محــرروا هذه القضية فى هذه الدنيــا فانهم ســوف يحاسبون فى الآخرة حيث البرلمان الوحيد الذى تهلك فيه الأغلبية وتنجو الأقلية .

والحقيقة فاننى بعد أن استغرقت فى قراءة أوراق تلك القضية وبعد أن انتهيت من قراءتها تماما شعرت بدوار فى رأسى وكاد أن يشل تفكيرى وتساءلت وصرخت من أعماقى :

.. ألهذا الحد يمكن أن يصل ظلم الانسان لأخيه الانسان ؟

•• ألهذا الحد يمكن أن يصل حقد الانسان لأخيه الانسان ؟ !

•• ألهذا الحد يمكن أن يصل كره الانسان لأخيه الانسان ! ! ؟

وانتفضت من أعماقى وتمنيت لو دافعت عنه أمام ساحات القضاء المقدسة ولا أحيد عن الحقيقة اذا قلت لحضراتكم أننى كنت محظوظا الى أبعد الحدود عندما رشحنى المتهم للدفاع عنه أمام مستشارين عظماء وأساتذة كرام أجلاء هم صفوة مستشارى العائلة القضائية وهم جهابزة العلم وأساطين القانون فى مصر الذين نشرف بالمثول أمامهم اليوم ومع طائفة من كبار محامى مصر •

وبداية يسعدنا أن نقف أمام هذه القضية موقف علماء المنطق من قضاياهم المنطقية حيث يضعون المقدمات ثم يرتبون عليها النتائج فاذا كانت المقدمات سليمة ومقطوعة بصحتها كانت النتائج أيضا سليمة ومقطوعا بصحتها • واذا كانت المقدمات غير سليمة وغير مقطوع بصحتها كانت النتائج غير سليمة وغير مقطوع بصحتها •

واذا كان القانون هو ذلك الشىء الذى اذا عرض على العقول تلقته بالقبول فانه بنظره واحدة من حضراتكم على أوراق تلك القضية فسوف تتأكدون عدالتكم من أن تلك القضية قد خلت من أساسيات ومبادىء المنطق سواء كان المنطق العلمى أو القانونى أو القضائى •

ولا يخفى على عدالتكم وكما تعلمنا فى محرابكم هذا المقدس أن لكل دعوى شقين لعل الشق الأول هو الواقع أما الشق الثانى فهو القانون واذا كانت وقائع هذه القضية تقود بأكملها الى براءة المتهم مما أسند اليه •

فان المبادى القانونية ترشحه للحصول على البراءة أيضا ومن ثم فاننا نتشرف بأن ندفع بالدفوع الآتية :

١ ــ ندفع بانتفاء القصد الجنائى بعنصرية العلم والارادة .

٢ ــ ندفع بانتفاء نية ازهاق الروح .

٣ ــ ندفع بانتفاء سبق الاصرار والترصد لأنه ظـرف شخصى بحت .

٤ ــ ندفع بانتفاء الاتفاق الجنائى لانتفاء نية التدخل .

٥ ــ ندفع ببطلان الاعتراف لحصوله تحت تأثير اكراه معنوى .

« أما عن الوقائع يا حضرات المستشارين »

فانه مما لا شك فيه أن جريمة القتل هى جريمة بشعة .

ومما لا شك فيه أيضا أن جريمة القتل لا يقبلها العقل ولا المنطق ولا القانون .

ومما لا شك فيه أيضا أن جريمة القتل تجرمها كافة الشرائع السماوية والقوانين الوضعية .

ومما لا شك فيه أيضا أن جريمة القتل تعد أخطر الجرائم التى عرفتها البشرية على مر العصور والأيام .

ولكن الأخطر من جريمة القتل فعلا هو قيام جهات التحقيق بمحاولة تلفيق تلك القضية .

والأفظع من جريمة القتل ذاتها هى محاولة تصوير تلك القضية بصورة ممسوخة .

والأفظع من جريمة القتل أيضا هو محاولة اسناد الاتهام الى اناس بسطاء لا صلة لهم بالواقعة من أساسها باسنادها الى اناس أبرياء .

وادخال المتهم ... فيها بصورة هزلية وغير طبيعية .

ولقد جئنا الى هنا لنجد الاجابة على السؤال الهام وهو :
هل هذا المتهم مدان أم برىء ؟ ؟

وهل اشترك فى الجريمة أم لم يشترك فيها ؟

واذا كان قد اشترك فيها .. فكيف كان ذلك ؟

واذا لم يشترك .... فلماذا يدخل فى الاتهام ؟

ولن نصل الى اجابة شافية الا بمعرفة حقيقة واقعة الدعوى ؟

ولن نصل الى حقيقة واقعة الدعوى فى هذا الصراع القضائى الجبار الا :

— بالتغلغل فى صميم الأسباب الملابسة للجريمة .

وتحليل شخصية المتهم التى تقود الى عدم اشتراكه فيها ٠

ـــ ومعرفة العلل النفسية المصاحبة للمتهم ٠

كل ذلك يقودنا الى معرفة الدور الذى قام به المتهم فى الجريمة ٠

وهل كان له دور أم لا ؟

وما حجم ذلك الدور ـــ ثانوى أم رئيسى ؟

وهل كان فاعلا أصليا أم مساهما تبعيا أم أصليا ٠

أم لم يكن له دور على الاطلاق ٠

وقبل أن نسرد دور المتهم فى هذه القضية فان لنا ملاحظتين على هذه القضية :

الملاحظة الأولى :

فهى أننى لن أتناول من الوقائع الا ما يخص موكلى وذلك لعدم اضاعة واطالة وقت المحكمة الثمين ٠

وأيضا لنترك الوقائع الخاصة لكل متهم لهيئة الدفاع الخاصة به ٠

ـــ وأخيرا لالتزام حدود الدفاع ٠

كما أننا ننضم الى كل ما جاء بأقوال الدفاع عن المتهمين الأول والثانى والثالث فى كل ما جاء بدفاعهم من المبادىء القانونية والواقعية ٠

الملاحظة الثانية :

١ ـــ نحن نشك فى صحة الواقعة من أساسها ونقرر باختلاقها وتلفيقها ٠

ولكن الفرض الجدلى على فرض حدوثها طبقا للتصوير الوارد بالأوراق سوف تتأكدون عدالتكم من خلو الأوراق من أى دور للمتهم بها

حيث لم يكن له دور رئيسى أو دور ثانوى وحتى مجرد تواجده معهم على مسرح الجريمة لا يعتبر بذاته اشتراكا بها •

٢ — أن حظه العاثر والصدفة البحتة وحدها هى التى أوقعته فى الطـريق المؤدى الى المحكمة لأن الآخرين عنـدما احتاجوا الى سـيارة تدخل الحظ العاثر للمتهم ليكون له مجرد دور ضئيل فى تعرفهم على صديق له لكى يستأجر لهم سيارة •

ولنا عودة بالتفصيل فى موضوع السيارة بعد ذلك •

أولا : الدور الذى قام به المتهم

ونأتى بعد ذلك الى السؤال الهام فى هذه القضية عن ماهيـة الدور الذى قام به المتهم وماهية الأفعال الايجابية أو السلبية •• وسوف نصل فى النهاية الى أنه لم يكن له أدنى دور على الاطلاق ولم يشترك فى الجريمة لا من قريب ولا من بعيد وسوف نعرض ذلك فى ثلاث نقاط أساسية :

(أ) اسم المتهم الرابع

ان اسم المتهم الرابع لم يظهر الى السطح الا باشارة خفيـة من المتهم الثالث فقط •

أى أن اسمه ظهر فجأة فى القضية وقذف به عن طريق المصادفة فى تلك الدعوى والأدلة على ذلك عديدة ومتنوعة لأن الأدلة هى السلاح البتار فى الدعوى وتشـمل هذه الأدلة ما يلى : (قـراءة المحضـر أفضـل)

١ — محضر تحريات الشرطة : قد خلا من اسمه تماما

٢ — أمر الضبط والاحضار الصادر من النيابة : قد خلا أيضـا من اسـمه •

٣ — الضبط والقبض كان فى أحد المقاهى المصرية كما ثبت من محضر الشرطة •

٤ — المبلغ الذى تم تقاضيه : لم يذكر فى البداية • ثم قيل أنه ٥٠ جنيه ثم ١٠٠٠ جنيه وخلاصة ذلك أنه :

لا ضبط ولا تلبس ولا شاهد رؤية وحيد فى الأوراق الأمر الذى يؤكد انتفاء أى دور للمتهم فى هذه القضية •

(ب) « السلاح النارى »

ان السلاح النارى المزعم أن المتهم كان يحمله أثناء الواقعة لم يكن له وجودا أصلا فى الحقيقة •

لا تصور له ••• لم يضبط • لم يستخدم على الاطلاق واذا كان قد قيل أنه تم التصرف فيه فكان الأولى معرفة مكان التصرف ••

وهذا لم يذكر •• فاذا كانوا استطاعوا انتزاع اعتراف المتهم بالاعتراف كاملا بين المتهمين فكيف لم يستطيعوا معرفة مكان السلاح النارى الذى يزعمون وجوده مع المتهم ولكنهم لم يذكروا ذلك لتأكدهم من وجود سلاح أصلا ••

فاذا ذكروا مكان السلاح لكان لزاما عليهم أن يحضروه ولكن كيف يحضروه ولا وجود له •• لذلك لم يذكروا مكان التدرف فى السلاح •

ودليل عدم وجوده :

١ — عدم ضبطه •
٢ — عدم استخدامه •
٣ — عدم ذكر مكان التصرف فيه •

جـ — « استئجار السيارة »

المتهم مجرد وسيط فى استئجار السيارة للاخرين ولا يمكن أن يسأل عن قتل عمد لمجرد التوسط فى استئجار السيارة •

واذا كانت المساهمة الجنائية تتطلب تعاون أشخاص عديدين فلكل منهم دوره الريادى وارادته الاجرامية •

فسوف تعلمون عدالتكم من مسألة استئجار السيارة نقطتين :

١ ــ السيارة لم تؤجر باسم المتهم الرابع بل باسم متهم آخر ٠

٢ ــ قام الآخرون بتغيير تلك السيارة الى سيارة أخرى المزعم أنها أستخدمت فى الجريمة ٠

أى أن دوره فى مسألة السيارة لم يكن له وجود أصلا وبالتالى فان :

مقدار مساهمته ماديا فى احداث النتيجة قد انعدم تماما وبالتالى فلم يقم لا بعمل تنفيذى ولا بعمل تحضيرى ومن ثم :

١ ــ لم يكن فاعلا أصليا : لأنه لم يقتل ولم يضرب ٠

٢ ــ لم يكن مساهما أصليا : لأنه لم يقم بدور رئيسى فى التنفيذ ٠

٣ ــ لم يكن مساهما تبعيا : لأنه لم يقم حتى بدور ثانوى فيها ٠

ومن ثم فانه يكون قد انتفى الفعل الذى يقوم عليــه الركن المادى لأن الحقيقة الكبرى أنه لم يكن متواجدا عـلى مسرح الأحـداث على الاطلاق على فرض حدوث الواقعة وهو ما ننكره تماما ٠

ثانيا ــ ظروف المتهم والجريمة

(أ) أسباب الجريمة

قد يكون القتل عموما لسبب عاطفى أو سياسى انتقامى أو جنسى أو غيره ٠

واذا كان هناك أسباب عاطفية فى هذه القضية بين بعض المتهمين وغـيرهم وأيضـا توجد أسباب سياسية لانتماء البعض الى الجماعات الاريترية وأيضا أسباب انتقامية ٠

والمتهم قد انتفى فى جانبه أى من هذه الأسباب حيث :

١ — لم يثبت وجود أى علاقة عاطفية بينه وبين آخرين ٠

٢ — لم يثبت وجود علاقة سياسية على الاطلاق ٠

٣ — لم يثبت وجود أى أسباب انتقامية تدفعه الى تلك الجريمة ٠

٤ — لم يثبت وجود أدنى صلة أو عـلاقة بينه وبين المجنى عليـه أو زوجته ٠

اذن السؤال هو :

لماذا يقتل بالرغم من كل ذلك وما المقابل ؟ ٥٠ جنيه هراء ٠

الخلاصـــة :

انه لا يوجد أى سبب يمكن أن يقود المتهم الى هذه الجريمـــة على الاطلاق ولا يوجد أى سبب يدفعه الى ذلك أبدا ٠

والمحصلة الثانية :

انه لم يشترك فى الجريمة من أساسها ولم يـكن له دور فيهـا على الاطلاق لعدم وجود أدنى سبب لارتكابه الجريمة ٠

أما عن الزعم بالصـــلة المالية :

هراء وهزل وكذب ٠

انتفاء الدوافع على الجريمة ٠

انتفاء أسباب الجريمة ٠

انتفاء البواعث على الجريمة ٠

لا حافز — لا دافع — لا مصلحة ٠

لا غرض — لا باعث ٠

لا سبب على الاطلاق ٠

(ب) تحليل شخصية المتهم

ان التحليل الدقيق لشخصية المتهم يقود بلا أدنى شك الى أنه لم يشترك فى تلك الجريمة وذلك للأسباب الآتية :

فمن صفاته :

هــادى •
مستقيم •
متدين ومن أسرة متدينة وأبوين صالحين •
عطوف ــ مؤدب (بشهادة كل من يعرفونه) •

فوق كل ذلك :

طالب وصغير السن •
لا ماضى له ــ لم يرتكب أدنى ماخلفة •
لا سوابق له اطلاقا •
وبالتالى فشخص هذه مواصفاته لا يمكن أن يرتكب تلك الجريمة •

(جـ) العلل النفسية المصاحبة للمتهم

ولا يقصد بتلك العلل النفسية الجنون •
ولكننا نقصد النواحى النفسية المصاحبة لشخصيته حيث أنه :
انقيــادى •
انطــوائى •
ضعيف الشخصية •
سهل السيطرة عليه •
شخص مغلوب على أمره فى الذهاب والاياب وارادته غير كاملة •
فاذا كنا لا نسلم بحدوث تلك الواقعة من أساسها الا أنه على فرض حدوثها فان شخصية المتهم هذه قد يحتمل تقوده الى الذهاب معهم جبرا

عن ارادته بدليل عدم اشـــتراكه فى أى فعل وعدم صدور أى عمل تنفيذى فى الجريمة •

فالجبرية فى التصرف لا يمكن أن يسأل عنها الشخص أبدا ودليـــل عدم رضائه عن ذلك :

هو عدم ذهابه معهم الى حدائق القبة حيث الاتفاق على الجريمة •

ولذلك نشكر محررى المحضر حيث قرروا عدم ذهابه معهـــم الى حدائق القبة •

خلاصـــة الوقائع يا حضرات المستشارين الأجـــلاء

ـــ ان الواقعة من أساسها ملفقة ومخلقة •

ـــ ولكن على فرض حدوثها وهو ما لا نسلم به ـــ فان حظه العاثر هو الذى أوقع المتهم فى طريق احتياجهم الى سيارة ثم تدخل الحظ مرة أخرى لكى يكون له مجرد دور التوسط فى استئجار سيارة ثم استبدلها بعد ذلك عن طريق الآخرين بسيارة أخرى •

« الخلاصـــــة »

١ ـــ لم يكن معهم على مسرح الأحداث ومسرح الجريمة •

٢ ـــ ان المتهم كان مجرد أداة أو آلة صماء فى يد من حركها وهـــذا يدل على حسن نيته حيث فوجىء بما حدث أمامه مفاجأة ولم يخطر بباله على الاطلاق لعدم علمه بما سيحدث •

١ ـــ نشكك فى صحة الواقعة بالكامل لتلفيقها •

٢ ـــ عدم وجود المتهم على مسرح الجريمة •

٣ ـــ على فرض وجوده فقد كان أداة أو آلة صماء •

يا حضرات المستشارين :

الآن وقد فرغت من واجبى فاطلعتكم على القضية على قدر امكانياتى

المتواضعة أجد الزاما على ومن واجبى أن أقول كلمة هى فصل الخطاب فى هذه القضية .

فلقد شرفنا بالمثول أمام عدالتكم ونحـــن نرتجف من هيبتكم حيث تشرف عليكم فى سماء هذه الدار تلك الحكمة الخالدة التى تبلى الدهور وهى لا تبلى وتتغير المبادىء والأنظمة وهى ثابتة لا تتغير تلك الحكمـــة الخالدة التى تعلن أن العدل أساس الملك وأن أساس العدل هو القضاء العادل وأن القضاء هو القانون الحى وبغيره يصبح القانون فعلا عاجزا ضعيفا لا خير فيه ولذلك فنحن نمتلىء احتراما للقضاء ونحيطه بالمحبـــة والتقـــدير .

واذا كان واجبى كمحام قد انتهى الا أنه مما لا ريب فيه أن واجب المهنة المقدس يتطلب كثيرا من الصنعة وأنه فيما بين الأوراق والملفات والشهود والتحقيق والاتهام والدفاع يخلق جـــو خاص هو جو المحاكم وكثـــيرا ما تضيع على المتهـــم شخصيته فى وســـط هذا الزحام العلمى . فيصبح المتهم ويمسى فاذا به قد تحول الى نظرية قانونية أو دليل يتراشـــقه الخصمان النيابة والمحاماة فهو فى نظر النيابة مجرد اتهام وهو فى نظـــر المحاماة مجرد دفاع أما شخصيته أما حريته أما عواطفه فهى مســـألة ثانوية فى نظر الاتهام .

وانى أؤكد لحضراتكم أنه ليس أقسى على المتهم من هذا التجـــرد عن شخصه هذا التنكر عن أهله وجنسه وليس أقسى على المتهم من هـــذا التلبد عن عواطفه ولذلك يجب ألا ننسى أن المتهم الـــذى هو فى السجن مجرد رقم هو فى بيته حيـــاة ومحبة كمـــا يجب ألا ننسى أيضا أن المتهم الذى هو فى نظر النيابة مجرد اتهام هو فى الوقت نفسه ابن وأخ وصديق الأمر الذى يجعلنا نتطلع الى حضراتكم لتنظروا اليه بعينى العطف والعدل .. ولم لا وأنتم قضاة الحق وأيضا مربو الخلق ؟ .

وكلمة العدل التى بها تنطقون يتجاوب صداها فى نفوس ثائرة نفوس

فزعة حائرة فاجعلوا حكمكم رسالة عدل وبشرى سلام فاذا جنحتم الى الرحمة فاشملوا بها النشىء ولا أريد بالرحمة أن تتجاوزوا للمتهم عن شىء مما يستحقه عدلا لأنى لاأقول ان الرحمة فوق العدل بل أقول ان الرحمة هى أقصى وأسمى مرتبة من مراتب العدل فاذا طلبتها فانما أطلب العـدل فى أسمى معانيه واذا طلبتها فانما أطلب العدل المجـرد من كل مؤثر أطلب العدل الذى يقضى بقصاصين مختلفين اختلافا كبيرا على شخصين ارتكبا جريمة واحدة فى ظروف متشابهة لما بينهما من اختلاف الطبائع وتغـاير الأسباب والمقاصد .

ولم يتبقى فى النهاية .. يا ملائكة الرحمة على سطح هذه الأرض الا كلمة تخرج من أفواهكم اتعلن براءة المتهم مما أسند اليه ...

وأرجـو أن تتذكروا يا حضرات المستشارين وأنتـم فى خلوتكم المقدسة :

١ ــ ان المتهم ما يزال فى ريعان الشباب وزهرة الصبا .

٢ ــ ان صحيفـة سـوابقه نظيفة ناصعة بيضاء فلم يرتكب أدنى مخالفة طيلة حياته .

٣ ــ ان المتهم له أبوين قد بلغ بهما الكبر الحد الذى يجب عليـه أن يرعاهما .

٤ ــ ان المتهم ليس له دور فى هذه القضية المصطنعة وأنه لم يكن فاعلا أصليا ولم يكن مساهما أصليا ولم يكن مساهما تبعيا وان شخصيته انطوائية .

وأرجو فى النهاية أن لا أكون أطلت أو أثقلت على حضراتكم ولكنـه شرف الحديث الى قضاة مصر وواجب المهنة المقدس كما أرجو أن تغفروا لى ذلك الصوت الذى تحدثت به اليكم فانه لم يكن صوتى ولكنه صـوت المتهم يريد أن يصل الى قلوبكم الكبيرة لكى تقضوا له بالبراءة .

— ٢ —
اقوال مأثورة من مرافعـــة

يجب أن يعلم الطائشون أن اللعب بالنار فيـــه اذى والم وحـــرق وسقام وبالتالى يجب ألا يعود ذلك اليوم الكريه حيث ينظرون الى المتهمين باعتبارهم جرائيم وباعتبارهم أعضاء فاسدة يجب أن تستأصل ـــ فهم ينظرون اليهم تلك النظرة وكأنهم ليسوا من البشر •

ولكن الجرثومة الأولى فى تلك القضية هى ••
والجرثومة الثانية فى تلك القضية هى ••
والحقيقة أن الجرثومة الفاسدة الخبيثة الحقيقية فى تلك القضية هى على أمل أن تنحدر تلك النفوس الضعيفة فى مأوى الاثم والجريمة •

ولكنهـــم لا يتركون ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، حيث يأخـــذون ويتحكمون فى كل شىء •

ولكن فاتهم ••

وفاتهم أيضا ••

وصانعوا هذه القضية قد عبثوا بالقانون وعاثوا فى الأرض فسادا ولكننا ـــ مع كل ذلك ـــ على ايمان كامل بأننا أمام محكمة تحقق العـــدل ولا تعاقب الا بقدر الجرم وتبرىء من تعتقد فيه البراءة •

وذلك لأن من أهم خصائص القاضى العادل : تقـــدير أسباب الجريمة والنتائج المترتبة على الجريمة وحالة المتهم وتربيته ولأن المتهم مايزال صغير السن فانه يستلزم الرأفة وكذلك أعفى القانون القاصر لأنه لا يقدر تمام التقدير الظروف علها وبالتالى يلجأ الى حكمة القاضى فى تقدير ذلك حيث أنه ليس للمحكمة دار وليس للعدل وطن •

فأنتم ـــ وانى لأرتجف من هولها انتم ـــ أنتم لسان الله وصـــوت

القدر كونوا ــ علموا ــ ــ أخاطبكم ــ أناشدكم ــ طهروا ــ افهموا ــ اجعـــــلوا ٠٠٠

نحن ننام فى حراسة القضاء وعينه البصيرة وعقله الساهر عـلى راحة النـــاس ٠

أين العقل المدبر ٠٠

أين اليد المحركة ٠٠

أين الماكينة التى حركت هذه الآلات الصماء ٠

ولقد حدثت هذه القضية على سبيل الاستثناء ومن طبيعة الاستثناء أنه لا يعرف حدا لأنه لا يعرف قاعدة بل هو ضد كل قاعدة ولا يعبأ بعدل أو مســاواة لأنه لا مســـاواة مع استثناء ولا يخضع لضمان لأنه لا يرى ضمانا الا فى هدم الضمانات ولأنه انفكاك من كل قيد ولذلك فالاستثناء هو الظلم بعينه لأنه يفتح الباب لكل شهوة ٠

ونحن مع اعترافنا بحسن تقدير السيد النائب والنتائج الباهرة التى توصل اليها نستسمحه فى أننا نخالفه فى ذلك ٠

والبرهان والدليل على البراءة ٠٠٠

نحن نفهم أن ٠٠٠

نحن نفهم أن ٠٠٠

لكننا لا نفهم كيف ٠٠٠

ولا نفهم كيف ٠٠٠

— ٣ —
ختام مرافعة فى قضية مخدرات[1]

حقا .. ان الحق ميزة لدى صاحبه يجعله فى موقف مشروع تتضافر قوى النظام الاجتماعى وعلى رأسه القضاء على حمايته . ولازال الحق يستند الى سند من العدل يعصمه عن مزالق الزلل والخطر . وعما يعرضه للضياع والفناء ومازال هذا العدل يجد مرتعه خصيبا أمام قضائنا الشامخ.

فمنذ كان الانسان وحتى يكون كان العدل وسيبقى حلم حياته وأمل مفكريه وجوهر شبائعه وسياج أمنه . وكذلك كان وسيبقى رائدا لركبه على طريق الرخاء والتقدم والسلام . فالعدل كالخبز حق محتوم لكل مواطن والانسان كل انسان حرى بأن تصان كرامته حرى بأن يحفظ عليه وقاره فلا يؤخذ فى أمره بالمظنة ولا يجرى حسابه على أساس من الشائعات والتقولات .

وحسبنا الله ونعم الوكيل فيمن اصطنع هذه الدعوى ودبر لها . وحسبنا أن القضاء العادل سيقف بمشيئة الله حجر عثرة فى وجه كل من عبث بحقوق المتهمة الثالثة اذ العابث بحقوق الغير بأمل أن ينشىء لنفسه أو لغيره حقوقا عن طريق اغتيال حقوق الغير اغتيالا لحمته الغش وسداه سوء الضمير ، فلن يستطيع ذلك . اذ العدالة تتعارض كل التعارض فى الأخذ بيد من يعمل على هضم حقوق الآخرين وضياعها بأمل أن ينشىء لنفسه حقوقا فوق أنقاضها .

ومن ثم وفى اطار هذه الكلمة الختامية فان الدفاع عن المتهمة الثالثة وقبل أن ينتهى الى طلباته الختامية يستأذن المحكمة الموقرة أن يسجل :

اذا كانت أدلة الثبوت فى الدعوى قد انهارت برمتها بعد أن كشفت الأمور عن عدم جدية التحريات فحسب . بل خلت الأوراق تماما مما يفيد أن تحريات ما أجريت بل ثبت أن ما سمى بتحريات بالنسبة

---

(١) الموسوعة القانونية فى جرائم المخدرات — للأستاذ/احمد سعيد عبد الخالق ١٩٩١ ، ص ١٠٣ .

للمتهمة الثالثة على الأقــل لم يظهر على الساحة الا بعــد القبض على المتهمين الأول والثانى •

كما كشفت الأوراق على أن المتهمة الثالثة يشاركها فى السكن شقيهاء وهو المتهم الرابع وزوجته وابنته وهو الأمر الذى لم تتناوله التحريات وكشفت على أن مستصدر الاذن تضارب وتناقض فى أقواله مع معاونيه ومع وكيل الادارة التى يعملون به جميعا •• تناقضا صارخا •• فمن قوله أن المتهمة تتعاطى فحسب •• وأخرى لها ولأصدقائها •• وثالثــة بدون بدون مقابل •• ورابعة بعدم العلم بهذا المقابل وعدم استطاعة الجزم به •• •• وكشفت عن خصومة نشأت بين االمتهمين الثالثة والرابع ومحرر محضر الضبط ومعاونيه •• وتراخيا فى التحريز •• وعبثا تم فى محتوياته •• عدا عن فيلم سينمائى يجرى تصويره يستلزم تواجد مثــل الأدوات المضبوطة •• مع شيوع للاتهام على النحو الذى أنف بيانه •

وفى اطار هذه الكلمة الختامية تستوقفنا قضية النزاع أو قضية •• •• كما أطلقت عليها الصحافة وصورتها وجسمتها حتى أصبحت على كل لسان • وها هى قضية •• •• بين أيديكم فهل كانت تحتمل هذه الضجة الاعلامية ؟ وهل هى القضية التى كانت تستأهل العجلة فى ورود تقــرير المعمل الكيمائى فى أقل من أسبوع من تاريخ ارسال الاحراء للمعمــل ؟ وهل هى القضية التى كانت تستوجب العجلة فى نظرها وتقــديم المتهمين محبوسين على ذمتها •

ولكن قد تكون المصلحة فى هذه العجلة •• فاذا كانت الدعوى قــد ركبها شيطان السوء فلا نظن أبدا أن القضاء العادل وهيئتكم الموقــرة خاصة وقد عقد لقضائها جوا مليئا بالقانون والعدل •• سوف تلوى وجهها عما اكتسح هذه الدعوى وعما قوضها مما جعل ماديتها تعلو سحبا مكدسة وتحتويها ظلمة كالحة ويكتنفها الاضطراب الفادح •

ولكن شمس الحقيقة •• وان تحجبها غيوم الباطل •• فالى حين •• وان غدا لناظره لقريب •

فهرست الكتاب

الموضـــوع — الصفحة

الموضـــــوع | الصفحة

رقم الايداع ١٩٩٣/٩٢٦٥

الرقم الدولى

I.S.B.N.

977 – 5160 – 23 – 5

مطـــابع الدار البيضـــاء

الحاج احمد سعد الأبيض وأبنائه

القاهرة — العباسية ١٨ ش مستشفى الدمرداش ت ٢٨٢٥٠٤٦